

عبد الكريم غلاب
المعلم علي
فازت هذه الرواية بجائزة المغرب
قررتها وزارة التربية الوطنية على تلاميذ الباكلوريا

عبد الكريم غلاب



الطبعة الرابعة

1984



- ١ -

– أفق يا بني ... أفق فقـــد أضاءت الشمس مشارف السطوح .

– ... ... خو ... خو ...

– أفق يا علي ... مالك أصبحت ككيس رمل لا تطيق حراكاً ...

– أوه ...

ندت من علي وهو - يشير بيده متأففاً - غارق في نومه العميق ، وكأنه في أول ليله .

- انهض - تحاول أن ترفعه من ذراعه - ستبقى طفلاً في حاجة إلى من يوقظك ، ولو أصبحت رجلاً ترعى أولادك ... انهض ، فقد يطردك « المعلم » إذا تأخرت مرة أخرى ...

وصكت أذنيه كلمة « يطردك » كما لو كانت نفيراً مزعجاً أطار النوم من رأسه ، وفتح عينيه وهو يتمطى على لحافه ، ويعود فيسحب الغطـــاء على وجهه ، وقد لسعه برد الغرفة القارس ، ويهمهم غاضباً وما يزال النعاس يشده إليه :

- دائماً تزعجينني... في الصباح ، في المساء ، في النهار... ما يزال الليل يسدل ستاره على الدنيا وهي توقظني كما لو كنت مذنباً أُساق إلى مصيري ...

وسكت صوته ليعلو تنفسه مستأنفاً نوماً بدأ يكون عميقـاً .

ثارت أعصاب الأم وهي تتشاغل بتنظيم الغرفة التي ما تزال تغرق في ظلام دامس ، وحاولت أن ترفع صوتهـا بالنذير ، ولكنها تذكرت الجيران ... ثلاث عائلات تضمهن الغرف المجاورة التي تتحلق صحن الدار ، وكلهن تريد أن تنعم بفترة هدوء في الصبـــاح الباكر قبل أن يسعى الرجال إلى العمل والأولاد إلى المنسج والحذاء ودكان تبييض النحاس ...

رفعت عقيرتها ، ثم تراجعت كما لو كان صوت من ورائها يهمس :

– هوس ... هوس ...

وتركت تنظيم الفراش لتعود إليه توقظه بيديها لا بصوتها:

– علي ... علي ... المعلم سيطردك...أنا لن أنتظرك... أنا خارجة ، ولو تركتك لغرقت في نومك حتى الضحى ... انهض فسيصل المعلم إلى المطحنة قبلك ، ولن يغفر لك هذا التأخر مرة أخرى بعد ما أغضى عن تخلفك عدة مرات .

رمى عليّ الغطاء بعصبية ناقمة وهو يفكر في «المعلم» لا في أمه ، فقد كان يستطيع أن يتخلص من مضايقاتها لو لم يكن هو ... هو ، المعلم الذي لا يقبل أن يصل إلى المطحنة دون أن يجد على بابها المتعلم ينتظره ، ورفع رأسه وكأنه لم يرفعها من قبل ... ثقيلة ، ثقيلة هذه الرأس تظل تدور ...تعمل... تحذر ... تحفظ عناوين الدور وطريق الزقاقات والحواري ، وأوامر المعلم وتوصياته ، حتى إذا أوت إلى المِخَدّة – الملعونة الخشنة الجافة كأنها جلمود صخر – انطلقت أمه ترفعه عنها كما لو كانت مكلفة بتعذيبه .

– ايه ... ها نحن استيقظنا ... كم الساعة ؟

– الساعة ، هل كنت أعرف الساعة أو أملك الساعة

حتى تسألني الساعة ... الساعة هي الشمس التي لم يبق لها إلا أن تطل على مشارف السطوح .

وضع علي يده على فخذه كأنه يستريح من إجهاد، ويحاول أن يوهم فاطمة انه سينهض حتى تتشاغل عنه بمشاغل اخرى ، وفي هدأة صوتها وحركتها تسَمَّع ... أرهف سمعه ...

– الشمس توشك أن تطل على مشارف السطوح ... شمس محرقة بدون شك يا أمي ... ألم تسمعي ؟ أفتحت البوابة وأطللت على صحن الدار ...؟ المطر ... المطر يا لَلّا[1] ... يا سيدتي ينزل خيطاً من سماء وأنت تقولين: إن الشمس توشك أن تطل . . الشمس من لنا بها تدفىء عظامنا وترحمنا من هذا التيار الذي يتلف رؤوسنا بين باب المطحنة ونوافذها .

أضاف علي يحدث نفسه :

– يوم آخر سنقضيه بين الوحل والماء ، هذه «الخنشة[2]» القذرة التي أضعها على رأسي أتقي بها المطر ... أصبحت منخلاً لا تزيدني إلا ثقلاً على ثقل ... يوم آخر سأقضيه مع هذا الحمار الحرون المعاكس ... كأن الحمير قلّت في هذا البلد ... لو كنت مكانه ... لو كنت « معلماً » لبعته منذ مدة لأشتري حماراً نظيفاً قوياً يحمل بدل خنشة الدقيق

(١) للاّ في اللهجة المغربية تعني : سيدتي .
(٢) كيس من خيش .

خنشتين . . ولكني لست معلماً ... متى أكون ...؟ هو لا يخسر شيئاً ، أنا الذي أظل وراءه أو على ظهره ، كلاهما شر : يقودني أو أقوده ... آه من المعلمين ... ولكن هو يدعي ... يزعم انه لا يربح عشاء أولاده ، فمن أين يشتري جذعاً قوياً ...؟ لو صَفّح قوائمه فقط لاستطاع أن يغوص في الوحل ويرفعها بسهولة ... ولكنه حمار ... حمار ...

واستدرك ، أعني : الحمار ... لا ، لا ... المعلم معلم ... والحمار حمار ...

واستثار انتبــاه أمه وهو يحدث نفسه وتند عن يده إشارات.وكأنه يخاطب شخصاً آخر :

– آويلي ... هل جننت ؟ قم ، انهض يا بني فأقرانك قد وصلوا إلى مراكز عملهم .

وضاق ذرعاً بكلمة أقرانك فصرخ محاولاً أن يخفف من حدة صوته :

– أقراني ... دائماً أقراني .. ليس لي قرين ... هل ترين أقراناً لي يحملون كيس دقيق من المطحنة إلى المنزل ، كيس قمح من المنزل إلى المطحنة ،يحملون الغذاء إلى الأفواه ويعودون ولا كلمة شكر ، حتى كلمة : الله يرحم والديك ...

– أصبحت اليوم ثائراً كما لم تصبح على يوم ممطر كيومك

هذا ... انهض وقل : باسم الله ، الله يلعن الشيطان ... إبليس هو الذي يثير أعصابك ...

ونهض علي مستسلماً وهو يهتف :

– الله يلعن الشيطان ...

ثم عاد فاستدرك :

– الشيطان هو بنو آدم ... « المعلم » أليس شيطاناً...؟

ونظرت إليه فاطمة في استنكار وهي تقول :

– يا بني ارحم نفسك وارحمني ... أسرع لتلحق بعملك، فعملي ينتظرني .

– ماذا ينتظركِ من عمل ...؟ أنت الأخرى ينتظرك اليوم عمل في هذا الجو المكفهر .

– وهل تريدني أن أجلس بدون عمل ؟ من أين تأكلون أنت واخوتك ؟ من « الزواليغ[1] » التي يتصدق بها عليك المعلم ...؟

وأبْلَسَ عليٌّ فليس لديه حجة يرد بها منطق أمه الواقعي. ولكنه لم يقبل أن ينهزم ، فأجاب متسائلاً :

– وما عملك اليوم ؟

(١) الفلوس القليلة .

ألقى السؤال لمجرد السؤال ، فهو يكاد يعرف نوع العمل الذي تمارسه أمه يومياً ، ولكنه أشفق من اليوم المطير وكأنه يأمل في قرارة نفسه أن يؤخر العمل ليوم مشمس...وواجهته فاطمة ساخرة مصعدة آهة حرى :

– نوع عمـــلي اليوم ؟ سأعمل « نكافة » أو ماشطة أو معلمة ...! نوع عملي أنت أعرف به مني « التصبين » ... غسل الثياب يا سيدي المعلم ...

– غسل الثياب ! وهل هم في حاجة إلى « صبانة » ...؟ يكفي أن يضعوه تحت السماء لتتولى غسله كما لو خرج من يدي صبانة ماهرة ...!

– السماء ستغسلنا نحن ... نحن الذين سنظل تحت السماء راكعين نَـهْري أيدينـا بين الصابون و « الليان[1] » والنشا والنيلة ، وتهري السماء ظهورنا بمطرها المتواصل .

وأشفق على أمه ، فقد اقشعر بدنه وهو يتصور يديهـا غارقتين في الغسيل ورجليها غارقتين في مياه صقيعية على زليج بارد ، وظهرها معرضاً للسماء أمطرت أو اكفهرت أو أثلجت أو زمجرت بقصف رعودها ولمعان برقها . وعاد ففكر في نفسه ، وهو يطرد عاطفة كادت أن تستغرقه .. هو الآخر

---

(١) نقيع الرماد كان يستعمل في غسل الثياب .

سيظل بين الوحل والماء يسوق حماراً حروناً أو يسوقه حمار حرون ... ما الفائدة في أن يشفق أو يتألم أو يبكي ...؟ ليته يستطيع أن يبتعد عن رفيقه هذا في يومه البارد الممطر، وليتها تستطيع ...

ورنت في أذنه كلمة « ليت » كما لو كان يتحدث بها إليه شخص آخر فصعدت من أعماقه زفرة، سرعان ما تحولت على شفتيه ابتسامةً صامتةً ساخرة ... فـ « ليت » هي الكلمة التي تراوده كل صباح قبل أن يفتح عينيه من نعاس، قبل أن يرفع رأسه الثقيلة عن وسادته الثقيلة، وهي التي تظل تراوده وهو يسير إلى مصيره إلى المطحنة، وهو ينتظر على باب المطحنة، وهو يحسب الدقائق التي قد يتأخر فيها المعلم، وهو يقود الحمار من الحظيرة إلى المطحنة، ولكنها تختفي من أمله حينما تصطدم أذناه بأوامر المعلم وتعليماته الصباحية ... تختفي « ليت » التي تظل تلح :

ـ ليتني أصبحت مريضاً فتخلفت عن العمل .

ـ ليت المعلم دَهَمَته داهية فاختفى عن وجهي لعدة أيام.

ـ ليت الحمار مات فأراحني من معاكساته ...

ـ ليت جائحةً أصابت هذا العالم فأراحتنا جميعاً من بعضنا ...

والتفتت إليه أمه وهي تستبطىء حركاته :

ـ أسرع يا أخي ، أسرع ...

ـ أسرع ... أسرع ... أسرع في ماذا ...؟ نهضت من نومي وانتهت المشكلة ... ليس أمامي إلا الباب ...

ـ لا صلاة ولا صيام ... توَضأ وصلِّ يجعل الله البركة في يومك .

ـ صلّى أجدادنا من قبلنا ، وسيغفر الله لنا بصلاتهم .

ونظرت إليه فاطمة يائسة نظرة عتاب دون أن تنبس ، ولكنها تذكرت المرحوم والده فقد كان لا ينطلق لعمله حتى يمر بأقرب مسجد إليه ليؤدي صلاة الصبح مع الجماعة . واغرورقت عيناها بالدموع وفكرت :

ـ لا دنيا لا آخرة ...

التفت علي يميناً ويساراً وهو يحاول أن يتبين على الضوء الباهت الذي يتلصص من شقوق الدفتين ـ « محصوره[1] » وطاقيته ، فلم يستطع أن يرى شيئاً ، وركع على الأرض يتلمس بيده في حذر كما لو كان أعمى يبحث عن فلس ضائع وهو يقول :

ـ أليست عندك شمعة أو حق وقيدة ؟

---

(١) شبه قميص يلبسه العامل فوق ملابسه كأنه بذلة العمل

ـ لا شمعة ولا وقيد ... إلى أن يقدم المساء مرة أخرى يفتح الله باب الرزق .

فأجاب مغالطاً :

ـ ألم تكفك أبواب السماء المفتحة . .!؟ كل رزق الدنيا منهـــا ... ولكن للآخرين الذين سيحصدون القمح لنطحنه نحن فيأكلون ...

واصطدمت يداه في الظـــلام ـ وهو ما يزال يتحسّس محصوره ـ برأس صلبة ففكر في أخوته ، وانطلق تفكيره من لسانه وهو يتحدث إلى نفسه :

ـ عيشة وكنزة والجيلالي يبقون نائمين . وأنا ، أنا وحدي الذي أواجه غضب العاصفة في هذا البرد القارس ...

- ٢ -

على باب المطحنة كان يقف تحت سقيفة من صفيح دقت على خشبة مهترئة ، يحاول أن يتقي بها المطر المتهاطل كأنما ينصب من أفواه القرب . عيناه زائغتان تتلفتان ذات اليمين وذات الشمال كأنهما تبحثان عبثاً عن مستقر . فكره منفعل مشتت لا تنعكس عليه أضواء الصبـــاح ولا يتسم بهدوئه . تزيده اضطراباً هذه الضوضاء التي تحدثها قطرات المطر المتلاحقة على السقيفة الصفيحية . كانت الرياح تعوي منطلقة من الدروب

والمتعرجات،عواؤها يصب في أذنيه مزيداً من القلق والانفعال والتطلع . كان النهر يهدر في الوادي الصخري، مياهه الجارفة تصطدم بالصخور والأرصفة تجرف معها نفايات منازل المدينة وأكواخها ومجازرها ومزابلها. مياه المطر تنزل من الأعالي مع النهر كتيار جارف يحمل الأتربة والطمى والأحجار والأعشاب وفروع الشجر . انها الطاقة التي تحرك المطحنة ، طاقة جبارة تعطيها السماء لمن يقدّرون عطاء السماء ...

ولكنه ... هو ما يزال غارقاً في نومه العميق يستلذ بدفء غطائه وشخيره ...!

وأغرق «المعلم التدلاوي» في التفكير حتى سهَا عن أنبوب الماء الذي كان يخترق خروم السقيفة الصفيحية فينزل على عمته المكورة ويَبُل لحيته الخفيفـــة ، ويتسرب من جلبابه الذي أرهفه البلي فلم يعد يصمد لدفع حر أو الوقاية من برد .

فكر : ولكنه يعرف أني أنتظره ... هذا الشقي الذي لا يغالبه في حرنه إلا حماره ... كم التزمت أمه بأن تصحّيه مبكراً ، ولكنها هي الأخرى لا تفي ... أصبحت مغلوبة على أمرها أمام شقائه ... لعلها دفعت به إلى الشارع،ولكنه كعادته لا يعرف الطريق المستقيم إلى المطحنة . يمر من «باب السلسلة » ، أعرف ذلك ... يقف أمام « شوطة » : رائحة

« الحريرة[1]» ، بخارهـــا يملأ دكان « شوطة » يتسرب إلى خياشيمه ، فتتحلب أشداقه ويقف في مكانه كأنما سمرت رجلاه بأمراس من حديد ... لا ، لعله الآن يستدفىء بزلفة[2] من حريرة ساخنة ، وأنا هنا أستدفىء بتيارات الرياح اللافحة...! آه من الشقي ..! سأعرف كيف أرغمه على الطاعة .

وتذكر المعلم التدلاوي كأنما كان قد نسي شيئاً مهماً :

.. أخذ أمس قرشاً من الحاج التهامي ، هو الآن في دكان بائع « الاسفنج[3] » ، دائماً يقف بجانبه ، رائحة الاسفنج تقطع طريقه كأنما تبيت أمعاؤه تعوي من جوع .. قرش .. اسفنجتان ساختنان في صباح مقرور كهذا .. يفعلها الشقي.. نسي المطحنـــة ، ونسي موعد العمل في سبيل اسفنجتين ساخنتين .. سأعرف كيف أجعله يحترم موعد العمل ..

وقفز إلى ذاكرته خاطر وهـــو يغالب ظفراً استعصى على أسنانه :

ولم لا يفعلهـــا ..؟ قادر على ذلك : بائع الرؤوس في طريقه ، بجانب بائع الاسفنج ، جائز أن يكون قد حصل على

---

(١) نوع من الشوربة . و « شوطة » هو بائع الحريرة .

(٢) اناء تشرب فيه الحريرة يسمى في مصر مثلاً سلطانية .

(٣) نوع من الفطير يقلى في الزيت .

قروش أخرى من الحاج عمور والحاج التازي والسيد الحلو ، كلهم ينفحونه بعض العطاء حينما يحمل إليهم الدقيق بالسرعة المطلوبة ، وهو الآن يلتهم نصف رأس بنسف رطل من الاسفنج ، وسيصل إلى العمل وفي بطنه غذاء يوم .. وأنا ..؟ أنتظر في لفح الريح وتحت هـذه السقيفة الملعونة التي لم تعد تتحمل حتى قطرات المطر ..!

ويرعد هدير النهر في اذن « المعلم التدلاوي » فيستفيق من أفكاره يجتذبه الهدير والصخب واصطفاق الميـاه التي تتدفق على الصخور من علٍ كأنمـا تنحدر من شاهق في شلال عميق الغور ، واندفع ليطل إلى الوادي العميق وقد غسله التيـار الجارف من نفايات المنازل ، فلم تتصاعد منه الرائحة المغبرة التي تملأ الحي ، وتنعطف صيفاً فتنفح فاس كلهـا ببركاتها ..! وإنما هي المياه العكرة التي جرفت كل ما في طريقها .

هالـه ما رأى من قوة الماء فخشي ألا يكون طاقة محركة بل يصبح طاقة مُدمّرة ينفجر في المطحنـة فيغرق الحرث والنسل ، يتلف قمح المعاملين ، ودقيق التجار ، و «ماعون[1]» المطحنة ، ويعطل العمل لعدة أيام .

وتذكر الله ، والهول يفزعه من علو ميـاه الوادي فوق القـدر المطلوب ، فابتدأ يتمتم ببقايا « دليل الخيرات » في

---

(١) أدوات العمل .

ذاكرته . نسي علياً – متعلم المطحنة – واندست يده في جيبه تبحث عن مسبحة . وبتتالي حبات المسبحة تذكر ما ندّ عن ذاكرته ساعة الفزع فأسرع لسانه بالدعاء : اللهم حوالينا ولا علينا .. اللهم احجب عنـــا غضبك وارفع مطرك .. اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ..

ولم يستطع أن يبتعد عن الوادي فقد خشي إن هو ابتعد أن يزيد المـــاء ارتفاعاً وأن تقع الكارثة وهو في غيبة عن المسرح ، ظل واقفاً فاغراً فاه محدقاً في شدَهٍ كأنمـا يبحث عن شيء ضاع بين الصخور والأعشاب المنجرفة .

كان علي يقترب من المطحنة وهو يسير بأقصى ما يستطيع من سرعة،تحت سماء لا ترحم وأرض لا ترحم، وفي بركة وحل تعوم فيها قوائمه ، كان بين السماء والأرض ، كل قطرة مـــاء تنزل من السماء تعاكسها لطخة وحل ترتفع من الأرض فيصيب رشاشهـا بلغته وقدميه ورجليه ومحصوره . وكان يحاول أن يتقي الحفر العميقة فيقفز من صخرة ناتئة إلى ما يحسبه أرضاً مسطحة ، ولكنه يكاد في كل قفزة أن ينطرح أرضاً . فهذه البلغة التي لم يعد فيها إلا الهيكل تخون رجليه فتجتذبه ليسبح في بركة الوحل . أما آن لهـــا أن تريح وتستريح .. تمزقت سيورها من يمين وبسار وخلف وأمام كأنها تود هي الأخرى أن تعُبّ من البركة الطينية . واتسعت خروقها فتسربت المياه

والأوحال إلى قعرها المجوف . ومال جانبها حتى استحال وجهها قعراً وقعرها وجهاً ، ومع ذلك لم تقتنع أمه ولم يقتنع المعلم أن ينفحاه ما يستعيض عنها ببلغة جديدة ، أعني ببلغة مستعملة مجددة من « الطرافين[1] » تصمد للماء والوحل والعمل الدائب .. ولم يقتنع هو الآخر أن يستغني عنها فيتركها في الأيام المطيرة على الأقل تستريح في المنزل – كما نصحته أمه عدة مرات وكما طلب إليه المعلم التدلاوي– ويسير حافي القدمين خفيف الحركة سريع القفز ، فقد تآكلت قدماه من الحفاء ، وهو يظل حافياً منذ أن يدخل باب المطحنة في الصباح حتى يودعها في المساء يتنقل في الزقاقات والدروب والشوارع حافياً في الصيف حينما تكون الأرض تلسع بنيرانها المحرقة ، وفي الشتاء حينما تكون الشوارع غارقة في وحلها ، فلم لا يرحم قدميه ولو لفترة من نهاره ما بين منزله ومطحنته ..؟

وأسلمه المُنعَرَج إلى فسحة المطحنة ، ولكنه لم يستطع أن ينطلق إليها بكليته وقامته ، فهو يخشى أن يكون المعلم التدلاوي قد سبقه إلى الباب ، وهو يعرف انه سينتظره ولن يفتح باب المطحنة ما لم يكن علي واقفاً على بابها في انتظاره . أطل خلف المنعرج على باب المطحنة فلم يلحظ شبح المعلم ،

---

(١) سوق بيع البلغ القديمة .

وانفرجت الدنيا أمام عينيه كما لو كان أدرك حريته . وتسلح بجرأته وشجاعته ليقتحم الفسحة ، ولكنه لم يكد يتوسطها وهدير النهر يملأ اذنيه حتى بصر بالمعلم مطلاً على حافة الوادي ومسبحته بيده .

تجمد علي في مكانه فلم يستطع حراكاً . نسي البلغة ومضايقاتها ، والسماء وأمطارها، وبركة الوحل التي تغوص فيها قوائمه كلما رفع رجلا وحط أخرى ، وتسمرت عيناه في المعلم المطل على الوادي المتشاغل بتياراته .

ماذا سيفعل بي وقد سبقني مرة أخرى إلى المطحنة ؟ ستثور أعصابه .. سيقذفني بشتائمه .. سيبصق في وجهي .. سيحرمني من فطوري .. من غذائي .. سيطردني..سيطردني؟ آه لقد أقسم على ذلك لأمي .. يفعلها .. لقد طرد قبلي متعلمين كثيرين .. ضاق بي ذرعاً كما ضقت به وقد آن أن يتخلص مني ..

تملص من أفكاره وسار على أطراف قدميه ــ حذراً أن يثير انتباه المعلم التدلاوي ــ إلى باب المطحنة حيث توارى في زاوية منها تحت السقيفة التي كادت تهوي تحت ثقل الأمطار وشدة الرياح .

وانتظر ــ كما ينتظر دائماً ــ المعلم ليصل من منزله متشاغلا بقطرات المطر وهي تحدث دويها المثير على السقيفة المتخرمة .

لم ينتظر طويلاً فقد استعاد المعلم التدلاوي وعيه ، وفارق رصيف الوادي ليتفقد باب المطحنة باحثاً عن علي ، لحَظَتْه عيناه واقفاً متشاغلاً بالماء ينزل من خروم السقيفة يتلقفه بفم مفتوح كما لو كان يشرب من أنبوب ثَرٍّ .

ووقف المعلم التدلاوي بعيداً عنه مقطباً وجهه يطفر الغضب من عينيه ، ثم عاد فابتسم ، ففي منظر علي وهو يتلقف قطرات المطر بفمه ما يبعث على التسلية والابتسام . وأدرك علي أن شخصاً ما ينظر إليه ، يترصده ، يتتبع حركاته ، فاعتدل في وقفته ، وتلفتت عيناه نحو الشخص ، نحو المعلم التدلاوي ، فجحظتا رعباً كما لو كان لا ينتظر قدومه . اضطرب ، لا يدري أيتقدم إليه ليبتدره بتحية الصباح أم ينتظره هو ليتقدم إلى باب المطحنة ؟ كلاهما مرّ ، ولن تؤجل إحداهما العقاب أو تعفيه . فقد وَشَتْ عينا المعلم بما ينتظر علياً من عقاب ، ولكن لم يتردد طويلاً فقرر أن يتقدم خطوات إلى المعلم التدلاوي ليقبل يده في خضوع المتعلمين .

ولم يكد ينحني على اليد المعروقة المتشققة حتى ارتفعت كفٌ قوية سريعة الحركة فلطمت الخد الفتي الذي جمده البرد القارس . ولمع برقٌ بين العينين المرعوبتين ولم ترتفع يده في مواساة إلى خده ، فقد خشي أن يعتبر المعلم ذلك شبه تألم

فتهوي اليد اليمنى على الخد الأيسر بمثل ما هوت اليد اليسرى على الخد الأيمن ، وإنما وقف متجمداً ينتظر بقية العقـاب . وصدق حدسه ، فقد انطلق من فم المعلم بصـاق لم يفاجىء الوجه المبلل بماء السماء ، وأردف الفم الحاقد :

ـ الله يلعن الشمايت[1] .

ـ . . . . . .

ـ أين كنت حتى الساعة ؟

ـ . . . . . .

ـ أجب .. لا تحير جواباً .. الشمس على كل حلقة [2] ..

وكاد علي أن يرفع رأسه إلى السماء ليرى الشمس تطل من مشارف السطوح .. ولكنه لم يجرأ .. فقد كانت أذناه تتابع بقية الحديث :

ـ أين كنت حتى الساعة ؟ أجب ..

وتوقف المعلم التدلاوي ينتظر الجواب :

ـ كنت .. كنت .. تأخرت بسبب المطر .. و .. والوحل ..

---

(١) جمع شماتة أي الذي يشمت به الآخرون ويراد منه المتخلف المغلوب.
(٢) حلقة المنزل : شرفة السطح التي تشرف على وسطه .

ـ المطر والوحل..؟ كأنك لم تسر تحت مطر ولا خطوت في وحل من قبل.. كلك (هو ينظر إلى قدمي علي ومحصوره) وحل من أخمص قدميك حتى قمة رأسك، ألم توقظك أمك صباحاً رغم تهديدي ووعيدي ..؟

ـ أيقظتني ولكن ..

ـ ولكنك (وفي لهجة ساخرة) مررت بشوطة وأترعتها حريرة ساخنة ..

ـ والله .. والله آلمعلم ما ذقتها ..

ـ مررت بالسفاج.. من باب السلسلة قدمت ، كان إسفنجاً ساخناً ..! أليس كذلك ..؟

وكاد فكر علي ينصرف إلى الحريرة الدافئة اللاذعة وإلى الاسفنج اللذيذ لولا ان المعلم التدلاوي كرر في لهجة صارمة متخلياً عن لهجة السخرية :

ـ أليس كذلك ..؟ عند السفاج أضمت الصباح ..؟

ـ والله آلمعلم ما ذقته .. من الدار للمطحنة ..

ـ إذن عند بائع الرؤوس ..

وعادت إليه لهجته الساخرة فأردف :

ـ كانت رأساً سمينة ساخنة .. أليس كذلك ..؟

وفكر علي :

ـ رأس سمينة ساخنة ـ كاد أن يبتسم ـ حلم جميل في صباح قارس مطير .. لا أذكر يوماً ذقت فيه رأس الخروف .. لعل ذلك كان في آخر عيد قضيناه في رعاية المرحوم . كان ذلك منذ وقت طويل ، ولكني آكل رأس خروف واسفنجاً وأشرب حريرة ساخنة كل صباح في خيال المعلم .. ترى لو أفطر حتى الشبع قبل أن يصبّحنا وجهه المكفهر أ كان يحلم بأني تخلفت عند السفاج والروّاس وشوطة ..؟

وانتزعه من تفكيره صوت صارم :

ـ أين الحمار ..؟

ـ الحمار ..؟ الحمار ـ آلمعلم ـ في المرأب ..

ـ كعادتك لم تفكر في استصحابه .. أنت دائماً عدو الحمار ..

وأثارت كلمات المعلم التدلاوي في فكر علي كل المعاكسات التي يلقاها من حماره فأجاب لمجرد أن يجيب :

ـ إنه ـ آلمعلم ـ هو .. عدوي ..

ـ اذهب عليك اللعنه ..

وذهب تتبعه لعنات المعلم ولكنها كانت أرحم من أن تظل عيناه مسمرتين في وجهه القاسي . أخذ يسير وهو يغمس

قائمتيه في برك الوحل ويثير من خلفه لطخات تقفز حتى وسط ظهره ، ولم يستمر فقد توقف على الصوت الصارم يهتف :

ـ آجى .. تعال هنا ..

وتلفت خلفه مرة أخرى وهو يتوقع أمراً جديداً أو لطمة جديدة .

ـ ارفع نعليك وسر خفيفاً سريعاً حتى لا تضيع بقية النهار في استقدام الحمار .

ورفع نعليه ليغوص بقدمين حافيتين في برَك الوحل . ولم يشعر بفارق كبير ، فقد كانت البلغة لا تقي رجليه من ماء أو وحل ، من قساوة الأرض ورطوبتها . سار سريعاً يكتم أنفاسه حتى غيبه المنعرج فتنفس الصعداء وهو يفكر :

ـ خرجَتْ بسلام ، كان يمكن أن .. (لم يجرأ على أن يفكر في كلمة الطرد) معلم كهذا يفلت منه زمام أعصابه .. يثور لأقل سبب .. ينتظرني على باب المطحنة دون أن يرحم نفسه من المطر القاصف والرياح العاصفة فيدخل المطحنة ، لأنه فقط مشغول بعقابي ، الحمد لله مرت بسلام ..

وفي باب « الفندق[1] » اصطدم علي بالفندقي وهو يطالبه

---

(١) مرأب الحمير والبهائم وقـــد يبيت فيه القادمون على المدينة من بدويين على الأخص .

بالأجرة قبل أن يخرج الحمار ، ولم يقنعه بأن المعلم سيدفع غداً إلا بعد لأي .

عاد إلى المطحنة يركب حماره وقد خفت شدة الأمطار وهدأت الرياح العاصفة . ركب حماره ورجلاه متدليتان تكادان تلمسان الأرض ، عاد يضرب الحمار ليستفيق من نومه تارة ويهمس لنفسه تارة اخرى مُغنياً :

ـ آننا نانا يالعروبي .. آننا نانا ..

ترجل علي عند باب المطحنة ليفاجأ بالمعلم التدلاوي غارقاً في الماء حتى ركبتيه ، وهو يهتف :

ـ الله يلعنه نهار .. الله يلعنه يوم .

- ٣ -

أرخى الظلام سدوله وكفّت السماء عن صب أمطارها ، ولكنها ما تزال مغلفة بسحب داكنة تطبق على المدينة فتلفها في بؤس قاتم . كانت الرياح مـــا تزال تعوي في الدروب والمنعرجات والزقاقات الضيقة ، فتجمع كل زمهرير السماء والأرض لتلفح به الوجوه الناعمة والخشنة على السواء . وتجمع وحل الشوارع والأزقة بعد أن كف عنه الماء حتى أصبح طيناً لزجاً لا تثبتُ عليه قدَمٌ ، يتأرجح راكبه كما لو كان راكب

قارب تكاد الأمواج تعصف به .. ومن ثم لم يكن للسائرين أمل في أن لا يتزحلقوا أو ألا يزحلق بعضهم البعض الا أن يتلقفهم جدار أو يمسك أحدهم بتلابيب الآخر .

وفي شتاء فاس تطول الليالي حتى لكأنها تجمع ليلتين في واحدة . وتضيء زقاقاتها مصابيح معتمة متباعدة لا تكاد تضيء محيطها ، فتبدو كنجوم تطل منها سماء ملبدة بالسحب، ولكنها في ليالي الشتـــاء تنطفىء هنا وهناك بفعل الرياح والاستهلاك والحَصَيّات الصغيرة التي يحاول الأطفال أن يصطادوا بها العصافير بمقالعهم المطاطية الصغيرة . وكانت الدروب الضيقة والزقاقات غـير النافذة لا تكاد تعرف حظاً من نور ، فهي في ظلمة نهاراً إلا أن يتسرب إليها بصيص من شق صغير ، ولم تصلها كهرباء الليل رغم أنهـا كانت تعرف مصابيح الزيت قبل أن تعرف المدينة الكهرباء . وكان على الذين يحذرون أن يصطدموا بصخرة أو انسان أو جدار أن يخرجوا من منازلهم وفي يدهم شمعـة أو وقيدة يتلمسون على شعاعها طريقهم ، ولذلك كان النداء الذي يتردد في هـــذا الركن أو ذاك من الزقاق :

ـ آضوي الله يرحم والديك ...

وينطلق هتاف آخر من عمق المنعرج :

ـ آرد بالك[1] .. ألا ترى ..؟ أين عيناك ..؟

ـ آسيدي وسّع خاطرك .. الله يجعل عذرنا الشتاء ..

واصطدمت فاطمة أم علي وهي عائدة الى المنزل بصبية تحمل سطل مـاء تكشف عنها المنعرج ، كانت الصبية تحمل الماء من بيت الجيران فتزحلقت وانكب السطل وتطاير رشاشه يصيب القادمين والرائحين . تمايلت فاطمة حتى كادت تسقط لولا انها تماسكت وهي تمسك بآجرة الجدار الناتئة ، ولم تكن تخشى أن تقع أرضاً بمقدار ما كانت تخشى أن يقع صحن تحمله في حذر على كفهـــا اليسرى فيه صبة من أكل تغطيه خبزة مستديرة، هي جزاؤها ـ بعد الأجر البسيط ـ على استمرارها في غسل الثيـــاب حتى ساعة متأخرة من المـاء . وذعرت فاطمة بمقدار ما فجعت الصبية :

ـ آلله يا بنتي لم تجدي طريقاً غير طريقي .

كذلك هتفت فاطمة بعد أن سمعت آهات ألم تنطلق من حنجرة فتية ، وقد هدأ صوت السطل المنفجر . وسكت المحتجون من الذين أصابتهم رشاشات الماء فتراضوا أخيراً على: ان الماء أمان .

---

(١) احذر .

ـ أوقعتني أرضاً ومع ذلك تحتجين ..؟

أجابت الصبية التي لم تتبين فاطمة وجهها، ولكنها أحست بأنها تتحمل نصيباً من المسؤولية فتعاطف صوتها في اعتذار :

ـ الله يسامح .. لا تنزعجي .. حدث خير ..

ـ خير .. خير .. ولكن معلمتي ستضربني ، وهي تنتظر على أحر من الجمر سطل الماء .

أحست فاطمة بالألم يحز قلبها ، ولكنها لا تملك إلا أن تسترضي الصبية :

ـ دقي باب دار سيدي القرطبي ولن يبخلوا عليك بسطل ماء وعودي سريعة إلى معلمتك .. الله يرضى عنك .

تخلصت فاطمة من المشكلة بهذا الاعتذار المقنع . ولكن مشكلة أعقد من مشكلة ضياع سطل الماء انبعثت في نفس الصبية ، فستتلمس طريقهـــا مرة أخرى في الظلام والوحل وستسير حذرة أن تصطدم بصخرة أو جدار أو انسان ، حذرة أن تزل قدماها في الطين اللزج ، خائفة أن تتخطفها جنية أو جني من الذين يملأون جنبات الدروب والمنعرجات ويعيشون في الظلام الدامس . وانطلق عقلها الصغير يفكر :

ـ أعود إلى المنزل .. أعتذر بأن الجيران ليس عندهم ماء .. ولكن معلمتي في حاجة إلى المـــاء .. ستعيدني ..

سأجتاز نفس الطريق .. الظلام .. الجنية السوداء ذات الشعر الغزير ، عيونها البراقة في الظلام .. رأيتهـــا ، كانت تدب ببطء .. لم تتخطفني.. كنت أقرأ : باسم الله الرحمن الرحيم.. المنزل أقرب اليّ من مورد الماء .. ولكن المعلمة .. لا..لا.. أعود إلى المنزل..عقابها أرحم من العينين اللامعتين فيالظلام.. والماء ، لا بد من الماء ..

ظلت كلمة الماء ترن في أذنيها الصغيرتين وهي تتقدمخطوة إلى أمام وتعود خطوتين إلى وراء ، وكان لا بد أن تفكر طويلاً قبل أن تهتدي : اقتحام مخاوف الزقاقات أرحم من العودة إلى المنزل بدون ماء ، فستبعث بها سيدتها مرة اخرى – بعد عقاب قد يكون عنيفاً – لتجلب سطل الماء ولو كان في ذلك مصيرها .

سارت فاطمة في الظلام متلمسة طريقها بيد مرتعشة على جدار متآ كل وهي تتلو ما بقي في حافظتها من كلمات ترددها كل صلاة حتى انتهت إلى باب المنزل . رفعت « الخرصة » في لهفة المشتاق بعد عناء ، ولكنها تذكرت – وقد رفعتهـــا بحماس – أنها ما ينبغي أن تزعج الجيران بضربة قوية، فنقرت الباب نقرتين خفيفتين .

كانت الغرفة الضيقة تعيش فوضاها،عائشة وكنزة والجيلالي ينتظرون في نفاذ صبر ، ولكنهم يتشاغلون عن الانتظـــار

فيعاكس الجيلالي كنزة وتدافع عنها عائشة فيضربها الجيلالي ، وتبدأ فوضى الضرب بالمخدات والقباقب والرش بالماء ويعلو الصراخ إلى أن تنقذ الموقف الجارة للاخدوج مهددة انها ستقص كل ما حدث على أمهم .. وانضاف اليهم علي فكان يضربهم جميعاً ، ويواجههم بالتهديد وهو يصفع هذه ويركل تلك ويمسك الجيلالي من شعر قرنه حتى ترتفع عقيرته بالصياح والشكوى :

ـ سنخبر أمي ـ والله ـ أول ما تصل .

قالتها كنزة وهي تشرق بغصتها .

نظر إليها علي شزراً متوعداً فلم تأبه عائشة وأضافت :

ـ سنقول انك تقتلنا صفعاً وركلا ..

وانطلق الجيلالي متشجعاً بأختيه :

ـ سنشهد للاخدوج على ما أصابنا من يديك ..

كانت النقرتان الخفيفتان إنقاذاً لخد كنزة الناعم من لطمة كادت تهوي بها يمنى علي القوية ، واستفاقت كنزة من ذعرها القاتل وانتفضت بعد أن كانت متجمعة متوقفة مذعورة تنظر في اشفاق من خلال رموشها المتجمعة إلى الكف الجارفة وهي تتلمس طريقها إلى خدها الصغير . توقفت اليد القوية وانمحى الذعر من عيني كنزة وأشعّت ضحكة الفرح في وجه عائشة

والجيلالي . انطلقوا ثلاثتهم يهللون نحو الباب ، يتسابقون لاحتضان فاطمة . كادت الصبة تقع من يدهـــا وهي تنحني لتمنحهم قبلة الشوق .

ـ أولادي .. نور عيني .. حبيبتي .. غزالتي ..

وتقطع القبلات الحرى كلمات الشوق ، وتهتف فاطمة من أعماقها :

ـ كيف قضيتم يومكم .. البرد كان شديداً .. اعتنت بكم للاخدوج . وتقطع كنزة حديث أمها :

ـ ماذا حملتِ إلينا ..؟

وتضيف عائشة :

ـ نحن جوعى يا أمي .. هل حملت أكلاً كثيراً ؟

وتجيب الأم من خلال دمعتين ساخنتين :

ـ الخير كثير وستشبعون من أكل لذيذ .. حملت لكم .. حزروا ..

ـ اللحم باللفت ..؟ اللحم بالخرشوف ..؟ سكسو ..؟

وتضحك الأم من أعماقها وهي تصيح :

ـ لا .. لم تصيبوا جميعاً .. حملت لكم اللحم بـ... بخيزو .

ويهمس الجيلالي في اذن كنزة :

ـ قولي لها .. قولي لها ..

ـ ماذا ستقول لي ..؟ هل هناك جديد ؟

توقعت فاطمة معركة جديدة مع علي فتساءلت في توقع :

ـ أين أخوكم علي ؟ هل عاد من العمل ؟

وتسابقت الاختنان ، وهن في طريقهن إلى الغرفة ، وكان الجيلالي قد عاد مسرعاً ليبشر علياً بعودة أمه .

ـ عزيزي عاد في الصبــاح ، لم يشتغل اليوم ، خرج بعد الظهر .

ـ لو رأيتِ يا أمي ، ضربنا حتى الموت .

قالتها كنزة وهي تخفض من صوتها حذرة أن يسمعها علي.

ـ عرفت هذا .. لا تجتمعون في مكان إلا كان الشيطان خامسكم .

رفعت فاطمة الستارة المنسدلة وراء بوابتي الغرفة ودخلت الباب وهي تتمتم :

ـ باسم الله الرحمن الرحيم .

واستقبلها علي باشّاً وهو ينحني على يدها مقبلاً .

ـ الله يرضى عنك يا ولدي .

تفجّر فيه البشر وهو يرى أمه تستقبله راضية رغم ما لعلّها قد عرفت من خصومته مع اخوته ، وانطلق يسأل في لهجة متفتحة :

ـ ما وراءك .. من أكل .. حلوت .. مثنع ..؟

قالت الأم وهي تطلب إلى كنزة أن تقرب الشمعة :

ـ ليس ورائي غير صبة من أكل .. قليلة..ولكن لذيذة.

قال الجيلالي معقباً :

ـ ولكن خبزة واحدة لا تكفينا يا أمي ..

ـ تعشوا أنتم .. أما أنا فقد تغديت ..

ـ لا .. لا بد لنا من خبزة اخرى .. فقد يبقى بعضها للصباح .

قالها علي وهو يفكر في إفطاره كما يفكر في عشائه ، فأجابت الأم :

ـ الخبز هو عينك .. اذهب اذن واشتر لنا خبزة ..

فنظر إلى الجيلالي وهو يتمنى لو أرسل به إلى السوق ، ولكنه ما يزال أصغر من أن يرمي به في زقاق مظلم موحش مخيف . وفكر :

ـ الظلام مخيم .. البرد قارس .. الزقاق كأنه مفروش

بصابون .. البلغة الملعونة سيبقى مداسها في الوحل لو خرجت بها .. أسير حافياً ..؟ حافياً ، امتح الماء من البئر لاغسل قدمي بعد عودتي ..؟ لا .. لا ، خبزة تكفي ..

وهمّ أن يؤكد لأمه ان الخبزة الواحدة تكفي ، ولكنه قبل أن يجهر بالرأي طلب إلى أمه في لهجة تودد :

ـ هاتِ الخبزة لأرى ما إذا كانت كبيرة جيدة .

وأمسك بالخبزة وهو يقلبها في كفه فعل الخبير المثمن وأردف :

ـ من دقيق نقي.. دقيق قمح غير مخلوط (ملتفتاً إلى أمه) أين يطحنون قمحهم ..؟

أجابت الأم :

ـ ومن أين لي أن أعرف ..؟ في مطحنة من المطاحن الكثيرة .. وهل تعتقد أن ليس في الدنيا غير مطحنتك ؟

كاد علي يضحك متهكماً ، فقد أثار اسم المطحنة في ذاكرته كارثة المعلم في صباحه ذاك ، ولكنه فكر في ان بائع الخبز ربما أقفل دكانه ، فحوّل مجرى الحديث قائلاً :

ـ هاتِ .. هاتِ « حسنى » فربما أقفل دكان الخبز لو تأخرت .

وفكت فاطمة عقدة لثامها ثم أخذت تجهد أصابعها في فك عقدة صغيرة من طرف اللثام . وبأصابع مرتعشة أخذت تعد الصواليد والقروش والحسنيات وتتمتم بلسانها : خمسة قروش .. سبعة .. وتعود فتبدأ العد من جديد ، تجمع الصواليد على إحدى ركبتيها والقروش على الركبة الثانية والحسنيات على طرف حائكها بين الركبتين ..

كان علي يتتبع حركات يديها وينظر في تطلع وهو يعد بصوت مهموس حتى إذا أدرك كم احتوت العقدة قال بنفاد صبر :

ـ هاتِ حسنى وبعد ذلك أكملي العد ..

فنهرته الأم في ضيق وهي تجيب :

ـ أربكتني ـ الله يهديك ـ سأعيد الحساب من البداية .

وتدخل علي ليساعدها على العد بسرعة قائلاً :

ـ سيقفل دكان الخبز ونبقى جائعين .

كان الأطفال الثلاثة يتتبعون حركات أمهم في اعتزاز ، فقد عادت إليهم بعشاء شهي ومال كثيراً شق عليهم أن يعدوه كما يفعل علي ، ولكنه كان كثيراً ... كثيراً ، يعسر على العد.

وانتهز الثلاثة غياب علي فالتفت الجيلالي إلى كنزة يحرضها بحركات مستورة ، وفهمت عائشة فبادرت :

ـ أرأيت يا أمي كم ضربنا عزيزي ..؟

ـ اسألي للاخدوج .

ـ أمسك بي من شعر قرني حتى صرخت .

وتفهمت فاطمة الوضع كما تفهمته من قبل فبشّت في وجوه أطفالها قائلة :

ـ إذا أردتموني على ألا أعود إلى العمل هذه الليلة، فاتركوا حديث الخصومات .

وعـــاد علي يقلب على يمينه خبزة مدورة جافة يسمع لاصطدامها بكفه دويّ ، وفي يسراه ثلاثة صولديات أعادها إلى أمه . أمسكت فاطمة بالخبزة متفحصة ، ونظرت إليه في شبه عتاب وهي مبتسمة ، ففهم ، وقال راداً على عتابها :

ـ لا .. لا .. اليوم عجنوه بدون فرنجلان .

دققت النظر في صفحة الخبزة وهي تقول :

ـ وهذه الحفر .. ألم تلتقطه بلقاطك هذا (وهي تشير بسبابتها وابهامها) .

وضحك علي ، وضحك الثلاثة حتى غشيهم الضحك .

لم يكف علي عن الضحك وهم يتحلقون حول المائدة الصغيرة حتى التفتت أمه تسأله :

– وما يضحكك ..؟ أرأيت عند الخباز شيئاً عجيباً ..؟

– لا .. لا .. المعلم التدلاوي .. مسكين ..!

– ماذا حدث له ..؟

– . . . ؟

قالتها مفجوعة وهي تتطلع إلى شفتي علي الضاحكتين .

تشاغل عن تطلعها وأخذ يغمس قطعة من خبز في مرق اللحم بخيزو وهو يقص قصة المطحنة التي غمرتها مياه النهر العاتية .

-٤-

فتح المعلم التدلاوي باب المطحنة دون أن ينتظر عليًّا ، فقد كان صباحه ذلك صباحاً مبتسماً أطلت فيه الشمس من علياتها كما تطل مبكراً في أصباح فاس الصيفية القائظة ، فخرج من مسجد مولاي ادريس بعد أن أدى فريضة الصبح واستمع إلى الحزب وبعض ما تيسر من « دلائل الخيرات » ، ثم أسرع إلى المطحنة وهو يتمتم ببعض ما علق بأذنيه من صلوات ودعوات ، أسرع خفيف الخطى سريع الحركة يحثه نسيم منعش أيقظ فيه نشاطه القديم وقدرته على العمل .

لم يتلفت بباب المطحنة باحثاً عن علي ، فقد كان رضي النفس منشرح الصدر وهو يعلم انه يستقبل يوماً مباركاً وأياماً مزدهرة بالعمل والنشاط والكسب . كانت سنة من هذه السنوات النادرة المثمرة التي تمتلىء فيها الأرض بالمحاصيل الفلاحية فيقبل سكان فاس على ادخار القمح ، ويقبل سكان أطراف العاصمة وضواحيها على ادخار الشعير ، وتشتغل المطاحن بالعمل فلا تكفيها ساعات اليوم الطويل المضيء لتنجز ما تطلبه المنازل والأسواق والأفرنة . كان سكان فاس يتضاعفون بالنهار وهي تستقبل أفواجاً من سكان الأرياف يقدمون متاجرين يبيعون في الصباح محصولهم الفلاحي وأصوافهم وزبدهم وغنمهم وأبقارهم، ويتيهون مساء في الأسواق يتزودون بالملابس وطيبات الحياة لزوجاتهم وأولادهم، وبالسكر والشاي والحناء والأدوات المنزلية لبيوتهم، ويختلفون بين فترة وأخرى لأسواق الأكل فيحشون الخبزة والخزتين شواء من «الكوايحي[1]» ويحسون لذة الحياة وهم يستهلكون بعد أن يظلوا سنة كاملة وهم يعملون على أن ينتجوا .

وكان الصيف مناسبة طيبة فتحت شهية الناس – كما تنفتح كل صيف عندما يكون مثمراً – على أن يتزوجوا وأن يحتفلوا بزواجهم فيطعمون المئات ويكرمون الآلاف، وفتحت

---

(١) بائع الشواء .

شهية المتزوجين على أن يضاعفوا أهل بيتهم ، فالله تعالى يحب أن تشكر نعمه وأن ينفق عبده مما أفاء عليه من خيره، وأي خير يمكن أن ينفق فيه العبد أحسن من إكمال نصف دينه ، ومضاعفة الازواج عفة للنفس ، والأولاد تكثيراً لدين محمد ؟ ولذلك كان الفلاح يعود من المدينة وقد خلبت لبه الألوان والمبتكرات فيصمم على أن يحقق حلماً ظل يراوده شهوراً أو سنوات .

– يامنه الصغيرة .. ما لها ؟ جميلة ، قادرة ، جذعة .. فاتنة بهذه الفرجية الحمراء والمنديل الأزرق .. عليّ اليمين إلا طلبتها من والدها ليلتي هذه ..

ويعود عمي الحاج من دكانه بعد صلاة العشاء وقد امتلأ وفاضه وهو يفكر :

– يتحدثون على جمال بنت عمي الطيب ، ومن أولى بها مني ..؟ لن يرد لي طلباً .. فكرة رائعة يقتحم منزله وفكره مصمم على تنفيذها ..

كل فكرة من هذه الأفكار التي تغشى المدينة في أيام الصيف ولياليه ، وكل حركة من هذه الحركات التي تعج بها المدينة كانت تدر على المعلم التدلاوي الخير والبركة ، ولذلك لم يكن يقدم على المطحنة وهو مغتم النفس تلف الأعصاب ، وإنما كان يقدم عليها نشيط الحركة خفيف الثياب متفتح القلب لا يفكر

في المتعلم علي بقدر ما يفكر في العمل ، ولا يضيق بتأخره كما كان يضيق في أيام الشتاء .

– يا فتاح يا عليم .. اللهم بارك لنـــا في يومنا ورزقنا ، واصرف شياطين الإنس والجن عنّا ..

بهذه الكلمات كان المعلم التدلاوي يستعين على معالجة مزلاج البـــاب الخشبي وهو يوغل يده اليمنى في الثقب المربع الذي يتوسط الباب المهترئة المتآكلة ، لم يتأبَّ عليـــه المزلاج ولم يعاكسه كما يفعل عادة في الأصباح الباردة المظلمـــة الممطرة عندمـــا يرين الصدأ على فتحات الانثى ومسامير الذكر لهذا القفل الخشبي العجيب ، وإنما تحرك المفتاح في ثقبات القفل بسهولة ويسر ،وكأنه هو الأخر يستجيب لأيام اليسر والرخاء. وتتفتق شفاه عمي التدلاوي عن ابتسامة مشرقة لا ينقص من إشراقها انها تنبع من بين أسنان مهترئة خربة أتلفها دخان « الكيف » ، ولا يغض من بشرها انها تكشف عن نتوء في قمة عظمي الفك الأعلى وعن خواء في صفحتي الخدين المجفاوين.

ودخل عليٌّ المطحنة وهو ينتظر أن يثور في وجهه المعلم التدلاوي ، ولكنه أخذ يداري انتظاره بتملقه الطريف دون أن يحسب أي حساب لفشل هذا التملق .

– صباح الخير آسيدي المعلم ..

قالها بصوت جهوري منتعش ، ليس فيه أثر لنفايات نوم أو تكاسل . وأضاف :

– أمي تقرئك التحية وتسأل عن صحتك ..

ثم هوى كما يهوي دائماً على يد المعلم يقبلها ، فلم تثقل عليه ولم تنتصب لتسدد صفعة قوية إلى خده كما اعتاد عندما يتأخر في الصباح ، وإنما استجابت في استسلام إلى الفم الصغير يطبع عليها قبلة استمدت حرارتهـا من مظهر الرضى ، وشجعه هذا الرضى المبذول فقلب اليد ليطبع قبلة أخرى أكثر حرارة من الأولى على باطن الكف ، فلم يجدها صلبة جافة ، ولكنهـا استرحمت في حنان لتحتضن قبلة الطاعة ..

– الله يصلحك آولدي .. الله يفتح بصيرتك للخير ..

كذلك همس المعلم التدلاوي في أذن علي . فكانت همسة حرّى فتحت عينيه على يوم سعيد . ونفحت دمه بحرارة لم يكن ليبثها فيه فطور دسم لو قدر له أن يتناول فطوراً قبل أن يبتدىء عمله اليومي .

– آلمعلم ، هل نبدأ بقمح الحـاج عبد الله أم بقمح السي الحسن صاحب دكان الطحين ؟

واندفع نحو أقرب كيس اليه يعانقه في إجهـاد دون أن ينتظر جواباً من المعلم ، فهو يعرف من توصيته في مساء اليوم

السابق أن قمح السي الحسن أولى بالأسبقية لأن دكانه يواجه مزيداً من الطلب ولأنه زبون دائم مستمر .

وانصرف المعلم إلى الرحى يعالج حبالها ودواليبها ، وهو ينادي علياً بلهجة هادئة :

– يا ولدي .. المكنسة أولاً .. «اشحال عنده في السعاية ولا يعرف أن يقول : متاع الله[1] » ..

– كنت على وشك ، وإنما أحببت أن أعرف : من أين نبدأ ..

– الله يصلح رأيك .. يا الله .. قل باسم الله .

واندفع علي في حماس يبحث عن المكنسة في زاوية منزوية من المطحنة، ولكنه عاد على أعقابه يكاد ينفجر من الضحك دون أن يبين . تسمرت عينا المعلم في الوجه الصغير المحتقن ، وهو يفكر .

واصطنع بعض الصرامة وهو يحاول أن يوقف جرأته عند حدها :

– ستبدأ يومك بالضحك .. يالله .. ليس لنا وقت نضيعه ..

---

(١) مثل يضرب لمن قضى مدة طويلة في عمل ثم هو لا يتقنه .

حاول علي أن يكفكف من انفعاله الضاحك وهو يقول :

– آلمعلم حصل .. حصل ابن الكافر ..

وانفتحت عينا المعلم في فضول :

– قلت لك انها رائعة..نوع جديد لم يستعمل من قبل ..

وانتهز علي بادرة البشرى على وجه المعلم فاستأنف ضحكه في ارتجاج :

– لو رأيته .. شبعان كأنما كان يرعى من سنوات ..

وتضايق المعلم رغم فرحه بأنه حصل، وبأنها كانت الجابية رائعة فانتهر علياً :

– يالله .. أبعد البلاء عنا ، وعد لعملك .

– انه ضخم يا سيدي المعلم .

– قلت لك أبعد البلاء عنا وعد لعملك .

– وأين أضع المصيدة .

– أنصبها مرة أخرى في نفس المكان ولا تنس أن تزيّنها ..

واستأنف كأنما قد نسي شيئاً مهماً :

– حاذر يدك وعد سريعاً إلى المكنسة .

انصرف المعلم إلى عمله يراجع الحبال والدواليب ويقيس نسبة ارتفاع الماء ، ويغمس ذراعه حتى المرفق في فتحة الماء ليجلو عنه نفايات النهر من طمى وأعشاب وسقط المتاع والقاذورات .

مر به علي وهو يحاول أن يكشف له ضخامة ما يحمل مشنوقاً من عنقه ، ولكنه أغض الطرف محاولاً أن ينصرف بكليته إلى عمله المضني ، وإن لم يخف في نفسه الفرحة للتخلص من أعداء المطحنة . وحاول علي أن ينادي المعلم ليريه ما حملت يداه ، ولكنه تراجع وهو يرى صاحب المطحنة يغمس ذراعه في الماء العكر وانصرف إلى النهر القريب ليلقي بما حملت المصيدة وهو يفكر :

ـ نخرجه من الباب ويعود من النافذة .. قد يحمله التيار إلى يد المعلم لو ظل بضعة دقائق غامساً ذراعه في نافذة النهر .

واستهوته الفكرة فضحك ملء فيه ، وهو يتصور المعلم ممسكاً بذيل فأر ضخم يحسبه عشباً أو سقطاً من نفايات النهر .. ضحك ثم ضحك وهو يسير إلى أقرب منحدر نهري إلى المطحنة ، وفك عنق الفأر من مكبس المصيدة وألقاه في النهر وهو يقول مودعاً :

ـ إلى اللقاء في النافذة يا صديق المطحنة العزيز .

عاد إلى المطحنة خفيف الحركة نشواناً بالمهمة التي قام بها فقد كانت مهمة مسلية أنقذته بعض الوقت من معانقة الكيس الكبير وحمله على ظهره نحو القُمْع الضخم المغلق بأربعة حبال المطل على عين الرحى ، وأنقذته من جر المكنسة على بقايا دقيق وغبار التراب يتطاير في وجهه ليكسو خديه وعينيه وأشفاره وحاجبيه وأذنيه جميعاً ، وليعطيه صورة مهرج صغير في « سيرك » كبير .

ولكن المهمة أراحته إلى حين ، فقد دخل المطحنة ليجد المعلم نافد الصبر يهتف به :

– قضيت يومك كله مع المصيدة .

واستلذ علي الفرصة التي أتاحها له المعلم ليعود إلى الحديث عن المهمة التي قام بها فأجاب :

– ولكنه – آلمعلم – كبير .. لو رأيته .

فاستشاط المعلم غضباً وقاطعه :

– يكفي .. قلت لك يكفي .. أليس لك عمل آخر غير المصيدة والفار .. أمسك بالمكنسة وإلا قصمت ظهرك .

أدرك علي أن الأمر أصبح جداً ، وانه ما ينبغي أن يخرج المعلم عن حدّه ، فأجاب عملياً بقفزة خفيفة تناول فيها المكنسة . لحظة واحدة وقد عجت المطحنة بغبار بقايا الدقيق

والتراب المتطاير . عمل سريع وخفيف أعاد المعلم إلى رضاه فنظر إلى علي – وهو يمسح بقايا المـــاء والعفن عن ذراعه – نظرة إعجاب وعبّر عن رضاه الصامت بابتسامة مؤثرة .

دارت الرحى سريعة خفيفة كأنمـــا تشعر هي الاخرى بيقظة الصبــاح . كان التيار قوياً ، وقد أفاقت موارد النهر تمده بالماء والبقايا والنفايات والأزبال من كل صوب ومنحدر ، تغتسل فاس كلها لتبعث ببقايا غسيلهـــا إلى الوادي الهادر ، ولتعطي الفرصة للمطاحن تستمد حركتها من طاقته وتياره الجارف . وبدأ « القمع » يرسل الحب الذهبي إلى عين الرحى في بطء ودأب ، وبدأت الرحى تنثره في دائرة قطرية دقيقاً أبيض صافياً كأنما نزل من السماء .

وافتر ثغر المعلم عن ابتسامة الرضى وهو ينقل عينيه بين عين القمع ونثار الدقيق ، وتمتد يده من حـــين لآخر لتغرف كمشة من الدقيق تكبسهـــا الأصابع في الكف المنغلقة فتنفرج عنها لتتفحصها العين الخبيرة بعد اليد الصناع ، ثم تنثرهـــا وسط نثار الرحى في اطمئنان ورضى ، وتمتد يد علي اليمنى ليقيس بسبابته وإبهامه مبلغ خشونة الدقيق – واليد اليسرى تحمل الغربال الكبير على استعداد لعملية التصفيـــة – يقيس الدقيق وهو يمرر نثراته بين سبابته وابهامه، ويرمي بها متعالماً كما لو أدرك سر الصنعة ثم يهمس لمعلمه :

– أظن انه خشن بعض الشيء !..

وينظر إليـــه المعلم في شيء من ازدراء معلوماته وهو يجيب :

– كم أنت في حاجة إلى مزيد من التعلم .. ألم تدرك اننا سنخرج منه سميداً ودقيقاً ونخالاً .

وهز علي رأسه كما لو أدرك ، وذهب توّاً ليغـــير غرباله بغربال آخر .

- ٥ -

ظلت المطحنـــة تردد أصداء الرحى في رتابة وإصرار ، لا يقطع الصوت الرتيب إلا خبطة خشبة معلقة في « القمع » أو قشة أو نفاية تصد من تيار المـــاء لِلَحْظَةٍ أو رمشة . وكانت المطحنة كعهدها ساعة العمل مغلفة بهالة من غبـــار الدقيق المتناثر في الفضـاء الراكد ، يزيد المطحنة إظلاماً لولا إشعاعات شمسية تتلصص في الصيف من شبـــاك صغير مغلق بجوار السقف لتزور المطحنـــة لحظاتٍ قصاراً ، أو لتخطو

خطوة على عتبة الباب لا تعدوها كأنها تخشى أن يخنقها غبار الدقيق المتناثر .

وكانت أصداء الهدير بعيدة الغور كأنما الرحى تدور في بئر عميق ، ولذلك كان حديث المعلم التدلاوي وعلي ينداح في الهدير المتناثر ، تضيع كلماته فلا يبقى منه إلا أصداء لكلام يقال ، ومع ذلك كانا يتفاهمان ، فقد ألفت أذناهما أن تميزا الكلمات وسط الضوضاء والهدير ، وأن تستغنيا عن الاستعانة بحركات الشفاه لأن كلاً منهما كان يقوم بعمله المتواصل ، إذا أتاح لهما أن يتحدّثا فقد لا يتيح لأحدهما أن ينظر إلى الآخر ليتميز كلماته من شفتيه .

أمسك المعلم التدلاوي بالمنخل الحريري الرقيق ، وأمسك علي بغربال السلك الخشن . كانت مهمة علي أن يغربل الدقيق من النخالة الخشنة ليترك للمعلم التمييز بين السميد والدقيق الخالص الرطب والدقيق الخشن ، وكان التدلاوي وهو يمسك بمنخله يقتعد كرسياً خشبياً متداعياً يقوم على قائمتين قصيرتين تقتربان من الأرض يباعد ما بين فخذيه على قدر ما يدور المنخل العريض بينهما ، ويرفع محصوره إلى ما فوق ركبتيه حتى لا ينتثر على أطرافه دقيق . قدماه حافيتان ورأسه الحليقة محشوة في طاقية صغيرة متلبسة بفروة الرأس كأنما نسجت هناك . كانت يداه سريعتين وهما تتقاذفان طرفي

المنخل الخفيف الحركة يترامى ويدور بينهما كما لو كان كرة مطاط تتقاذفها أيدي صناع، أو خذروف انفلت من يد دربة.

كان المنخل يؤدي مهمته في حذق ووعي ، فهو من شخصيات المطحنة المتحركة في طاعة وصبر ، يعمل بين يدي المعلم دون أن يحرن كما يحرن الحمار وهو يسير بين يدي علي . وكان المعلم يعنى به بعد اداء وظيفته فينفض كل ما يعلق به من غبار الدقيق وينظف جَنَبَاتِه ويحرص على أن يعلقه في سقف المطحنة حتى لا تقرضه أسنان فأر أو تثقبه قَرَضَةٌ من خشاش الأرض .

وكان علي يحاول أو يبدو معلماً صغيراً : يجلس جلسته وعلى رأسه طاقيته الملتصقة بأم رأسه ، وفخذاه عاريتان متباعدتان ، ويمسك بغرباله كما يمسك المعلم ، ولكنه يجده أثقل وزناً وأكثر استعصاء على الحركة ، فلا يدور في يده كما يدور المنخل الحريري في يد المعلم التدلاوي ، ويحسُّ وهو يتلعثم في حركته بأن عيني المعلم تراقبانه من بين أهدابهما ، فتضطرب يداه ، ولكنه يتماسك حتى لا يقع الغربال منهما .

– العمى في بصيرتك .. ستبقى طول حياتك رحوياً ولا تحسن الإمساك بغربال ..

قالها المعلم التدلاوي في غضب ، والشرر يتطاير من عينيه ، فانتفض علي كما لو أُخِذَ على غرة . وانهار الغربال من بين

يديه ، فاختلط ما نخل بالدقيق غير المنخول . وازداد غضب المعلم فارتفعت يده اليمنى لتطبع صفعة قوية على خد علي الأيسر .

– قم .. قم يا نذل .. حسبتك إنساناً قابــلاً للتعلم ، ولكنك حمار ..

وتداعى إلى فكره حمار الرحى فأضاف :

– قم .. إذهب إليه فهو ينتظرك . لعله في حاجة إليك ، لم يأكل بعد ولم يشرب . لا تستحق إلا أن تكون رفيقه .. الصنعة بعيدة عنك ..

وقام عليٌ وهو يتعثر فيما نخل من دقيق . اضطربت رجلاه فاصطدمتا بالكرسي الخشبي حتى كاد يقع على وجهه فتماسك . ولكنه لم يستطع أن يمنع نثار الدقيق من أن يتطاير في وجه المعلم ، فبرقت عينـــاه بالشرر كما لو مُسَّ في كرامته . قام يحاول أن يلحق بعلي فلم تدركه يداه ، وكان منخل السلك قريباً منه فأرسله كقذيفة نحو رأس علي .

لم يكن علي غاضباً ، ولم يحس بألم من الغربال وهو يهوي على رأسه ، ولكنه كان مسروراً من أعماقه وقد استطاع مرة أخرى أن يثير المعلم ليلعب معه لعبة السباق والقذف بالغربال ، وكاد ينفجر ضحكاً وهو يلحظ المعـــلم التدلاوي كالأهوج يفقد أعصابه . وقف بباب المطحنة بعد أن عـــاد المعلم إلى

كرسيه ينتظر الأوامر الجديدة ، فقـــد ألِفَ من التدلاوي أن يتراجع بعد الغضب . وتلفت عينه على صوت بنت صغيرة تحمل قفة شعير :

– آلمعلم .. آلمعلم .. اطحن لنـــا هذه القفة الله يرحم والديك .

وجدها علي فرصة ليقترب من جديد من المعلم التدلاوي ، فحمل القفة وهو يعرف أنه يزيد في إثارة معلمه ، وتقدم نحوه وهو يقلب شعيرها فعل المثمن :

– هذه البنية بعثت بها أمهـــا بقفة شعير .. كم تطالب مقابل طحنها ؟

– . . .

– آلمعلم .. آلمعلم .. قفة شعير .

قالها وهو ما يزال يقلب شعيرهـــا ليستلفت نظر المعلم . ولكنه تعمد أن ينصرف عنه محاولاً أن يغرق غضبه في حركة غربال يدور بيديه في انفعال كخذروج أهوج ، وكانت أذناه منصرفتين إلى هدير الرحى يتتبع رتابته في وعي ليقدر عملها، ليعرف من الصوت الرتيب : أتطحن قمحاً أم تطحن نفسها ؟ أمَا يزال التيار قوياً أم حجزته الشوائب والنفايات ، فهو في حاجة إلى رعاية وتنقية .

– آلمعلم .. آلمعلم . ماذا ؟ أتقبل القفة أم ترفضها ؟

وانقطع حبل الفكر والسمع واليد لترتفع عينان أجحظهما الغضب في وجه علي . ولم يطق المعلم نطقاً ، ولكنه اكتفى بالنظرة الثائرة في وجــــه صلب متجمد متبالد في وقاحة . وظل علي ينتظر أن يخرج المعلم عن صمته ، حتى انتهى إليه الصوت الثائر رخواً متداعياً بعد أن صرعه الغضب :

– آولدي .. يهديك الله .. أبعد عني .. أبعد عني .. لا رأتك عيناي .

وعاد علي بالقفة إلى البنت وهو يقول لها :

– اذهبي إلى أمك واخبريهـــا بأن مطحنة التدلاوي في شغل بقمح الأغنيـــاء ، لتبحث عن مطحنة فقيرة تَـهْرِسُ شعير الفقراء ..

نظرت إليه البنت الصغيرة دون أن تفهم ، وحملت قفتها الثقيلة في عسر مولية الأدبار .

واختل صوت الرحى فانتفض المعلم فجأة واقفــــاً وهو ينادي كأنما لم يكن غاضباً من قبل :

– آعلي .. آعلي .. القمح فرغ .. قرّب كيس القمح .. أسرع .. أسرع ..

واندفع علي – وقد أوقف المعلم دولاب الرحى فهدأت المطحنـــة – إلى كيس القمح فعانقه ، يدفعه بصدره ويجره

بذراعه حتى انتهى به إلى الرحى ، وتعاونا معاً ليملأ القمح .
ويبدأ هدير الرحى من جديد ، ويجلس المعلم إلى منخله ودقيقه
يخلصه من شوائب النخالة ويفرز خَشنَه ليخرج من القمح
طعاماً مختلفة ألوانه .

أدرك علي أن الوقت قد حان لينصرف إلى الحمار فإنه
في انتظاره .

خرج من المطحنة وهو يشعر براحة نفس ، فقد أثار المعلم
التدلاوي حتى النهاية . وفكر وهو يبتسم :

– كان راضياً ثم غضب .. أيامه دائماً متقلبة .. لست
أدري أيبيت مع الملائكة أم مع الشياطين ؟.. معلم .. يشغل
نفسه بالمنخل الخفيف ليترك لي الغربال الثقيل ثم يُحَدّجُني
بنظرات من نار ويطلب إليّ ألا تضطرب يداي .. الصنعة ،
أتقنها في ثلاثين سنة ويريدني أن أتقنها في سنة ..!

وقطع حبل تفكيره صوت يردد :

– آعلي .. آعلي .

تلفت علي ليجد « قَدّوراً » على حماره يسير في تؤدة
رجلاه تكادان تنجران على الأرض . يحمل على كفه إناءً
مغطى بخبزة مدورة ، أغبر الوجه كأنما بات في المطحنة ،
ومع ذلك فوجهه مسالم لا يومىء بأن صفعة قوية قد أزعجته .

– أهلاً عمي قدور .. كيف أصبحت . ؟

– نحن نصبح كما يصبح معلمونا .

– ومعلمونا يصبحون كما تصبح زوجاتهم ..

وأطلقها قدور ضحكة مدوية وهو يضيف :

– يظهر أن زوجـــة المعلم التدلاوي أصبحت اليوم عصبية ..!

– ومن أخبرك آلعفريت ..؟

ضحك قدور وهو يجيب ، مشيراً إلى خد علي :

– الأصابع الحمراء الممتدة على خدك الأهيف ..

وضحك علي دون أن يحاول التستر :

– ولكني أريته النجوم في الظهر ..!

– وهو أراك القمر في الضحى ..

وتهرب علي من الموضوع فقال :

– كيف العمل عندكم اليوم ؟

– هذا الصيف الملعون لا يتركنا في راحة .

– ونحن أيضاً رَحانا لا تهدأ .

– ومع ذلك أعصاب المعلمين تركبها العفاريت ..

– حينما نصبح معلمين لن نكون مثلهم .

– ذلك غير صحيح .. حينما يصبح المتعلم معلماً يدرك سر الصنعة ومعها العنف والثورة والصفع على الخدود ..!

فأضاف علي :

– .. والضرب بالغرابيل والمناخل ..

ضحك قدور وهو يهمز حماره :

ـ آر .. را .. آرا .. الله يلعن مولاك [1] ... (وهو يودع علياً) الله يهنيك يا أخي اتركني أحمل له فطوره .

– حتى لا يفطر بك ..!

قالها علي ضاحكاً وهو يودع قدوراً .

عاد إلى تفكيره وهو يسير نحو فندق الحمير ليستقدم الصديق الرفيق :

– متى سيعفيني الله من هذه المهنة ، أشتغل حِمَاراً في المطحنة ومع الحمار في الشارع، ومع ذلك فالمعلم هو المعلم .. الثورة والضرب والاحتقار ..

– لأنه معلم وأنا متعلم ..

– صحيح ولكني أستطيع أن أكون متعلماً دون ثورة وضرب وشتم .. متعلم .. متعلم .. وماذا أتعلم ؟ أحمل

---

(١) المولى هنا بمعنى مالك الشيء أو صاحبه .

كيس القمح إلى عين الرحى وكيس الدقيق إلى المنـــازل والدكاكين .. عَمَلُنا حمل الأكياس وغربلة الدقيق، ومع ذلك فهي صنعة تتعلم . الذين تعلموا جميعهم كانوا يحملون الأكياس ويغربلون الدقيق .. المعلم ابن علال الجزار .. المعلم باعلو الخراز .. المعلم الخمسي النساج .. كلهم معلمون ، ولكنهم ..

توقف عند « ولكنهم » وتوقفت قدماه عن السير ، كأنما كان يفكر برجليه ، أو كأنما كانت هناك صلة بين تفكيره ومسيرة قدميه . ولم يلبث أن واصل تفكيره وسيره :

– لعلهم لم يصلوا إلى أن يكونوا معلمين إلا بالثورة والعنف والضرب بالسكين و « القرميل » و « المكوك » ..

واقترب من « الفندق » فتوقف كأنما كان في حديث مع شخص يريد أن ينهيه قبل أن يدخل في حديثه مع الحمــار . واستمر يفكر :

– لا .. أنا لا أريد أن أكون معلماً .. أريد أن أكون واحداً من هؤلاء الذين يكسبون عيشهم في سهولة ويسر دون أن يكونوا معلمين .. الحاج محمـــد الذي ينتظر أن أحمل له دقيقه اليوم .. عمي التازي الذي حملت قمحه أمس ، جارنا مولاي التقي ، كلهم يعيشون في نعمة واطمئنان دون أن يكونوا معلمين ..

وتوقف تفكيره كأنما عز عليه أن يفهم .. ثم استمر :

– لمـــاذا أنا وقدور والساحلي نعيش مع الحمير .. وفي المطحنة مع الثائرين الغاضبين .. ونعود إلى المنزل آخر النهار ننتظر من أمهاتنا لقمة الخبز وضوء الشمعة ودفء الغرفة ..؟

وظلت صور قدور والساحلي والحمير الثلاثـــة تتراقص أمـــام ناظريه فلا تحجب صورة أمه وهي تعد « الصواليد » ليشتري بها خبزة تقيهم أودَ عشائه وعشاء إخوته .. ظلت الصور تتراقص أمام ناظريه وهو يدخل الفندق ليبحث فيه عن صديقه ورفيق متاعبه .

- ٦ -

ـ أهلاً وسهلاً .. تعال آ الحبيب .

هكذا افتتح علي حديثه مع حمار المطحنة وهو يعانقه ، واستمر :

ـ اشتقنا إليك ، لا أبعدك الله .

ولحظ في عيني الحمار الفرحة فطبع قبلة على جبينه وهو يربت على خده ويقول :

ـ استرحت جيداً .. تمشيت .. نمت في هدوء . هل أزعجك هؤلاء الشياطين ؟

اسبل الحمار أذنيه وعينيه جميعاً ، وعنقه بين ذراعي علي وكأنه منسجم مع هذا الحديث الرضي الذي قلما يظفر به من سيده ، وكان ولا شك ، يفكر :

ـ يوم سعيد هذا الذي يستقبلني فيه برضى القول .. ترى هل بات مع الملائكة .. اليوم لا لجام ولا شكيمة ولا عصا ولا شتائم ولا أكياس الدقيق والقمح .

وتوقف عند التفكير في أكياس الدقيق والقمح ، فقد بدا انه تجاوز حد الطمح ، وأن مهمته تكاد تنتهي لو لم يحمل أكياساً من القمح والدقيق .

وانتبه على ذراعي علي تنحلان عن عنقه وهو يقهقه ، فقد فطن علي إلى أن صاحب الفندق كان يتتبع حديثه مع الحمار فيضحك ملء فيه . أجابه مقهقهاً :

ـ ولم لا ..؟ إنه صديق العمر المخلص ، يساعدني فيحمل عني الأكياس دون أن ينبس، ولولاه لكنت أنا الذي أحملها.. لا يضجر ولا يضيق ولا يشكو .. لا يلطم الخدود .. ولا يشتم ..

وقهقه صاحب الفندق من بين أسنانه المتداعية ـ وهو يضع كفه على شفتيه كما لو كان يريد أن يستر فمه الأثرم ـ دون أن يتكلم وهو يتتبع الحديث باهتمام ، وأضاف علي :

– لمـــاذا تضحك ..؟ انه أحسن من بني آدم .. طيب المعشر .. هادىء الطبع .. تراه أساء إليك وهـــو ينزل في ضيافتك منذ زمن طويل ..؟

فضحك صاحب الفندق وأجاب :

– أساء إلى جاراته وزميلاته ..!
– لعله أحسن إليهن من حيث تظن انه أساء ..!

قالها وهو يضحك ملء فيه ، فقال صاحب الفندق :

– ولكنك اليوم رضي الطبع على غير عادتك ، لم يألف منك صاحبك هذا (وهو يشير إلى الحمار) نعومة مثل ما وجد منك اليوم .

فأجاب علي :
– غيرت رأيي .. كنت أظن أن الحمير حمير ..

فقاطعه صاحب الفندق :

– فوجدتهم بني آدم ..
– هم أحسن وأسلم من كثير من بني آدم ..

وفهم صاحب الفندق وهو يتطلع إلى خد علي ، فقـال متهكماً :
– خدك اليوم مورد .. لعلك أفطرت فطوراً دسماً ..؟

وحاول علي أن يتجاهل تهكمه فأجاب :

– والله آ سيدي ما ذقناه .. ولكن ..

توقف عند « لكن » فابتدره صاحب الفندق :

– لا تغضب فالصنعة لا تلتقط إلا بالعصا ..

كادت أعصاب علي تفلت منه وهو يجيب :

– الصنعة..؟ أية صنعة..؟ هم يعلموننا «الدمياطي[1]»..؟ احمل القمح .. اكنس المطحنة .. غربل الدقيق .. احمل الغذاء .. أورد الحمار .. ذلك كل مبلغهم من العلم .. ثم هم يسترون جهلهم بالعنف واللطم والتجويع والبخل .

– ومع ذلك عليك بالصبر ..

– أمي – الله يذكرها بخير – أنت مثل أمي .. الصبر.. عليك بالصبر .. كأن الصبر غذاء يملأ البطن أو كساء يستر البدن .. آسيدي صبرنا وصبرنا .. ولكن المعلم ..؟ المعلم .. يا من لا يعرفه ..؟

– الله يهديه ويهديك يا ولدي .. ومع ذلك أحسن من صنعتنا .. وأنظف ..

– أنظف ؟.. ألا ترى وجهي كم هو نظيف ..؟! آعمّي

---

(١) كتاب تقول الأساطير الشعبية انه أصعب كتاب ويتضمن جميع العلوم ، وربما انتهى بقارئه الى الجنون من كثرة ما يحذق من علوم الدنيا والدين .

« اللمطي » لا تعط عقلك لغيرك .. النظافة لا تشبع بطناً .. ولا تكسي ظهراً ..!

ـ لا تفكر يا بني .. أنت صغير السن ويجب أن تتحمل وأنت صغير لتستريح وأنت كبير ..

ـ تذكرني دائماً بأمي .. أتحمل .. أتحمل اللطم والشتم والجوع والعمل الشاق ومع ذلك يجب أن أستمر في التحمل ..

ـ ونحن أيضاً نتحمل .. ألا تزكم أنفك هذه الرائحة « الطيبة » ..؟!

فضحك علي بملء فيه وكأنه لم يكن غاضباً ، واستمر عمي اللمطي :

ـ وهذه القذارة ..

فتلفت علي يمنة ويسرة يتتبع أصبع اللمطي وهي تشير وكأنه يدخل الفندق لأول مرة ، واستمر اللمطي :

ـ وصهيل الخيل .. ونهيق الحمير .. في قلب الليل عندما يكون جنبي قد استراح إلى « وثير » الفراش ..!

ـ كل ذلك أرحم من كف المعلم وهي تهوي على الخد كما لو كانت يد شيطان ..

تجاوز اللمطي مقاطعة علي فاستمر :

ـ وحينما تبحث عن النتيجة يناقشك أصحاب الحمير

الحساب فلا يدفعون . وينتهز البَدْوُ فرصة غياب أو غفلة فيسوقون بغالهم.. اتبَعْتهُم بعد ذلك وقاضيهم على العوض .. يا ولدي خليها لله ..

وبدا علي وكأنه متأثر لحديث عمي اللمطي وفكر :

ـ هو الآخر له معلم .. يلطمه .. يجوعه .. يذله .. يدفع به إلى العمل الشاق رغم سنه .. لا يحترم شيبه .. عليه الآن أن يكنس هـذا الفندق .. كنس المطحنة أرحم .. معلمه أقسى وأعنف : الزمان .

وبصق على الأرض وهو يقول متجهاً لعمي اللمطي :

ـ تفو .. آوُدّي[1] الله يلعن الزمان ..

وتلفت نحو الحمار يربتُ من جديد على خده ويخاطبه :

ـ ما رأيك ألا يستحق اللعنة ..؟

ورفع الحمار رأسه ينش عن أذنيه الذباب المتكاثر فضحك علي بصوت مرتفع وقال :

ـ أي نعم .. تعجبني .. رأيك من رأيي .. الله يلعنه : الزمان .. ظلموك يوم سموك حماراً ..!

والتفت إلى عمي اللمطي وهو يردف :

---

(١) الود : بمعنى الودود أو الحبيب ، نداء تحبب .

ـ هو أيضاً يقول : الله يلعن الزمـــان .. ألم تلحظه وهو يهز رأسه موافقاً ..؟

فضحك عمي اللمطي وقال :

ـ أنت تفهم عشيرك أكثر مني .. ولكن لِمَ يلعن زمانه وأنت معه صديق ..؟

ـ أنا .. أنا كالآخرين صديق يوماً وعدو أياماً .. هو يلقى مني أحياناً ما ألقى أنا من المعلم ..

فأضاف اللمطي :

ـ والمعلم يلقى هو الآخر ما تلقـاه منه أنت .. أليس كذلك ..؟

ـ بلى .. انه يلقى منها .. لعله يلقى من زوجته فيما تقول الأخبار ..

ـ ولكنا جميعـــاً نلقى ما لا يروقنا .. فما لك وللثورة وللغضب ..؟

كان علي يرفع رجله يحاول أن يعلو ظهر الحمار حينما ألقى إليه اللمطي بالسؤال . فعـاد إلى وقفته واضعاً يده على عنق الحمار ، وفكر مليّاً وعينـــاه مشرعتان في وجه اللمطي تتفحصان لحيته التي يغلب بياض شعرها على سوادِه ، وتجاعيد وجهه التي تشبه تِينةً انكمشت قشرتها ، وملابسه الممزقة التي أصبحت كمرقعة الدراويش ، وبلغته التي أطلت منها بنانـُه . فكر ملياً ثم قال مخاطباً اللمطي :

ـ مالي وللثورة والغضب .. أنت تلقى ما لا يروقك ؟

ولم ينتظر جواباً وإنما استأنف :

ـ قل لي يا عمي اللمطي : أأنت سعيد ..؟

ودُهِش عمي اللمطي ، فلم ينتظر أن يسأله عليٌّ هذا السؤال، ولعله لم يفكر قط : أسعيد هو أم غير سعيد؟ ولذلك تباطأ في الجواب حتى استحثه علي :

ـ أجب : أسعيد أنت ..؟

ـ والله يا بني لا أدري إذا كنت سعيداً أو غير سعيد ، وإنمـــا ..

وتوقف مرة أخرى يستجمع فكره أو يبحث عن شيء لا يدري ما هو . فشجعه علي قائلاً :

إنما ماذا ..؟ قل ..

ـ إنما الحمد لله .. نحن عبيد الله نرضى بحكمه .

ـ ولكن الله لم يحكم علينا بأن نظل عبيداً .

ـ استغفر الله يا بني .. نحن عبيد الله دائماً وأبداً .

واضطرب عليٌّ، فقد شعر بأنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه لا يستطيع ، وفكر في أن يركب حماره وينصرف ، ولكن شيئاً ألح عليه في أنَ يتكلم فقال :

ـ أريد أن أقول : ان الله لم يحكم علينا بأن نظل عبيداً للآخرين : أن أظل أنا عبداً للتدلاوي ، وأن تظل أنت عبداً

لهذا الفندق الملعون ، وأن يظل قدور عبداً لمعلمه حتى أصبحنا نمثل بلد العبيد ..

وضحك اللمْطي فقد جابهه علي بكلام غريب ، لم يشعر قط انه عبد ، يعرف ان هنـــاك عبيداً آخرين عند السادة الكبـار ، يعرف منهم « مسعود » الأسود الذي طرده سيده يوماً لأن رِكاب البغلة أفلت من يده فكاد السيد أن يقع عندما كان معلقـاً بين السرج والأرض ، فالتجأ مسعود إلى الفندق حيث قضى ليلته ضيفـــاً عند اللمطي . ويعرف « مبارك » الأسمر الذي تأخر به زمانه حتى كاد يعجز عن السير ، وظل عبداً غير نافع لا يقوم بغير دور الحراسة على باب منزل الحاج عبد الله. يعرف بعضاً من هؤلاء ولكنه لا يعرف عبيداً بِيضاً مثله ومثل علي .

وانتفض من تفكيره على صوت علي مرة أخرى :

ـ ما رأيك آعمي اللمطي : إذا قررت أن أتحرر مـــن عبودية التدلاوي ، ماذا تراك تنصحني به ؟

ـ أنصحك ..؟

وفكر طويلاً وعلي ينتظر جوابه .. ثم أردف :

ـ الذين لا يشكرون نعمة الله على لقمة الخبز يفتقدونها .. أنت يا بني سعيد ، إذا وجدت عملاً فلا تضيعه ..

ـ ولكني أريد .. أريد ألا أبقى عبداً لأحد ..

ـ أنت لست عبداً ، التدلاوي لم يشترك بماله ، ولكنك متعلم .. عليك بالصبر لكي تتعلم الصنعة فتصبح معلماً ..

ـ وأستأجر رحى وأشتري حماراً ومتعلماً أذله إلى أن يكبر فيصبح معلمــاً .. وتتكرر المأساة .. لا يا سيدي .. « أفت رأيك على قشابتك[1] »..

وقفز علي إلى ظهر الحمار يائساً وهو يقول :

ـ آرا .. آرا .. الله يلعن الـ .. العبيد ..

غادر علي الفندق وأعصابه تغلي كالمرجل . حاول أن يفهم مركزه فلم يستطع . والتجأ إلى رجل كبير السن يبتغي عنده المعرفة والوضوح فلم يزده إلا ضَلالاً .. وسيؤوي إلى أمه في المساء لتحدثه عن والده كيف كان راضياً بالقضاء والقدر دون أن يتحول فكرها إلى أن هناك مشكلة أخرى لا تبلغ درجة القدر ولا القضاء ، هي مشكلة علي والتدلاوي ..

وانتزعه من تفكيره صوت منبعث من دكان صغـير ضيق ينادي جاره المقابل له :

ـ كم الساعة آسي عمر ؟

ـ العاشرة إلا ربعاً .

ولم ينتظر أن يسمع بقية الحديث فقد قفز إلى ذهنه المعلم

---

(١) مثل مغربي يراد منه : لا تنصحني برأي لن أعمل به .

بكل هيجانه وثورته وغضبه ينتظره أن يعود - وقد تأخر طويلاً - ليأمره بإحضار فطوره من المنزل .

- أعود إلى المطحنة أم أذهب إلى المنزل رأساً ..؟

ظل يتساءل دون أن يهتدي فكلا الأمرين شر لا يعفيه من عقاب . اهتدى أخيراً : قرر أن يترك قياده في عقل حمار .. ترك حبله على غاربه يذهب حيث شاء ، يختار المنزل أو يختار المطحنة سواء .

واهتدى الحمار أخيراً على طريق المنزل، فضحك علي ملء شدقيه وفكر :

- لو استشرت أحداً من ذوي العقول الكبيرة لما اهتدى..

وانحنى على الحمار يهمس في أذنه :

- قلت لك ظلموك يوم سموك حماراً .. أنت أذكى من كثيرين ..

وهمزه يستحثه على الإسراع حتى وصل إلى المنزل . فلم يكد ينقر خرصة الباب حتى انفتحت على استحيـــاء وظلت متوارية ، وامتدت من خلفها يد تحمل « زلافة » فول غارق في زيته يتصاعد بخاره ليحمل إلى أنف علي رائحـــة زكية خليطاً من ثوم وقزبور وفلفل وزيت . وانغمست عينـــاه في الزلافة قبل أن تمتد يده لتناولهـــا ، وهمس صوت السيدة المتوارية خلف الباب في استحياء :

ـ آسيدي علي .. تأخرت كثـــيراً .. المعلم لا شك انه جاع ..

ـ آللا ، كنا مشغولين .

ـ أسرع آسيدي علي حتى لا يغضب .

تناول الزلافة والخبزة ، وامتطى الحمار وهو يهمزه ليسرع إلى المطحنة ، فقد تأخر أكثر مما يحتمل المعلم ، وما تزال كلمة « حتى لا يغضب » تستحثه . وفكر :

ـ حتى لا يغضب.. ومتى كان غير غاضب ؟ لم يعد يهمني: يغضب أو يرضى ..

اتجه بكلامه إلى الحمار قائلاً :

ـ أليس كذلك آلحبيب ..؟ آرا .. آرا .. أنت الوحيد الذي لا يغضب في هذه الحياة . وانطلق الحمار ينهب الأرض الحجرية في خفة ودقة فقد شعر بأن علياً يستعجله ، ولعله أحس بأن المعلم في حاجة إلى فطوره فانطلق نحو المطحنـــة لا يلوي على شيء .

كان علي غارقاً في التفكير : كيف سيواجه غضب المعلم من جديد ، وكان الحمـــار ينحدر من حي « المشاطين » نحو « بين المدن » فانطلق من منعرج حاد دون أن يسترجع علي تفكيره فينادي : بَالَـك[1] .. الله يرحم والديك ، تنبيه لم

---

(١) كلمة تقال للتحذير وإفساح الطريق .

يستمع إليه القادمون خلف المنعرج فاصطدم الحمار برجل كان يمشي على عجل . وكاد الرجل يقع أرضاً ، تماسك والشرر يتطاير من عينيه ولم ينتظر كلمة اعتذار ، وإنما تقدم نحو علي فدفعه دفعة قوية أوقعته عن حماره . وكانت زلافة الفول الضحية الأولى،تناثرت حباتها وتشربت الأرض المتربة العطشى زيتها ومرقها . خشي علي أن ينهض من وقعته فينهال عليه الرجل القوي رفساً ولطماً .. ولكن عينيه تسمرتا في بقعة الزيت والتراب الأبيض يَسْتَفها كما لو كان هو الآخر جائعاً يتطلب أكلاً. وتسمعت أذناه للصوت الغاضب يبتعد والسّباب ينتثر من فمه ، ولم ينهض إلا بعد أن اطمأن إلى أن الرجل قد ابتعد .

على ظهر الحمار كان علي يتجه نحو الفندق. عيناه زائغتان، فكره سابح ، وجهه أصفر ، يداه ترتعشان ، ولكنه كان قد اتخذ قراره .

على باب الفندق كان يودع حماره أمانةً في ذمة عمي اللمطي وهمس في أذنه قائلاً :

ـ وداعاً أيها الحبيب .. وإلى الأبد ..

- ٧ -

ـ ويل للشيطان .. لماذا أنت قادم ؟

صرخت صرختها وعيناها مسمَّرتان في وجهه تبحثان عن جواب قبل أن تنطق به شفتاه . كانت هَلِعَة قلقة ، فهي تعرف انه لا يعود به ـ في ساعته تلك وفي أيامٍ كلها عمل ـ إلا شر .

وتجنبت عيناه النظر إلى وجهها حتى لا تفضحاه . ومع ذلك كانت نافذة الحَدْس فأضافت :

ـ خصومة جديدة مع المعلم ؟

واستأنفت ساخرة :

ـ أم تراه أصبح مريضاً فلم يفتح المطحنة ..!؟

واقتسر ابتسامةً من الدّوّامة التي كانت تلف فكره ، ثم ضحك ضحكة صماء وهو يجيب متشاغلاً بحركات لا معنى لها:

ـ لا هـــذا ، ولا ذاك .. أقصد : قد يكون أصبح مريضاً .. المهم اننا اليوم في عطلة ..

ـ عطلة ..؟ (وفي نبرة ساخرة استمرت) : أي نعم نسيت .. اليوم عيد مولد النبي أم هو يوم عاشوراء ..؟ عيد الأطفال اللاهين ..!!

وفطن علي لسخريتها فقال متحدياً :

ـ أنت دائماً تضيقين بي .. اليوم الذي أقضيه معك ..

ـ ... يوم من جحيم ..

قاطعته حتى لا تترك له سبيلاً للتحدي ثم أضافت :

ـ أخبرني لماذا عدت وما يزال الوقت ضحى ؟

ـ عدت لآكل لقمة خبز .. لآ كل .. أليس لي حق في أن آكل ؟

فقالت وقد مس حنان الأم صدرها :

ـ أما تزال دون إفطار ..؟ المعلم لم يفطر ..؟

ـ أفطَـر أو لم يُفطر سيان .. المهم اني جائع وأريد لقمة خبز .

أجهش بالبكاء متأثراً من جوعه ولم يمسك دموعه حتى يستطيع التأثير على أمه ، ولكنها كانت قد انصرفت صامتة. فقد عقد لسانها ان ابنها جائع . انصرفت لتعد له بعض الطعام وبراد شاي ، وهي تفكر في ان النـار قد خبت وان الخبز لم يختمر بعد ، وعليه أن يشتري خبزه من السوق .. وتركته يفكر :

ـ مرة أخرى أُصبح في الشارع .. عبئاً ثقيلاً على هـذه الأم التي تشتغل يوماً وتتعطل أيامـاً . اصبحت مثل كنزة وعائشة والجيلالي .. قد تتركني أمي معهم رهينة تحت رعاية الجارة « للا خدوج » إذا ما خرجت للعمل ..!

وتداعى إلى فكره مع كلمة « العمل » :

ـ وأين أجد العمل ؟ الأولاد من أمثالي يملأون الشوارع لاعبين يقتلون وقتهم وشبابهم .. المعلمون أقل من الأولاد .. المطاحن ؟ أعوذ بالله من المطحنة.. ولكني تعلمت عمل المطحنة فكيف أبدأ عملاً جديداً ، ومع وجـه جديد من وجوه المعلمين ..؟ التدلاوي ..؟

وأنقذه من تفكيره صوت أمه وهي تنادي من بعيد تحاول أن تهمس حتى لا يسمعها الجيران :

ـ آعلي .. اجرِ عند الخباز وايت لنا بخبزة .

ـ خبزة ؟ أليس عندك خبز ؟ خبزة ..؟ لا أعتقد اني أجد خبزة الآن ..

ـ إذا لم تجد خبزة فأت بنصف خبزة .

اقتسر منطق أمه ابتسامة حزينة من أعماق متاعبه ، وأجاب :

ـ خبز الصباح ـ يا سيدتي ـ انتهى الآن . والخبازون ينتظرون الآن خبز الغداء .

ـ والفرّان ..؟

ولم يدعها تكمل جملتها فقال بصبر نافد وصوت مسموع :

ـ قلت لك ألف مرة : كمّل من عقلك .. لو كان الخبز عند الفران لانتقل بسهولة إلى دكان الخباز .. الفران هو نفسه ينتظر أن يختمر عجينه .. أفهمت الآن .. آللا ..؟

نظرت إليه في اشمئزاز وقد ضاقت بسخريته واحتداد أعصابه ، وهمت أن تلعن اليوم الذي رأت فيه وجهه لولا أن تذكرت انه جائع . ولكن عينيها الحادتين تسمرتا في الوجه المرتعش حتى تسمعت أذناها إلى صوت يهتف خلف الستار :

ـ آللا فاطمة .. ما تزال عندي بقية من خبز ، لعلها تكفي لفطور سيدي علي .

كان صوت الجارة خدوج إنقاذاً للموقف . ولكن فاطمة استكبرت أن تظل دائماً تحت رحمة جارتها، فأجابت بصوت يرتعش شاكراً :

ـ آللا خدوج .. الله يخلي لك وليداتك . الخبز موجود في السوق ولكنه تكاسل أن يذهب عند الخباز .

ـ ولم كل هذا التعب ؟ البركة موجودة ، ليقضي بهذه القطع .. أنا الأخرى إذا احتجت سألتجىء إليك .

ـ الله يجعل البركة في رب المنزل ، ويعطيكِ بقدر سعة قلبك .

قالتها فاطمة ويداها تمتدان في ارتعاش لتتناول قِطَعاً من خبز جاف تقدمت به «خدوج» وقد عز عليها هي الأخرى أن يبقى علي جائعاً :

تناول طعامه تحت نظر فاطمة وجلس الجيلالي بلِصْقِه حتى ضاق به ذرعاً فزحزحه عن مكانه :

ـ يا أخي ابعد قليلاً فأنفي يضيق بأنفاسك ..

ووقفت كنزة وعائشة بجانب المائدة وأعينها الصغيرة تتابعان علياً وهو يحمل اللقمة في شراهة الجائع إلى فمه ويتبعها

بدفقة شاي يصبها في حلقه . وبفم مليء بمضغة خبز انطلق في وجهيها شبه صائح :

ـ فماذا تنظران ؟ لم تريا قط شخصاً يأكل ..!؟ أتراكما بعد جائعتان ..؟

ولمس مكان الصّدق في نفس الطفلتين فأجابته كنزة :

ـ لا .. لا ، نحن أكلنا .. أكلنا ..

تؤكد الكلمة كما لو كانت تخشى أن يعكس فهما : نحن جائعون . والتجأت عائشة الصغرى إلى أمها مندفعة بين ذراعيها ، فعز على الأم أن يقهر علي طفولة إخوته فقالت :

ـ قلبك .. قلبك يا أخي أقسى من حجر ، هم جميعاً مشفقون عليك .. وقفوا أمامك تملأ قلوبهم الرحمة لأنك لم تفطر بعد ، وأنت تصفعهم بفظاظتك ..

ـ هو .. هو .. هو ..

ولم يتبين أحد جوابه ، فقد كان ينطق بفم مليء بالخبز والشاي .

انتهى عليٌّ من إفطاره وحملت فاطمة الطاولة متشاغلة بغسل البراد والكأس وهي تفكر :

ـ ترى ماذا عاد به من العمل ؟ خصومة جديدة مع المعلم ؟.. ليس بوجهه أثر للضرب .. المعلم أصبح مريضاً ؟

لو كان مريضاً لعاد منذ الصباح الباكر.. لا عمل في المطحنة ؟ لو كان الأمر كذلك لأفصح .. ولكن ليس من عادته أن يعود ولو لم يكن بالمطحنة عمل .. تراه طُرِد ..؟

واستلّها من تفكيرها طرق عنيف على باب المنزل ، فهرع علي إلى أمه وهو يشير بسبابته على فمه :

ـ أوس .. أوس .. أوس .. لا تقولي اني هنا .

وبدأت تدرك .. غير أن طرق الباب استمر بعنف فلم يترك لفكرها أن ينتهي إلى إدراك . وتداعى إلى أذنيها صوت المعلم التدلاوي :

ـ آللا فاطمة .. آفاطمة .. أين ذاك الشيطان الملعون ..؟

ونظرت فاطمة إلى علي في حِقد مليء بالإشفاق وهي تشير إليه أن يخرج إلى المعلم . فاعتصم بركن الغرفة المظلمة وهو يشير إليها بسبابته : ان لا .

خرجت فاطمة إلى الباب مشفقة مما ستلاقي من إحراج ، وهي لا تدري بماذا سيصدمها المعلم التدلاوي ، ولا تدري بماذا ستجيب . وما يزال السؤال : أين ذاك الشيطان الملعون .. يتردد في أذنيها كأن صوت المعلم ما يزال يهتف به . عز على فكرها المكدود أن يفكر في الجواب وهي تجتاز الطريق بين

الغرفة والباب . بدا لهـا طريقاً طويلاً محفوفاً بالأشواك . وأخذت تمشي – بعد أن نهرت الأطفال الذين تبعوها ليبتعدوا عنها – على مهَلٍ كأنما لتؤجل المواجهة ريثما يتفتق فكرهـا عن فكرة . ولكن الطرْق استمر بعنف.وفكرت في الجيران وهي تجيب بصوت خجِل :

– نعم .. آشكون[1] ..؟ آصبر ..

ماذا سيقول الجيران وزوبعة أخرى يثيرها المعلم التدلاوي من أجل هذا الشقي : علي ؟

لفّت الدوامة السؤال كما لفت كل ما فكرت فيه وهي تسحب مزلاج البـاب لتواجه المعلم التدلاوي بوجهه الكالح وعينيه الجاحظتين ولحيته المرتعشة وصوته الأجش وبُصاقه المتطاير من بين أسنان تناثرت في غير انتظـام تحت شفتين يابستين . وابتعدت فاطمة قليـلاً عن متناول اليدين وهما تتحركان في عنف كأنما تعبران عما عجز لساعه أن يبين عنه . وعقد الخوف لسانها فلم تزد على :

– صباح الخير آلمعلم .

ضاعت تحيتها في الزوبعة الثائرة ، فلم تسمع تحية ولا رد تحية . ولكنها مع ذلك أرهفت أذنيها واستجمعت فكرها ،

---

(١) من يكون بالباب .

وحدَّقت طويلاً في فم المعلم تستعين بعينيها على فهم ما عجز فكرها أن يفهمه وما عجزت أذناها أن تدركه . فلم تتبين رغم إجهادٍ غير كلمات متناثرة : الحمار .. الفول .. تأخر .. الجوع .. الدار ..

عز عليها أن لا تفهم واستحال عليها أن تستوضحه أو تستوقفه قليلاً لتدرك . تعطلت حواسها فلم تستبين غير ثورة جديدة من المعلم ضد علي . وقفت جامدة كما لو كانت تمثالاً صنع في لحظة حزن . وتركت المعلم ينفس عن ثورته حتى انتهى من صراخه وهو يعلن :

ـ والآن أين هو الشيطان الرجيم ؟

ألقى السؤال وهو يضرب كفاً بكف . فلم تجب فاطمة ، فقد توقفت الكلمات في حلقها وهي لا تدري أتسلم الشيطان الرجيم إلى المعلم ليفترسه كما بدا انه سيفعل ؟ أم تلوذ بالإنكار ريثما تمر العاصفة ؟ واستحثتها عيناه المتطلعتان إلى جواب فزاد جحوظهما في اضطرابها . وحاولت أن تتكلم فصدرت عنها هذه الكلمات :

ـ وماذا صنع آسيدي المعلم ؟ قل لي ماذا صنع الشيطان الملعون ..؟

وبهت الرجل فزادت عيناه جحوظاً وازدادت نفسه اضطراباً ، وازداد صراخه وهو يجيب :

ـ أنتِ الأخرى صماء..؟ ألم تفهمي ما قلت منذ الصباح؟ الشيطان الملعون هرب .. هرب ..

وحاولت أن تقاطعه فتقول :

ـ لم يهرب .. هو هنا .

ولكن المعلم التدلاوي استمر والكلمات تتفجر من حلقه كما لو كانت تنزل من شلال متعثرة في صخوره :

ـ ... هرب بزلافة الفول والخبزة ، هرب ليأكلها .

وتوقف قليلاً ، ثم أضاف :

ـ ... سماً زعافاً إن شاء الله في بطنه ..

وعز على الأم المذعورة أن تسمع هذا الدعاء الطَّالح على ابنها وهي ما تزال تؤمن ان المعلم التدلاوي رجل يصلي الصبح في وقته ، ولا شك ان دعواه مستجابة . أجفلت وهي تسمع الشتيمة ، وتصورت ابنها وهو يتلوى من ألم السُّم الزعاف . فاستنهضت همتها لتقول للمعلم :

ـ آسيدي المعلم .. حرام عليك .

ـ حرام عليّ ..؟ يهرب ويأكل زلافة الفول والخبزة ثم حرام علي ..؟ أنت الأخرى متواطئة معه ..؟ لو لم تكوني متواطئة معه لما جرأ على الهروب بزلافة الفول ..

بان التحدي في عينيها وهي ترفع صوتها لتجيب المعلم

التدلاوي ، فقد جرح كرامتها وهو يتهمها بالتواطؤ في سرقة زلافة فول .

ـ قلت لك آلمعلم .. الله يهديك ..

لم تستجب أذنا المعلم لصوتها الذي بدأ يتحول إلى صراخ، ولم يلتفت إلى أنها حذفت كلمة « سيدي » من حديثها فنطقت « آلمعلم » دون احترام دأبت عليه كلما خاطبته . وإنما التقط آخر كلمة من جملتها ليضيف :

ـ الله لا يهديه.. ذلك الشيطان الملعون.. لن يهتدي أبداً.. وجهه ينبىء بأن الله لن يهديه ..

وزادت كلماته في تعميق جرحها فرفعت صوتها بالصراخ :

ـ أنت لست الله .. والحمد لله على ذلك .. سيهديه الله فهو ابن رجل اهتدى . كان يصلي خمس أوقات .. وأنت ..؟

وعز عليها أن تواجهه بالهجوم فلم تقف في موقفها ذاك قبل الآن . وإنما نظرت إليه بعينين حاقدتين ثم صفعت الباب في وجهه بعنف وكلماته الأخيرة تتسرب إلى سمعها :

ـ والله .. لن تطأ رجلاه أرض المطحنة عمره ..

عادت وهي تتحدث إلى نفسها بصوت مسموع وكأنها تخاطب علياً :

ـ هذا ما ينوبني منك.. رجل يأتي إلى باب المنزل ليهزئني وينال من كرامتي ..

واقتربت من صحن المنزل لتجد جارة لهـــا وقد رفعت الستارة التي تحجب ممر غرفتها محاولة أن تعرف سبب الضجة. ونطقت الجارة زينب :

ـ لا بأس ؟ مالك مغتاظة ..؟ سمعت الضجة من داخل الغرفة فخفت أن يكون شرٌ ألمَّ بك ..!

وأجابت فاطمة وهي تخفض من صوتهـــا وتطأطىء من هامتها :

ـ لا .. لا بأس .. ليس شراً .. وإنما ..

ولحظت التطلع في عيني الجـــارة التي سمعت كل شيء فلم تفهم شيئاً كما لم تفهم فاطمة ، فأضافت :

ـ والله ما فهمت .. المعلم الرحوي تخاصم مع علي مرة أخرى وجاء ينتقم مني أنا .

قالت كلماتها وهي ترفع الستارة التي تفصل غرفتهـا عن غرف الجيران حتى لا تطيل زينب الحديث فيما لا تحب فاطمة أن تتحدث فيه . فاصطدمت بعيون الجيلالي وكنزة وعائشة تتطلع في هلع إلى ما وراء الأم التي خاضت ـ فيما خيل إليهم ـ معركة في باب المنزل كانوا يستمعون إليهـــا عن بعد ، فلم

يكن أحد منهم يقدر على أن يقف مع أمه بعد أن نهرتهم وهم يتبعونها إلى الباب حينما كان المعلم التدلاوي يخبطها بعنف. وتجاوزت العيون الصغيرة الهلعة وهي تبحث عن علي الذى اختفى في الركن المظلم كأنما ليتقي به غضب المعلم التدلاوي وغضب أمه . ونظرت إلى شبَحه فوجهه لا يكاد يبين ، وقالت بصوت مخنوق :

ـ سمعت ..؟ سمعت الفضيحة التي سببتها لي ؟

ولم تنتظر أن يجيب ، فهو معتصم في الركن المظلم لأنه أذنب دون ريب ، وهو يتحدى حتى ولو كان مذنباً، ولكنه حينما يشعر بالذنب الفادح يختفي وراء الأركان المظلمة . ومع ذلك تبقى عيناه تلمعان ولو في الظلام كما لو كان قِطّاً يتحدى الظلام .

وضاقت فاطمة ذرعاً بصمته ووقف وجهها المتحدي يحاول أن يخرجه من الصمت وهي تنظر إليه في حقد مزوية ما بين عينيها . ووقفت العيون الصغيرة في ترقب تنتقل بين فاطمة وعلي مشفقة من الانفجار كما تترقب عادة هزيم الرعد بعد برق خاطف . وظلت عيناه المتحديتان مسمرتين في وجه فاطمة . وهتفت أخيراً :

ـ ألا تحب أن تنطق ؟ سأعرف كيف أجعلك تنطق .. أستَكبُر على يديّ وقد حملتاك طفلاً صغيراً ؟ إذا لم تتكلم

فهذا الحزام (ومدت يدها إلى حزامهـــا الجلدي) كـفيل بفتح فمك .

وعرف علي ألا قِبل له بالتخلص من عقـــاب أمه إذا غضبت ، فوقف من مكنه وبدأ يتحرك نحو أمه وهو يقول :

ـ ماذا تريدين مني أن أقول ؟ أنا .. أنا مظلوم .. المعلم كعادته ظلمني ..

وأجهش بالبكاء .

كان يعرف كيف يلمس مكان الضعف من أمه . سبيله إلى ذلك البكاء والتعبير عن ظلم المعلم له . واندفع إلى أمه يقبل يديها ويمسح دموعه بذراعيها ، فدفعته عنهـــا وهي ما تزال تتطلع إلى مزيد من القول . فأكب على رجليهـــا يقبلها وهو يقول في شهيقه :

ـ ظلمني المعلم ..

ـ وما حكاية زلافة الفول ..؟

وكاد ينقلب بكاؤه إلى ضحكة عالية لولا أن أدرك أن الموقف لا يحتمل الضحك ، فأجاب وقد بدأ صوته يتضح :

ـ الفول .. الفول .. ليس ذنبي .. إمرأته .. تلك « للا هنية » الله يهديها تملأ دائماً الزلافة بالفول والزيت ، وأحملهـا دائماً كما أحمل قفة بيض خشية أن ..

وفهمت أمه فقاطعته صارخة :

ـ وقلبتها في الطريق ..؟ بَرَكَة .. يكفي .. فهمت ..

وتَطَامَن صوته وهو يجيب :

ـ الله يهديك آمي .. اصبري قليــــلاً .. لست أنا الذي قلبها ، وإنما هو واحد الملعون ..

ـ الحمار ..؟ دائمـاً الحمار تلصق به كل آثامك .. آه لو نطق لتبرّأ من كل ما ألصقته به من ذنوب ..!

وفكر في الحمار قبل أن يجيب منكتاً :

ـ لو نطق لما كان حماراً ..!

غلبت الابتسامة فاطمة وهي تحاول أن تصدها ، وضحك الجيلالي ملء فيه دون أن يحتفظ بحرج الموقف . وأدرك علي انه بلغ هدفه من النكتة فقد أزاح الغيمة المكفهرة عن وجه أمه ثم أجاب بصوت هادىء :

ـ ليس الحمار – ولا أتحمل ذنبه – وإنما أحدُهُم انفرج عنه المنعرج بـين « المشاطين » و « بين المدن » فاصطدم بالحمار . وعوضاً عن أن يضرب الحمــار دفعني دفعة قوية حتى وقعت أرضـاً ، و .. و .. وأفطرت الأرض بزلافة الفول والزيت ..

وضحكت الأم وهي تتصور زلافة الفول المُتَبَّلَة بالفلفل

والثوم والقزبور منكفئة على الأرض العطشى . ثم قالت في صوت آسي :

ـ أنت عملتها .. وهو بقي جائعاً .. وأنا .. أنا سمعت ما لا يرضي ..

ـ لا تهتمي بكلامه .. ذاك رجل أحمق .

ـ والله يا بني ليس هناك أحمق غيرك . هو عاد الآن إلى عمله .. والأطفال غيرك كثير . أما أنت فيجب أن تبحث منذ الآن عن عمل ..

قالتها وصعّدت آهة حرّى عادت بها إلى الواقع المر .

-٨-

عاد علي إلى المنزل متأخراً وهو يلهث . وطرق الباب في شيء من العنف وفي إلحــــاح كبير . نهضت فاطمة تُسرع الخُطى لفتح الباب فهي تعرف أن زوج « للا خدوج » عاد منذ قليل إلى المنزل بعد أن صلى العشاء، وان السيد سلام زوج « للا زينب » عــاد قبل ذلك فهو لا ينتظر آذان العشاء ، وإنما يصلي في المنزل إلا أن ترهقه قساوة الشتاء وبرودة الماء فتمنعه من الوضوء . ولذلك فهو ينام في غالب ليالي الشتــاء

دون أن يسمع أحد من الجيران صلاته المتعجلة.وكانت زوجته للا زينب تلح عليه في أن ينهض للصلاة قبل أن ينام فينهرها وهو بين اليقظة والنوم :

ـ قلت لك ألف مرة لا تزعجيني عندما يأخذ النوم بتلابيبي ..

ـ بينك وبين الله ، لست أنا التي ستدخل النار .

كل الجيران عادوا إلى منازلهم إلا علي فهو ما يزال يذرع شوارع المدينة كما لو كان « مقدم الحَوْمة[1] » .

هكذا فكرت فاطمة وهي تسرع الخطى لتفتح الباب حتى لا يقلق عليّ الجيران بطرقه العنيف . وفتحت الباب دون أن تنبس ، فهي لا ترغب في أن تدخل مع علي في جدال على مسمع من الجيران ، ولكنها كانت تفكر في السؤال التقليدي الذي ستبدأ به حديثها حينما يدخل الغرفة المقفلة الأبواب . وترك سؤالها حائراً في ذهنها عندما فاجأها هو بالسؤال ليقطع عليها خط المبادرة :

ـ إيه ماذا عملتِ اليوم ..؟ بحثت عن شيء ..؟ وجدت شيئاً ..؟

ألقى أسئلته وهو يكب على يد أمه يقبلها في شبه استرخاء.

---

(١) الحومة : الحي ، ومقدم الحي هو رئيس الحرس فيه .

وانصرفت عن الإجابة وهي تفكر في عودته المتأخرة، ولكنها اندفعت لتجيب عن قبلة اليد جوابها التقليدي :

ـ الله يرضى عنك ويفتح بصيرتك للخير ..

دائماً تجيب عن قبلة اليد هذا الجواب الطيب ، ودائماً تفكر في بصيرته التي لم تفتح بعد للخير .

خيم السكون بعض الوقت على الغرفة الموحشة إلا من عيون صغيرة كانت تتحدث في صمت . كنزة وعائشة والجيلالي كانوا يتساءلون بأعينهم عن الثورة الصاخبة التي ستنفجر مرة أخرى بين علي وأمهم فاطمة ، فقد كانوا يعيشون معها فترات القلق الذي كان يساورها قبل مجيئه . استبطأت عودته وخافت من « أولاد الحرام » أن يلعبوا بعقله . والليل عندها مبعث للخوف ، فهي لا تخاف إذا غاب طول النهار ولو ان القلق يساورها ، ولكن عندما يبدأ الليل ينسدل أستاره على المدينة المتقوقعة يتحول القلق إلى خوف واضطراب ، ويمتزج هذا الخوف بالخجل من الجيران :

ـ بماذا تراهم يتحدثون وقد عرفوا ان علياً يعود الى المنزل في هذه الساعة المتأخرة ، وهم الرجال لا يتأخرون إلا لصلاة العشاء إن هم حرصوا على أن يصلوها جماعة ؟

هكذا تحدثت إلى نفسها وهي تتغاضى عن سؤال علي لتطرح عليه السؤال بعد أن ضمتها الغرفة الموحشة :

– أين تأخرت وقد ذهب ليل وجاء ليل ..؟

– هاي .. هاي .. هاي .. أي ليل هذا الذي ذهب ؟ سمعت آذان المغرب وأنا في طريقي.. أقصد حينما كنت قادماً من هناك ..

وغلبت سخريتها غضبها فتبسمت وهي تجابهه :

– أي مغرب هذه التي سمعت آذانها..؟ هل هناك مغرب تؤذن في الظلام ؟

فتوارت حجّته وهو يحاول أن يفلت من الحصار :

– والله لا أدري المغرب من العشاء .. يمكن العشاء ..!!

– أسألك أين كنت ؟ ولماذا تأخرت ؟

وضاق ذرعاً بهذا التحقيق الذي لم يستطع له صَدّاً فأجاب في حدة :

– دائماً أين كنت ولماذا تأخرت ..؟ كنت.. أنت تعرفين أين كنت ..

وتشاغل بالتخلص من جلبابه وهو يرمي به بعيداً ويتلفت إلى اخوته يلحظ في عيونهم التطلع حتى يتقي محاصرة نظرات أمه الغاضبة ، ثم أضاف في نفاد صبر وبتحد ظاهر :

– كنت ألعب الكرة في « باب الحمراء » .. حينما أتأخر اعرفي اني ألعب الكرة ، وفي باب الحمراء .

– الكرة..؟ وفي باب الحمراء .؟ وصلت إلى هذا الدرك؟ وجهك وجه الكرة ومع صعاليك باب الحمراء ؟

وضحك في نفسه وهو ينظر بعينين متحديتين إلى أمه . وفكر :

باب الحمراء متاهة من متاهات الدنيا لا يَرِدُها إلا صعاليك ..؟ رابح والزّعاف والنيكرو صعاليك في نظر أمي ..؟ ليتني .. ليتني كنت « كولاً[1] » كالزهر . ان قفزته الرائعة تجعل الحاضرين يتمنون لو كانوا « صعاليك » مثله .. ليتني كنت أستطيع أن أحضر ملعب « واد فاس » لأشهد مباراة « الماس[2] » مع « الواك » .. ليتني أتقدم في الصعلكة فأصبح كأحمادوش تهتف الجماهير باسمي كلما أخذ الكرة بين رجليه ..!

واستله من أمانيه حديث الجيلالي وقد أغره اسم الكرة بالإعلان عن مطالب طالما تمنى أن يفضي بها إلى أمه :

– آخوي خذني معك في المرة القادمة لألعب معك الكرة..

---

(١) حارس المرمى .

(٢) فرقة لكرة القدم .

انفجر علي بضحك علني وهو يجيب الجيلالي في سخرية :

ـ حتى أنت تريد أن تصبح صعلوكاً ..؟

وأدركت فاطمة سخرية علي فابتدرته قائلة :

ـ ما دمت أنت فقيهه تعلمه كيف يتأخر مع الصعاليك حتى منتصف الليل ، فلن يطمع إلا في الاقتداء بك ..

ـ يا للا الكرة ما فيها عيب ولا صعلكة ..!

فأجابت وكأنها تتحدى :

ـ فيها غير الجري والخصومات والسّباب والكلام البذيء وقلة الحياء .. أليس كذلك ؟

أعاده حديث فاطمة إلى الواقع وكأنه كان غافلاً عما يجري حوله في ميدان الكرة . وفكر :

أمه هي الأخرى مرت في صغرها في هذا الميدان ، لكنه يعرف ان النساء لا يلعبن الكرة ، فمن أين لها انه ميدان للجري والسباب والكلام البذيء ؟

استعاد الجو المشحون بالعنف الذي تطغي عليه لغة خاصة أقل ما فيها الكلام البذيء . وأعطى لأمه الحق في أن تثور حينما تعلم انه يذهب إلى ميدان الكرة في باب الحمراء، ولكنه مع ذلك يجب أن يذهب . فالكرة أصبحت محببة إليه يطير

عقله معها كلما قذفها أحد الأبطال قذفة رائعة هدد بها مرمى الخصم . وقـــد أصبح يحنُّ إلى أن يكون بطلاً من هؤلاء الأبطال الذين تتعلق بأرجلهم العيون وتود القلوب أن تعانقهم وهم يذرعون الميدان في خفة الريشة وسرعة الغزال . متى ..؟ متى أكون مثل الزهر ، أو مثل ذلك العفريت النيكرو أو أحمادوش ؟

وعاد بتفكيره إلى الغرفة الحزينة ينفث فيهـا ضوءاً باهتاً متهالكاً ، سراجٌ كان يتنقل مع الأم كلما ذهبت ويعود معها وقد حملت «طبلة» الأكل أو طبق الزيتون أو خبزة مستديرة ناضجة .

تسمرت عيناه في الطبلة وهو ينتظر أن تضيف أمه شيئـاً آخر إلى الزيتون الأسود . واستبطأ الأم وقد غابت قليـــلاً بمصباحها اللاهث فهتف بها :

ـ هذا كل الأكل ..؟ ماذا عندك من أشياء أخرى ؟

ولم تجب الأم ، فما زال تغيبه إلى هذه الساعة المتأخرة ، واختلاطه بالصعاليك لاعبي الكرة يملأها غيظاً ويفقدها الرغبة في أن تتحدث إليه . والتفت يائساً إلى اخوته يسألهم :

ـ ماذا حملت أمي معها من أكل حينما عادت ؟

دلف صوته في الظـــلام إلى آذانهم ، ولكنهم لم ينبسوا

بكلمة . وأجابت كنزة بحركة من فمها وعينيها البريئتين تعني : لا أدري . ولكنهم جميعاً في الظلام لا سبيل للتفاهم بينهم غير الصوت . وألح عليه الجوع فعاد يسأل أمه في ضراعة :

ـ قولي لنا ـ الله يخليك ـ ماذا معك من أكل ؟

أجاب الضوء المقترب قبل أن يجيب الصوت المغتاظ . فقد قدمت فاطمة تحمل صحناً كان على النار يكاد لحرارته ينفلت من يدها وقالت في نفاد صبر :

ـ اللي أعطى الله ها هو قدامك ..

وأضافت ساخرة :

ـ يا ليت .. يا ليت آسيدي يعجبك وتأكله بالصحة والعافية ..

وبدا علي سعيداً بالأكل وسعيد بسخريتها أيضاً فضحك وهو يجيب :

ـ الله يخلي لنا المّيمّة [1] .

وانتهز فرصة الانفراج في أساريرها فأكب على يدها يقبلها وهو يقول :

ـ ارض علينا .. ارض علينا الله يخليك ..

---

(١) تصغير أم .

وهتفت شفتاها في همس :

ـ الله يفتح بصيرتكم للخير .

ولكن علياً لم ينتظر إجابة أمه وإنما أكب على الصحن ينتقي أكبر حبات فول تلتقطها عيناه .

وانتصف مع الأكل ، فالتفت يمنة يبحث عن زلافة الماء فلم يجدها . وحاول أن يأمر الجيلالي أن يحمل إليه الماء فتخوف أن يثير أمه مرة أخرى . ولذلك نهض بنفسه يملأ زلافة من سطل الماء وشرب حتى ارتوى ، وعاد وهو يتجشأ بصوت مسموع ويقول :

ـ الحمد لله .

نادته أمه وهي على مائدة الأكل :

ـ إحمل إلينا معك شربة ماء .

أحس ان الجو تغير ، وأن فاطمة أصبحت على استعداد نفسي للمناقشة . فابتدرها وهو يعود إلى صحن الفول قائلاً :

ـ قولي لي : ماذا قالت زوجة الحاج عبد القادر ؟ هل حدثت زوجها ؟

وفكرت الأم قليلاً قبل أن تجيب :

ـ ماذا كنت تنتظر أن تقول ؟

أسرَع قبل أن تكمل جملتها :

ـ أنتظر ..؟ لن ترفض لكِ رغبة ، ولن يرفض لها زوجها رغبة ..

أجابت الأم في يأس :

ـ خبرتك بالدنيا ضعيفة يا ولدي .. والذي تضيعه في ساعة لا يمكن أن تكسبه في عام .. دخول الحمام ليس كالخروج منه[1] ..!!

ونظر إليها في تطلّع وقد أدرك ، ولكنه لم ينبس ، فأضافت :

ـ قلت لك صنعة في الرأس هي رأس مال عظيم .. ماذا تريد أن ترجو من وراء متعلم عند الحاج عبد القادر ؟

وأحس كأنها فتحت باباً للحوار ، فأجاب متعجلاً :

ـ أتعلم في (دار السلعة[2]) كيف أتاجر ، وهكذا يمكن أن أصبح تاجراً كبيراً .

وأحست بأسى وهي تجيب :

ـ تاجر كبير ؟ الحاج عبد القادر لن يعلمك أن تكون

---

(١) مثل مغربي يعني ان وقوع المشكلة ليس كحلها .

(٢) المتجر .

تاجراً كبيراً.. المال هو الذي يعلمك أن تكون تاجراً كبيراً.. الحـاج عبد القادر لم يكن مُتَعَلّماً قبل أن يصبح تاجراً ، وإنما كان ..

توقفت قليلاً وقد تذكرت زوجها ووضعه المالي المتواضع وحرصه على أن يكون مستقيماً ، ولذلك لم يكن قط غنياً . ولكنها انتزعت نفسهـا من شريط الذكريات وهي تكمل جملتها :

ـ ... كان ابن رجل غني .. علمه المال الذي منحه إياه والده في حياته ليتاجر به . ثم .. ثم ما ورثه عن والده ..

وبدأ عليّ يفهم الوضع وكأنه عاد من حلم مليء بالآمـال الثرية ، وسأل أمه في تحسر :

ـ ولكن ماذا تراني أتعلم عند الحاج عبد القادر ؟

ـ تتعلم كيف تحمل القفة وسطل الفحم .. وكيف تكنس الإسطبل،وتجري لاهثاً وراء البغلة وهي تحمل الحاج عبدالقادر إلى متجره ..

ولمعت في ذهن الجيلالي ذكرى منظر مـا زال يحيى في ذاكرته ، فبادر أمه قائلاً :

ـ ويصيح بأعلى صوته : بالـَك .. بالـَك ..

وحاول أن يضيف ، يحكي قصة المنظر الذي رآه :

ـ مرة كنت واقفـــاً في باب الدرب فمر بنا رجل كبير سمين على بغل قد الدنيا ..

فانتهره علي وقد أدرك ما يريد :

ـ اسكت أنت .. آلبغل ..

سكت الجيلالي وقد ملأ فمه خبزاً وفولاً ، ونظر إلى أمه بنصف عينه والنصف الآخر منغرز في صحن الفول ، وبادلته الأم نظرة إشفاق ، ولكنها لم ترغب أن تثور مرة أخرى في وجه علي ، فقد ألفت أن تنتصِر للصغير وهي لا تريد أن يشعر علي وهو في أزمته بأنها هي الأخرى ضده . تغافلت عن الموضوع وهي تقدم لكنزة فولة مقشرة مأخوذة بالنوم الذي بدأ يداعب عيني الصغيرة :

ـ كنزة .. لا تنامي حتى تشبعي يا بُنيَّتي .

ولم تجب كنزة وإنما تمايل رأسها الصغير وهي تقاوم النوم.

وكف علي عن الأكل وبدا أنه شبع فتجشأ بصوت مرتفع وهو يقول :

ـ الحمد لله .

ثم وهو ينظر إلى أمه نظرة استرضاء :

ـ الله يعطيك الصحة . أي طويجن هو ؟.

فابتسمت فاطمة وهي تجيب :

ـ بصحتكم .. يا ليت انه يعجبكم .

وطمع علي في رضاها مرة أخرى فسأل :

ـ و لآن ما العمل .. يخيل اليّ ان الحاج عبد القادر لن يرفض .

ـ عدنا إلى الحاج عبد القادر ..؟ ألم ننته من حديث الحاج عبد القادر بعد ؟

وتطلع علي إلى أمه وكأنه يحاول أن يقاطعها .. فبادرته قائلة :

ـ تريد أن تعرف الحقيقة ؟ لقد رفض ، فليس له رغبة في .. « متعلم » .

جلس علي يفكر في يأس ، فقد غمر قلبه التفكير في الحاج عبد القادر . كان يعتقد انه سيقبله مساعداً في متجره الكبير ومن ثم أخذ يحلم بالمهارة التي سيظهرها في التجارة وسيصبح تاجراً صغيراً ، ولن يمر كبير وقت حتى يصبح تاجراً كبيراً يتربع على دَسْتِ « دار السلعة » يحيط به المتعلمون ويقصده التجار المتوسطون والصغار يأخذون البضائع ويعطونه المال .. المال الكثير .. وها هوذا في ثيابه البيضاء يصدر الأوامر إلى المتعلمين أن ينظموا لفائف الثياب المطرّزة الجميلة ويصدر أمره إلى أحدهم :

ـ اذهب أنت بسرعة.. اخطف رجلك عند بنيس وقل له: الحاج علي يقول لك: إما أن تدفع ما عليك أو بينك وبينه «المخزن[1]»..

الحاج علي..؟ وهل يكون تاجراً كبيراً دون أن يكون حاجاً.. حاج يعود إلى منزله على بغلته الضخمة ووراءه متعلم يلهث.. يهتف بالمارة: بالك.. خذ بالك..

وطار الحلم من رأسه، فقد عادت إلى ذهنه كلمة الجيلالي وتصور نفسه يلهث وراء بغلة الحاج عبد القادر وينادي بأعلى صوته المنقطع:

ـ بالك.. بالك..

وهتف بأمه وكأنه يستيقظ من حلم بدأ جميلا وانتهى مرعباً:

ـ لا.. لا.. هذا المتجر ما عندي غرض به..

وانتبه إلى أمه تفتح فاها مستغربة، فأضاف:

ـ الحاج عبد القادر لا أقبل العمل معه.

لم تناقش فاطمة، فهي تعرف نزواته وكلامه غير المفهوم..

---

(١) تعني هنا المحكمة.

ولكنه حاصرها بسؤال جديد وهي تعد فراش الأطفال وتحمل كنزة بين ذراعيها وقد غيبها النوم :

ـ والآن ماذا نعمل ؟

ـ يا سيدي يصبح ويفتح .. شيء لم نجده في ضوء النهار نجده في ظلام الليل ..؟

ولم ينهزم أمام المنطق المستقيم ، إنما زاد في إلحاحه وهو يقول :

ـ نصبح فيذهب كل منا في اتجاه ، ولن نراك إلا بعد المغيب ..

ـ اطمئن .. فأنا غداً عاطلة مثلك ..

ـ ومع ذلك ألم تفكري في شيء آخر ؟

وعز عليها أن ينام علي دون أمل فهمست في أذنه :

ـ فكرت طويلاً ، وفكرت معي للا خدوج الله يعطيها على قد قلبها ووعدتني بأن تكلم زوجها سيدي معروف فهو يعرف المعلم الدباغ سيدي ..؟ الله يفكرنا في الشهادة ..

ـ المهم : ماذا قال له ...

ـ لم يحادثه بعد ولكنه يأمل أن يأخذك متعلماً في دار الدبغ .

ـ دار الدبـغ ..؟

كذلك هتف علي في عصبية ، ثم أضاف :

ـ من الرحى لدار الدبـغ ..؟ ذاك دار الدبـغ الـــتي نمر عليها عند العودة من « بين المدن » ..؟

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن دار الدبـغ ، ولكن هكذا قالت للا خدوج .. وكيفما تكن فهي أحسن من باب الحمراء .

فَهِـمَ علي ما تقصد إليه أمه فلم يجب . فقد شعر بشيء من الاطمئنان وخف عنه القلق الذي ساوره أياماً . وقام إلى فراشه وهو يحلم بشيء جديد اسمه « دار الدبـغ » .

- ٩ -

عـــاد علي إلى المنزل وأذان العصر يهتف في أذنيه ، فقد استمع لنداء المؤذن وهو يمر بباب المسجد الصغير في طريقه إلى « درب القالة » الذي يؤوي منزله الصغير .

كان منذ هتف المؤذن في أذنه : الله أكبر ، وهو يفكر في هـــذا الوقت المتأخر الذي سَيُتاح له فيه منذ اليوم أن يسعى لغذائه ثم يعود سريعاً إلى العمل إلى أن تظلم السماء ..

– المعلم التدلاوي أكثر رحمة من المعلم عبد القادر .. كان

يؤذن لي بالغداء عند آذان الظهر .. يخشى الله أكثر من المعلم الجديد ، لذلك يسعى إلى صلاة الظهر فأسعى أنا إلى صلاتي ..

وابتسم وهو يفكر في « صلاتي » فقد كان وعيه يعني غذائي ..

ثم ابتسم وهو يثني على ديانة المعلم التدلاوي فقد خشي أن يكون قد بدأ يحن إلى عهد المعلم الذي كان يمكن أن يأكله لو أمسك بتلابيبه ساعة ارتطام زلافة الفول بالأرض العطشى.

وانقطع حبل تفكيره وهو يدخل المنزل الصغير في هالة من التطلع والفرحة : تطلع الأخوة الصغار الذين ودعوا أخاهم في صباحهم ذاك ليذهب إلى عمله الجديد في « دار الدبغ » ، وفرحة الأم التي وجدت ابنها أخيراً وقد غيبه العمل ، فلم يعد يضايقها حضوره وغيابه على السواء . كانت تضيق به وهي تتحرك في الغرفة بين نظراته الفضولية وأسئلته المحرجة ، وكانت تضيق به وهو غائب لا تدري أين كان غيابه . والآن وقد غيبه العمل فهي فرحة للقياه مغتبطة بهذا اللقاء ، يُفْعِم قلبها سرورٌ عميق بأنه تأخر في عمله .

– آ ليمة [1] .. كيف تجدينني ..؟

كذلك نادى أمه وهو يضخم صوته ويملأ شدقيه بحرفي

---

(١) كلمة تصغير وتحبب للأم .

« الميم » ، ثم وهو يزيح جلبابه عن ملابس غريبة : فقد ارتفع قميصه حتى بدت ركبتاه وانثنى القميص من وسطه على حبل سميك كان حزامه ، وتربعت بُقَعٌ بُنّيّة وصُفْرٌ في أطراف قميصه وأكمامه ، وبدت رجلاه ويداه في لون التراب .

رمى بجلبابه بعيداً ووقف ينظر إلى نفسه وكأنه بطلٌ قـدِم من معركة . ثم حاول أن يحطم الصمت وأن يفجر بسمة الإعجاب التي بدت على أمه وهي تستقبله فأعاد النداء :

- آلميمة كيف تجدينني ..؟

قالها وهو ينتظر أن تعبر عما في نفسها من إعجاب بنفسه :

- الله يرضى عنك يا بني .. الآن أصبحت رجلاً .

ونظر إلى عيون الأخوة الصغار فوجدهـا تتطلع - وهي تكتم ضحكة تكاد تنفجر - إلى قميصه المتسخ .

وانتقلت عيناه الفاحصتان إلى عيني أمه فوجدهـا تنظر إلى قدميه ويديه والبقع التي لوثت وجهه . وأضافت الأم في استرخاء :

- عليك الآن أن تذهب إلى سقاية المـاء لتزيل ما علق بأطرافك من ..

وقهقه في سخرية :

- الماء ..؟ أطرافي في شوق إلى المـاء .. منذ زمن

طويل لم تمس يداي الماء .. إنما كنت الآن أسبح .. أتعرفين السباحة ؟

ونظرت الأم في شبه استغراب لهـــذا الحديث المتهافت فأضاف قائلاً :

– دار الدبغ هذه أتعرفينها ؟

بدت الأم في إحراج من سؤال لم تكن تتوقعه ، وحاولت أن تغض الطرف عن السؤال المحرج فأردف علي :

– أتعرفين داخل هذه الدار ؟

وقهقه وهو يردد كلمة « الدار » . لم ينتظر أن تتكلم أمه فقد أدرك انها ستجيب :

– إنما أمر على بابها في طريقي إلى العمل .

وقال :

– بابها نَوّارة أمام داخلهـــا العجيب : غرف وبيوت ودهاليز ومطامير ودروب وزقاقات وحواري وشوارع . ولكن أعجب ما فيها انها مليئة بالصهاريج والسقايات ..

وانفتحت أعين الأطفـــال على كلمة الصهاريج والسقايات فأضاف علي يخاطبهم :

– نعم الصهاريج والسقايات .. «لا بيسينات» .. أتعرفون سقاية سيدي أحمد التيجاني وسقاية النجـــارين وسقاية سيدي أحمد الشاوي ..؟

فقال الجيلالي في براءة الأطفال :

– أي نعم تلك التي يشرب منها الحمير .. حمارك يشرب منها .. لقد ذهبت بي مرة إليها حينما كنت تركب الحمار ، وبالأمارة كنت راكباً معك ..

– انت دائماً لا تذكر إلا عهد الحمير .. ذاك عهد انتهى مع المعلم التدلاوي .

وسكت الجيلالي فقالت الأم :

– ولكن ماذا تصنعون في الصهاريج والسقاقي ؟

– عملنا كله في الصهاريج والسقايات .. أسمعت قط ان انساناً يعوم طول حياته ؟

وفغرت كنزة فاها . ولكن علياً استمر :

– ... هو ، المعلم عبد القادر وجميع المعلمين والمتعلمين في دار الدبغ .. في الصباح ينزلون جميعاً إلى الصهاريج ليعوموا مع الجلود حتى منتصف أفخاذهم (وأشار بيده وهو يشد طرف قميصه من تحت الحَبْل) وينزلون السقايات ليغسّلوا الجلود الجديدة مما بقي فيها من قاذورات ووساخة .

* * *

كان علي جديداً في الحرفة فلم يبهره منهـا غير السقايات وصهاريج الدباغة . وكان فخوراً بانه استطاع من أول يوم أن ينزل صهريجاً من هذه الصهاريج العديدة التي تمتلىء بهـا دار الدبغ . تعمد المعلم عبد القادر – وقد لحظ في وجه علي شيئاً من الأنفة وشيئاً من الصلابة والحدة – أن يكسر شوكته بان ينزله من أول يوم صهريج الدباغة ليغرقه في قـذارة الجلود المختلطة بروث الحمام ونقيع قشور الرمان و « تاكاوت[1] » والجير ، وليزكم أنفه بالبشكة [2] الكريهة حتى يتعودها من أول يوم . كان المعلم عبد القادر يقوم بهذا العمل بنفسه ليضمن دباغة جيدة للجلود التي يعالجها حتى يحتفظ بالسوق التي أخذ فيها شهرة طيبة ، ولكنه كان يكل الأمر لولده أو للمتعلمين كلما أنس منهم نشاطاً في العمل وذكاء في تفهم تعليماته . وقد أنس من علي هذه القدرة فدفع به إلى الصهريج من أول يوم حتى يحتفظ بالعمل أو يذهب إلى حال سبيله . ليس للمعلم حاجة بمتعلم لا يتحمل الغوص في روث الحمـام ونقيع قشور الرمان والبشكة وتاكاوت من أول يوم . ولكنه وجد في علي التلميذ الذكي المتحدي الذي يتحمل الغوص في الصهريج بحماس إذا عرف ان ذلك يجلب له رضى المعلم .

---

(١) مادة توضع مع الجلود للدبغ .

(٢) رائحة النخال المنقوع ويستعمل في الدباغة .

ومن أول يوم رأى علي المعلم «فضولاً» يلطم متعلماً بكف مكتنزة خشنة ، ثم يصفعه باليد الأخرى على قفاه لأنه كان أقل عُنفاً وهو يرفس الجلود برجليه المرهفتين المتخاذلتين . وأدرك أن الحظوة عند المعلم لا تأتي إلا عن طريق العنف مع هذهالجلود التي طالما ركبت ظهر حيونات أليفة وديعة مسالمة. وبدأ يرفُس برجلين فتل عضلاتهما حمل أكياس القمح والدقيق في مطحنة المعلم التدلاوي .

وتطايرت رشاشاتالدبغ على القميص الذي تعمدت فاطمة أن تلبسه إياه جديداً نظيفاً قبل أن يبدأ العمل .

وهتف به المعلم عبد القادر من بعيد :

– ارفع قميصك وسروالك إلى ما فوق ركبتيك .

ورفع قميصه وسرواله مستعيناً بالحزام الحبل ، وهو يحذر أن تزل قدماه فيتهاوى في صهريج القذارة والدبغ .

تذوق العمــــل الأول كتجربة لقوة احتماله . ولم يكن أشق الأعمال ، ولكنه كان أثقلها على النفس الجديدة . وكان على المعلم عبد القادر أن يجربه في عمل آخر ليس أقل من العمل الأول شقاء ومحنة فدفع به إلى سقاية ليعوم مع الجلود الجديدة يغسل قذارتها وينظفها لتكون صالحة للدباغة .

– اتركني أغرق جلودي في الماء ..

كذلك هتف علي بالمتعلم « حمدوش » وقد وصل إلى السقاية يجر جلد ثور ضخم .

نظر إليه « حمدوش » نظرة فيها كثير من الكبرياء وكثير من الاستصغار ، ثم اندفع بحماس يفرد جلوده على طول السقاية وعرضها ، ويعترض نبع الماء حتى لا يفكر علي في استغلاله .

اغتاظ علي من نظرة الاحتقار التي صفعه بها « حمدوش » وفكر أن يزيحه من السقاية ويحمله بين ذراعيه القويتين كما كان يحمل كيس الدقيق . ولكن رفساً قوياً برجلين عنيفتين على الجلود الغارقة في الماء دفع بعلي أن يفكر بعينيه في هذا الفتى الذي يتحداه في إصرار .

وتوقفت العينان الفاحصتان عند ذراعين انحسرت عنهما كما القميص . كانتا مفتولتين متحجرتين كأنما قدتا من صخر ، وكان زنداهما يتجمعان وينفردان بحركة تلقائية متحدية ذكّرت علياً بعضلات حماد المفتولة التي كان يهوي بها على كيس دقيق ، وبين إغماضة عين وانتباهتها يكون الكيس على ظهر الحمار .

ولا يدري علي كيف تذكر الحادثة التي حدثت بين حماد والمالقي المتعلم الذي كان يتحدى كل المتعلمين . ففي يوم ما التقى حمار حماد وحمار المالقي ، كان أولهما يحمل كيس دقيق وكان الثاني يحمل كيس قمح وكانا يسيران في اتجاهين متعارضين

في أحد الدروب الضيقة « بالسبع لويات » . طلب كل منهما من الآخر أن يتراجع ، وتحدى المالقي حماداً فاندفع إليه من تحت عدل حماره ورفعه بذراعيه القويتين حتى أهوى به إلى الأرض دامي الرأس مشدوخ الجبهة . وفر الحمار من المعركة ولم يعثر عليه المالقي بعد ذلك إلا على باب المطحنة بعد أن أعاد كيس القمح على ظهره إلى منزل سيدي الطاهر الصقلي في انتظار أن يأتي بالحمار مرة أخرى .

لم يقبل علي أن ينهزم أمام النظرات الساحقة التي قذفه بها حمدوش فأضاف :

– قلت لك افسح لي الطريق لأغرق أنا أيضاً جلودي في المـاء ..

لم يلتفت حمدوش هذه المرة وإنما انطلق من بين أسنانه صوت أخنف متمال يضخم الحروف ويحاول أن يعطي لطريقة النطق أكثر من مدلول الكلمة :

– اسكت أنت أيها الطفل وإلا وضعت عنقك بين قدميّ هاتين ..

وأدرك علي انه في غير ميدانه فابتعد وهو يحدث نفسه :

– هؤلاء القوم .. لا ينقصهم غير الخصومة والصراع ..!!

عاد أدراجه إلى المعلم عبد القادر يشكو له انشغال السقاية بمتعلم آخر .

– اذهب واحمل الجير إلى الجيار[1] الأول والخامس والثامن ..

كذلك أجابه المعلم عبد القادر دون أن يلتفت إلى شكواه .

وكان عليه أن يعرف الثامن من الخامس من الأول . وهو لا يجرأ على أن يستفسر المعلم عبد القادر عن هذه الأرقام التي لم يعرف لها مثيلاً في مطحنة المعلم التدلاوي . فلم يكن بها غير آلة واحدة هي المطحنة . وقد كان من السهل عليه أن يميز بين المناخل والغرابيل ، ولكن كيف يستطيع أن يميز بين مغاطس لا أرقام لها ولا علامات تميز .

ملأ قفة الجير الأبيض ، لم يكن بها ثقل، ولكن رائحته القوية وذراته المتطايرة كتمت أنفاسه . أين منها رائحة الدقيق الزكية ؟ كانت منعشة بمقدار ما تثيره رائحة الجير وتشد أنفاسه .

– لا سامحك الله آ المعلم التدلاوي .

كذلك تحدث إلى نفسه ، وهو يملأ القفة العاشرة ليضعها في الجيار الثامن .

---

(١) الصهريج الذي يوضع فيه الجير وتنقع فيه الجلود .

أحس بأنه بذل مجهوداً أكثر مما ينبغي ، وتمنى أن يأمره المعلم بالاستراحة قليلاً :

ـ كان الحمـــار على الأقل متنفسي أهرب إليه كلما دارت رأسي من هدير الرحى . أركبه وأقطع شوارع فاس وزقاقاتها متفسحاً أغني وأشدو ، آمُر المارّين أن يفسحوا لي الطريق .

واستله من تفكيره المعلم عبد القادر وقد كان يرقب العمل بعين لا تنام :

ـ أطفىء الجير ..

أطفىء الجير ..؟ واستعاد في فكره معاني كلمة الاطفاء .

أطفىء النور ، أطفىء الشمعة ، أطفى الفحم .. فلم يهتد إلى شيء . لم يجسر على أن يسأل المعلم . وفكر في أن يسأل شخصاً آخر عله يرشده إلى ما غمض عليه من كلمات المعلم .

فكر في حمدوش ، ولكنه تذكر النظرات الشذراء النابضة بالإحتقـــار . وفكر في محمد ، ولكنه تذكر المعلم فضولاً يصفعه على خده وقفاه فكيف يجد الهدايةعند مصفوع؟ وأنقذته العنـــاية الإلهية بشاب نزل مجياراً قريباً من المجيار الثامن ..

اهتز الشاب بالضحك وهو يستمع إلى علي يستفسره عن كيفية إطفاء الجير فقال في سخرية :

– انفخ عليه لتخمد ناره ، أو اكتم أنفاسه بكيس ليخبو أوَارُه ..

وكانت الصفعة قوية ، فقد تذكر كيف كان يسخر منه المعلم التدلاوي في بداية عمله بالمطحنة عندما يهتف به أن يأتيه بالمنخل فيأتيه بالغربال .

وفكر : أفر من هذه الدار ..؟ عيونهم كالحة ولسانهم قارس.. ومع ذلك فالمعلمين يرتاحون لبعضهم ويستقبل بعضهم بعضاً بالترحاب والكلمة الطيبة .. متى .. متى أكون معلماً ..؟ نحن الصغار مجال التجربة للاحتقار والإهانة .. متى أكون معلماً ..؟ سأذيقهم المُرّ مِن لساني .. من كفي .. بل من قدمي هاتين .

تذرع بكل شجاعته وذهب عند المعلم عبد القادر يسأله :

– آلمعلم .. كيف أعمل لأطفىء الجير ..؟

وضحك المعلم عبدالقادر فارتجت أعصاب علي وهو يذكر ضحكة الشاب الذي سخر منه،وسرعان ما اختفت الضحكة المدوية لتحل محلها ابتسامة محبّبة :

– الله يرضى عنك يا ولدي .. إذا لم تعرف شيئاً فاسأل عنه .. أنت متعلم .. وخير لك أن تسأل من أن ترتكب الأغلاط .

سُرّي عن علي واستعاد الثقة بنفسه وبالعمل الذي يقوم به وأسرع يحمل صطلاً إلى سقاية الماء ليطفىء الجير ويتلذذ بغليانه تحت الماء البارد متحملاً فورانه وقوة رائحته دون أن يضع كمه على أنفه حتى يتحدى الشاب الذي سخر منه .

* * *

– حوف[1] العصر يجدك هنا..أسمعت ..؟ هكذا قال لي المعلم وهو يأذن لي بالذهاب إلى الغداء ..

– كيف نصنع يا بني والعصر قد مضى ..؟ أنطير ؟..

– طير أو انزل .. كلمة المعلم لا ترد .

دار هذا الحديث بين علي وفاطمة وهو يستعجلها بالغداء ، وقالت وهي تسرع بتحضير المائدة وتأمر كنزة أن تنفخ على النار بالكير :

– انتظرناك ساعات ولا تمهلنا دقائق .

اصطنع علي الغضب وهو يجيب :

– العمل .. الخدمة .. الوقت غير موجود .. أتظنين أني الآن في رحى المعلم التدلاوي ؟

ابتهجت فاطمة من أعماقها ، وضاعفت من نشاطها فاختطفت كسرة خبز يلوكها قبل أن يسخن الأكل .

---

(١) الآذان الثاني للعصر .

وجلست الأم وحولها الأطفال يغري فضولهم الشَّرَهُ الذي يأكل به علي . وحاولت فاطمة أن تحطم الصمت وقد أثارها قميص علي المتسخ :

– لكن يا علي المعلم يريدك أن تأتي في الوقت ويريدك نظيفاً كذلك .

– نظيف ..؟ مالي الآن ؟ ألست نظيفاً ..؟

ولمح ابتسامة مرعوبة في عيني كنزة فقال ضاحكاً وفتات الخبز يتطاير من فمه :

– اسمها دار الدبغ .. والدبغ معناه الوساخة والرائحة الكريهة . عندهم الجير .. وعندهم قشور الرمان .. وعندهم الشكو ، أو لا أدري والله ما هو .. وعندهم أ .. أ .. أشياء كثيرة لم أعرفها بعد ولكن كلها .. الله لا يُشَمْمكم .. رائحة مثل العطر .. وألوان تلمع مثل الفجر ..

– لا يضر يا ولدي فالمهم هو العمل .

– لله الحمد آ ميمة ..

قالها وهو يمسح يديه في ساقيه مثيراً فضول الأم والأطفال، ولم يلبث أن أجاب على هذا الفضول :

– لا تخشوا شيئاً .. ساقاي هاتان ستغوصان عما قريب في القصرية والصهريج والجيار والسقاية .. أتعرفون السلق ؟ ستسلق ساقاي ورجلاي ويداي أكثر مما يصنع أي صابون .

وانطلق علي لا يلوي على شيء فقد سمع المؤذن يهتف :
الله أكبر .. الله أكبر ..

وجلست الأم مع الأطفال تنهي غذاءها بقلب يغمره سرور عميق ، فدار الدبغ أحسن من باب الحمراء على كل حـــال .. وتجاوب شعورها مع الآذان الذي كان ينفذ إلى أعماق الحجرة المعتمة ، وانطلق لسانها شاكراً يهتف مع المؤذن :

ـ لا إله إلا الله .

- ١٠

وقف علي فوق سطح دار الدبغ تحت شمس صيف فاس المحرقـــة ينشر الجلود على بلاط السطح . كوى قدميه لفح الشمس بناره فلم يسعه أن يضع قدميه على الأرض . العاملون في هذه الدار لا يعرفون الأحذية فهم ينزعون أحذيتهم مع ملابس الشارع والمنزل . وثياب العمل لا حذاء فيها. يغوصون حتى ركبهم في الصهريج والجيار والقصرية والسقاية ويسيرون في برك من الوحل اختلط فيه الطين بالجير والنخالة وتا كاوت.

يحملون جلوداً تقطر دماً أو ماء أو دباغة سائلة ، فهم مع هذا في غير حاجة إلى بلغة أو حذاء أو قبقاب يعوق الأقدام عن الحركة السريعة ، ولكنهم حينما يصعدون بجلودهم للسطح حيث الشمس المحرقـة تلفح الأرض بنارها يكون من الطبيعي أن يتقوا حرارة الأرض المحرقة ببلغة أو حذاء أو قبقاب .

– يكون من الطبيعي..؟ وهل في هذه الدار شيء طبيعي حتى يسمح السادة المعلمون هنا للمتعلمين أن يلبسوا نعالهم اتقاء للفح هذا الهجير ..؟

كذلك فكر علي وهو يرفع قدماً وينزل أخرى اتقـاء لحرارة الأرض .

– نحن هنـا « جزارون ونتعشى بالفرت[1] » ، نصنع الجلود الطيبة ليستغلها الأغنيـاء .. أما نحن فنسير حفاة .. نغوص في الوحل والدبغ حتى الركب ونشوي أقدامنـا على لفح الشمس المحرقة ..

وضحك طويلاً وقد توقف تفكيره في منعرج ، فقد عاد بذاكرته إلى المطحنة ليجد نفسه في مثل موقفه ذاك . كان يحمل القمح وينخل أجمل دقيق وأصفى سميد ، وأمه تقدم له في آخر النهار خبز شعير . وربما كانت أمه تغسل أجمل الثياب

---

(١) مثل مغربي يقول : جزار ويتعشى بالفرت، والفرت بقايا الامعاء وكرش الحيوان ويعني ذلك يطعم غيره أفضل لحم ويأكل هو البقايا .

وأروع الملابس ، ولكنها تلبس بقايا ما يباع في« المركطان »
واستمر يبتسم وهو يربت على قدميه ويهمس إليها في سخرية:

– لا تغضبا .. غداً أصبح معلماً وأنعلكما أجمل بلغة في السوق ، وسأقف في مكاني هنا على رأس متعلم آخر – مسكين ..! – أصدر إليه الأوامر .. أمنعه أن يرفع رجلاً ويحط أخرى ... العمل ... الشغل شغل ، واللعب لعب ...

قال جملته الأخيرة وهو يقلد لهجة المعلم عبد القادر حينما يرفع عقيرته بالصياح وهو يحث المتعلمين على العمل بصوته المنتفخ .

وقاطعه صوت جهوري صادر عن المعلم نفسه فقد استبطأ بعد أن تغيب طويلاً في نشر الجلود .

– آلمعلم .. نعم .. لحظات وأنتهي ..

ضاع صوته الرقيق في الآفاق .. ذراه اللغط الذي يدوي في الدار التي أصبحت كخلية نحل فلم يسمعه المعلم أو لعله لم يقتنع بما سمع . ولذلك اشتد صياحه بالنداء ، فترك العمل ليطل على المعلم حتى يخاطبه وهو يراه رأي العين . ووقف على حافة السطح يصطنع الخوف ويجيب المعلم الذي وقف أمام الجاير يرفع رأسه إلى السماء ويتقي أشعة الشمس بكفه

اليسرى ويمسك عمامته أن تقع أرضاً بكفه اليمنى ويعلن غضبته في حركات عنيفة من رأسه .

– المعلم حالاً .. سأجيء .. والله ما كنت ألعب ..

– تحلف بالله آلمشمع[1] أسرع ، الله يقلل حياءك .

وخفض المعلم رأسه سريعاً في حياء وهو يقول : الله يلعن الشيطان .. فقد انتبه إلى أن علياً كان واقفاً على حافة السطح يحدثه ، ولم يكن يلبس سروالاً ..

كان العمل في السطح أقل قسوة من العمل في الدار . يتخلص فيه المتعلمون من برك الماء ومغاطس الجير والنخالة والدبغ ، ويتخلصون في كثير من الأحيان من النظرات الشزراء التي يلهبهم بها المعلمون ومن الصيحات المنذرة التي تصدر عن الصانعين[2] ، وكان السطح مهرباً إلى الهواء الطلق من هذه الرائحة الكريهة التي تحاصر الدار والعاملين في الدار حتى تكاد تخنق أنفاسهم .

كان مهرب علي من دوي المطحنة وذرات الدقيق التي تغمر جوها إلى الشارع مع صديقه الحمار لينقل قمحاً إلى المطحنة

(١) المشمع كناية عن المغضوب عليه من السماء لأنه يقسم حانثاً وتطلق أحياناً ويراد بها الجاهل أو البليد .

(٢) الصانع يعني المساعد فهو أقل درجة من المعلم وأكثر من المتعلم .

أو دقيقاً إلى منزل . ولكنه في دار الدبغ لا مفر له من العمل المرهق إلا سطح الدار حيث ينعم بالحرية ويتحرك دون أوامر ، ويطلق لسانه أحياناً بالغناء دون أن يتردد في آذان المعلم صدى صوته العذب فيهتف به :

– اسكت الله يقلل حياك .

وكان ينطلق بالتفكير في حرية مطلقة لا تحده الأصوات المزعجة : ارفع الجلد الله يـ .. ارفس النخـــالة الله يقطع رجليك .. اطفىء الجير الله يطفي عمرك .. زد قشر الرمان آولد لـ ..

كان يفكر في حرية من هذه المتابعة المزعجة فيتنقل فكره بين ملعب باب الحمراء وسهل وادي فاس :

– الله يرحم أيام الحرية.. كنت في مثل هذا الوقت أسبح في متاهات وادي فاس على دراجتي الصغيرة .. عبيط ذلك السيكليست [1] أكتريها منه لربع ساعة وأسبح بها ساعتين .. هذا الهجير لم يكن يرحمني منه إلا المنطلقات الشاسعة في وادي فاس الفسيح ..

ويرده إلى واقعه المتعلم التهامي يصعد بجلوده إلى السطح وهو يغني .. يهتف به محذراً :

---

(١) مصلح الدراجات ريؤجر القديمة منها عادة للأطفال والفتيان .

– آعلي .. إياك أن تجتاز حدودك .. والله لو وجدت جلدة في أرضي لأضع مكانها جلدك ..

ويضحك علي ملء فيه وهو يجيب ساخراً :

– سمعاً وطاعة آلمعلم التهامي ..! « بربش[1] » ..! إذا كنت صلباً اقترب من جلودي لترى جسمك في الجيـــار على رأسك دون أن تنزل درجاً .

ويخاف التهامي من تهديد علي فيضحك في تودد قائلاً :

– انني أمزح معك .. السطح كله لك آلمعلم علي ..

ويخوضان في حديث ودي ضحاياه عادة المعلم عبد القادر والمعلم فضول .

ويخلو الجو لعلي فيسبح في تفكير :

– ترى أين وصلت فرقة باب فتوح ..؟ لا بد انها تغلبت على فرقة باب المحروق – فاتح ذاك الجني الأسود .. الكرة في رجله لا تكاد تراها العين .. آه الإصابة التي سجلهـــا يوم الجمعة كانت قنبلة دخلـت بالحـارس نفسه داخل الشبكـة . ونسي عمله وتخيل الكرة بين رجليه يداعبها ويراوغ خصمه ثم قذف برجله الى أعلى كأنما ليسجل هدفاً مؤكداً .

---

(١) كلمة تحدي .

فجأة بدا المعلم عبد القادر على باب السطح ورجل المتعلم علي مسددة إلى أعلى كأنما تحاول أن تلاحق السماء .. كان المنظر فاضحاً .. فقد اصطدم المعلم عبد القادر مرة أخرى بما أخجل حياءه فارتد خطوة إلىالوراء وهو يضع يده على عينيه ليتقي أذى الفضيحة :

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. الله يلعن الشيطان .. الله يقلل حياءك آولدي .. مــا هذه الفضيحة ..؟ هذا هو الشغل ..؟

أبلس علي وتجمد في مكانه كأنمـــا دقت قدماه بمسار . ولم يستطع أن يرفع قدماً ويحط أخرى كما كان يفعل اتقـــاء لحرارة الأرض . حدق بعينين جامدتين في المعلم وهــو يرقب يده القوية تتحرك بعنف في اتجاه خده المترقب في استسلام ، وفكر بسرعة في حارس المرمى الذي يتلقى الكرة بعنف فقرر ألا يكون حارس المرمى هذه المرة.. وما كادت الكف القوية المتحركة في عنف تقترب من خده حتى راوغت الرأس النزقة ، وأفلتت الإصابة من المعلم عبد القادر .

كاد علي ينفجر ضحكاً لولا أن الموقف لم يكن يحتمل الضحك ..

فقد لفت الصفعة القوية المعلم عبد القادر على نفسه وصوتت يده في الهواء كما لو كانت سوطاً يقرقع وأحس علي بأن

الغضب سينفجر فابتعد قليلاً عن متناول المعلم ، ثم أكب على الجلود ينشرها واحتمل رفسة من قدم المعلم آملاً أن تطفىء نار الغضب المتأججة .

– آلشيطان آملعون .. ألا تعرف ان الجلد إذا يبس وهو متغضن كوجهك يصعب تلحيمه وقرمدته[1] ..؟

– آسيدي المعلم أنا أجهد نفسي في تدليكه وتسريحه .

أخذ علي يظهر مهارة في تدليك الجلد وحيوية في العمل ، فأطفأ بذلك غضب المعلم. عرف منذ اليوم الأول كيف يترضى المعلم عبد القادر فقد قدم دار الدبغ وفي ذهنه صورة واضحة عن المعلم التدلاوي . وفكر منذ أول يوم :

– كلهم معلمون : التدلاوي ، عبد القـــادر ، فضول ، عبد الغفار ، الرحوي ، الدباغ ، الزلايجي ، الصواف ، كلهم يعيشون على أعصابهم ،حينما يقبضون تغيبهم منازلهم ، ولا نراهم نحن المتعلمين إلا وهم على خوف من إفلاس بضاعتهم ، الله يرحم أبي – فيما تحكي أمي – كان يقول لهـــا : ان الله مع الصابرين .

من هـــذا المنطق كان ينطلق إذا وجد ان الموقف بدأ يتحرج مع المعلم عبد القادر أو مع المساعد «الصانع» التباع .

---

(١) تدليكه وإزالة الزوائد منه .

وانتبه على أصوات حادة ترتفع إلى عنـان السماء مختلطة لا تكاد تبين . كان ينشر آخر قطعة من الجلد فانصرفت أذناه إلى الضجة المنطلقة من فسحة الدار ، وأسرعت يداه تنشر الجلدة الباقية ولكنه لم ينتظر يديه أن تنتهيا من العمل ، وإنما أسرع يطل من جديد وهو حذر أن تلمحه عينا المعلم عبدالقادر أو أن تفطن إلى إطلالته حواس الصانع التباع .

أدرك أن الضجة إنما هي صراع آخر من هذه الصراعات التي تقوم بين الدباغين وزبائنهم من الخرازين أو البسطاميين[١] على نوعية الجلد وسلامة دباغته إذا تبين أن فيه خللاً . وقـد ألفت (دار الدبغ شوارة) أن تستقبل المتخاصمين من (دار الدبغ سيدي موسى) ففي شوارة يعمل أمين الدباغين وقد انتخب – كما ينتخب أمين الخرازين وأمين الرحويين وأمين الجزارين – ليفصل في النزاعات التي تقوم بين رجال الصناعة أو بينهم وبين زبنائهم من الذين يستخدمون الجلد في الصناعات اليدوية .

وكان المعلم فضول أمين الحرفة في الفترة التي قدم فيها على دار الدبغ ، وكان يلحظ هذه الحفاوة البالغة التي يعامله بها

---

(٢) الخراز من الخرازة صانع الأحذية « والبلغ » . البسطامي وينطق « البزاطمي » صانع محافظ النقود وحشيات الجلوس من الجلد وكل الصناعات الجلدية التقليدية . ومحفظة النقود تسمى « البزطام » .

المعلمون والصناع ، ويلحظ هذا التمييز الواضح الذي كان يظهر به المعلم فضول سواء في ملبسه أو في عمله ، فقد كان يلبس ملابس فاخرة لا تتفق في شيء مع الملابس التي يظهر بها المعلمون الآخرون ، وقد تخلى منذ أن تولى أمانة الحرفة عن « قشابة » الصوف في الشتاء و « ومحصور المرزاية » في الصيف وأخذ يلبس البدعية المطرزة بالضفائر الحريرية في الصيف وقفطان الملف في الشتاء وعليهما صيفاً وشتاء «فرجية» الحياتي الشفافة المطرزة بضفائر الحرير البيضاء ، وعلى الرأس تقبع العمامة المنضدة المعصوبة على طربوش أحمر في الشتاء خفيف أبيض في الصيف . ولم يكن يتخلى عن جلبابه إلا عندما تشتد حرارة القيظ . وكان يحرص أشد الحرص على أن يلبس في صباح الجمعة جلباباً أبيض من صوف وزاني أو ملف في الشتاء ومن البزيوي الرقيق أو الجربي في الصيف . ولم تكن بلغته من هذا النوع الضخم الخشن الذي يحتمل الغوص في برك الوحل والذي ينتعله المعلمون قبل أن يخلعوا نعالهم وجلابيبهم ليلبسوا ثياب العمل ، وإنما كان يأتي إلى دار الدبغ بحذاء جميلة رقيقة من هذه النعال التي يلبسها المترفون في المدينة قبل أن تغمرها أنهار المطر ويهاجمها الوحل من كل جانب .

سمع علي اشاعات ترددها جوانب الدار تزعم ان المعلم فضول يعتزم الذهاب إلى الديار المقدسة ليصبح الحاج فضول

أمين الدباغين ، وكان يؤكد الاشاعة ان الأمناء السابقين كانوا جميعـاً حجاجاً ، ولا يصح أن يدعى الأمين بالمعلم فضول ، فكلمة الحاج من الألقاب التي لا بد منها لشخصية تتولى أمانة حرفة من الحرف ، وترددت اشاعات بأن الأمين سيشتري بغلة يركبها في غدوه ورواحه . ولكن هذه الاشاعة اختفت حينما أصبح من المؤكد انه سيذهب في عام قادم إلى الديار المقدسة ، فالحج آكد من بغلة يركبها وهو ما يزال قادراً على أن يقطع الطريق من سيدي أحمد الشاوي إلى دار الدبغ أربع مرات في اليوم .

ولم يكن وهو الأمين ينزل إلى الجيار أو الصهريج ، وإنما كان يستخدم عدداً من الصناع ينوبون عنه في مباشرة العمل ، ويكتفي بأن يطل عليهم من شرفة الغرفة التي يتخذ منهـا شبه مكتب له ليصدر لهم الأوامر والتعليمات ويراقب سير العمل ..

تجمع المعلمون والصناع وبعض المتعلمين — الذين تبلغ بهم الجرأة أن يتحدوا غضب معلميهم — حول الضجة التي كانت تنطلق من حنجرتين قويتين : حنجرة خراز وحنجرة دباغ ، من دار الدبغ سيدي موسى .

وتوقف العمل في الدار فقد أصبح كل العاملين فيها قضاة ومحلفين يحاولون أن يتبينوا عناصر المشكلة من خلال الضجة

التي أحدثها موكب المتخاصمين . وبدأ النقاش بين المعلمين وبين الصناع يحتد باحثين عن الظالم من المظلوم ، وتبين علي وهو يشرف على الضجة من سطح الدار صوتاً يرتفع :

– والله لن أترك لك من حسابك ركمة [1] ..

وصوتاً يعلن :

– والله لأعلمنك كيف يكون الغش .

– سترى من الغشاش منا ..

– سيقطع الخزن يديك عن العمل في الدباغة حتى لا تبيع مرة أخرى بطانة [2] مثل التي بعتها لي !

– بضاعتي أرفع من مستوى عملك .

– صناعتي تفقأ عيونك ..

هكذا أجاب الخراز وهو يحرك اصبعين من أصابعه بعنف كأنما يريد أن يفقأ عيني خدمه .

وأطل الأمين فضول على الضجة من غرفة مكتبه كأنما كان على موعد مع مرافعة جديدة ،وكان علي يشهد التمثيلية كلها وهو يشرف على المسرح من شرفة مرتفعة « لوج » يرى منها

---

(١) تعبير مغربي يعني : لن أتساهل معك في شيء .
(٢) جلد الخروف .

المتخاصمين وكل منهما يهـــدد الآخر ، يسيران في موكب من الأتباع لكل منهما أنصاره وشهوده ، ويرى منها القاضي واقفاً في انتظار وصول الخصوم إلى مكتبه وهو يرفع كفين مقلوبتين مسبحاً محوقلاً ، ويرى منها المشاهدين والمتفرجين وكل منهم يناصر خصماً أو يدافع عن عمل ، ويرى صناع المعلم فضول وقد تركوا الجايير والمغاطس ليقفوا بجانب «المحكمة» يدفعون عنهـــا الفضوليين الذين جلبتهم الضجة من بعيد ، وليكونوا في عونها وهي تحقق مع الخصمين وتستنطق الشهود .

– مرحباً آلمعلم التهامي ، مرحباً آلمعلم الرمان .

هكذا استقبل المعلم فضول الخصمين بابتسامته الهـادئة العذبة وهو يحاول أن يطفىء غضب المعركة ، ولكن صوتهما ازداد ارتفاعاً وهما يتحدثان معاً ، كما لو كانت الآذان ستعي ما يقولان .

وأصـــدر المعلم فضول الأمر إلى صنـاعه أن يفرقوا « الجوقة [1] » واستدعى الخصمين إلى مكتبه منفردين، وأقفل الباب ، فلم يعد أحد يرى ولم يعد يسمع غير ضجة من بعيد تهدأ رويداً رويداً وتختفي معالم الحدة فيها حتى ليخيل للآذان

---

(١) كلمة عربية مغربية مأخوذة من جوقة الطرب ويراد منهـــا تجمع الجماهير حول ضجة أو خصومة .

التي ما تزال بها بعض من فضول ان الخصومة انتهت إلى صلح، ثم يند صوتان متنافران من خلف البـــاب الخشبية المهترئة المشققة يعلو بالصياح ، ويعودان سريعاً إلى همس لا تشي به الغرفة الصغيرة ..

كانت محاكمة سريعة عالجها أمين الدباغين بالحكمة التي عرفت عنه وبالهدوء الذي امتازت به أيام أمانته ، فقد كان سلفه يدخل مع المتخاصمين في صراع ينتهي إلى أن يكون هو طرفاً في الموضوع ، ويخرج الخصوم من محكمته إلى « دار الباشا[1] » بعد أن يكون قد عجز عن فصل الخصومة .

واستفاد المعلم فضول من أخطاء سلفه فأخذ يعالج المشاكل بهدوء أعصاب وبحكمة وروية فيخرج الخصمان راضيين بحكم وسط لا يدين أحدهما ، ولو ان كلاً منهما يذهب وهو يعتقد ان الحكم كان لصالحه .

وخرج المعلم التهامي الخراز والمعلم الرمـــان الدباغ وعلى وجهيهما أمارات الجد والصرامة يحاول كل منهما أن يظهر لجوقة المتفرجين وللصناع والمتعلمين من الدباغين والخرازين انه انتصر على خصمه ، ولكن كلا منهما كان يحمد في سره حكمة الأمين التي أنهت خلافاً كان كل منهما فيه ظالماً .

---

(١) المحكمة .

خرجا يسيران جنباً إلى جنب تشيعهما نظرات مستفهمة من عيون كانت تتطلع في فضول لتعرف ما وراء المحاكمة السرية التي شاهدتها الغرفة الصغيرة . وعلى شرفة الدور الثاني كانت تودعهما ابتسامة ساحرة تعرب عن نصر محقق هي ابتسامة الأمين المعلم فضول .

-١١-

بدأت الصمايم[1] تودع مدينة فاس بعد أن لفحتها بلَظَى جحيمها . وأخذت هَبَّات من نسيم الخريف – رغم ضغطه وغبش أنواره – تنعش النفوس التي كانت تتلمَّس نسمة هواء فلا تجد غير زفير يكبت الأمل ويشعر سكان المدينة بالمثل مما يقرأون ويسمعون عن جهنم التي أعدت لغير المتقين .

أخذ همس يسري في مدينة الدباغة :

فصل صيفي تشتد فيه الحرارة ويدوم أربعين يوماً .

– الخميس الثالث .

– لا .. الخميس الرابع ..

– لا .. لا .. قبل ذلك ، الخميس الثاني ..

– كلهم مخطئون لم يتفق بعد أمنـــاء الحرف على تقسيم الأسابيع بينها ..

– أنت لا تعرف .. هل يرتفع صوت أمين أمـــام أمين الدباغين : المعلم فضول ؟

– وأنت أيضاً مخطىء ، يوم الدباغين معروف منذ كانت بفاس دار الدبغ. الأمناء يجتمعون فقط لمباركة البرنامج وقراءة الفاتحة ..

كان الهمس يسري بين المتعلمين وقد ضمهم سطح الدار . وكانوا جميعاً يتوقون إلى اليوم الموعود الذي ينعمون فيه بحرية كاملة يحطمون فيه النفوذ الذي يفرضه عليهم المعلمون والصانعون طوال سنة كاملة ، هو يومهم ولو ان المعلمين يقومون بتبعاته عن طواعية ، يؤدون فيه ضريبة سنة كاملة لـ « مول البلاد » صاحب السطوة والجاه : مولاي إدريس .

موسم مولاي ادريس في فاس مناسبة يقدم فيهـا السكان – مُمَثّلين في قوتها الاقتصادية – الوفاء والطاعة والإخلاص والإعتراف بالجميل . وهو موسم ينتظره أولاد مولاي ادريس

بفارغ الصبر ، إذ هو الذي يجمع بينهم مرة أخرى وبين سكان المدينة حول « الربيعة[1] » وحول « باب المجادليين[2] » .

وينتظره سكان المدينة جميعاً بفارغ الصبر فهو الذي يتيح لهم الفرصة ، وقلما تتاح لهم فرص من نوع هـــذا الموسم ، ليخرجوا جميعاً – حتى النساء منهم – وليتجمعوا في الشوارع متظاهرين هاتفين مطبلين مزمرين لاهين في مدينة يطبعهـــا طابع الجد سنة كاملة .

وكان الموسم احتفاء بسنة جديدة مقبلة بعد أن يدفن الصيف تحت حر لفيحه السنة الماضية ، احتفاء رجاء وأمل وتقرب أن تروي السماء الأرض العطشى ، وأن تهطل الأمطار بغزارة على الطاقة التي تحرك دولاب العمل في المدينة . وكان هذا الدولاب ممثلاً في الخرازين والدباغين والدرازين وأصحاب الحرف جميعـــاً ، فهم أول من يحس ببركة مولاي إدريس يوم تهطل الأمطـــار غزيرة على مصدر قوتهم ومورد عيشهم : الأرض . هم يشقون تحت أمطـــار فاس الكسلى تنزل ببطء ولكن بإصرار وطول نَفَس ، فتعطل الحركة وتوقف النشاط ويكسد الإنتاج ويقل العمل ، ولكنهم يرجونهـــا لغدهم يوم تزهر الأرض وتعلو سنابلها ثم تتحول السنابل إلى دراهم تجري

---

(١) صندوق النذر .

(٢) أحد أبواب ضريح إدريس الثاني في فاس .

في قنوات معروفة من الحقول والقرى إلى المدينــة التي تعرف كيف تمتصها فتقدم بدلها كلما تحتاج إليه من يد صناع وموهبة فذة وعمل متواصل .

لذلك كان الصُّنَّاع والحِرَفيون أول من يحتفـــل بموسم مولاي ادريس وهم يقدمون لصانع المدينة وبانيهـــا – مع إخلاصهم ووفائهم واعترافهم بالجميل – ضريبة سنوية من حُرّ مالِهم . يقدمونهـا مـالاً وشموعاً ، ويقدمونهـا ذبائح وقرابين تسيل دماؤهـــا على أعتاب الضريح المقدس . وكان الدباغون في مقدمة رجال الصناعة الذين يحتفلون بالموسم العظيم ، ولذلك كان الحرفيون من درازين وصفارين وخرازين يتنازلون لهم عن اليوم الكبير ، يوم الموسم ، ليكونوا في مقدمة الركب الذي يحج إلى الضريح في مظـاهرة رائعة يحملون معهم الهدايا والشموع ويجرون الذبائح من قرونها في أهم شوارع المدينـــة التي تربط بين « دار الدبغ شواره » وباب الجادليين : أحد أبواب ضريح « مول القبة الخضراء » مولاي إدريس الأزهر .

وتحول همس المتعلمين أخيراً إلى حديث جَهْري بين الصناع ثم بين المعلمين عن اليوم الموعود ، ولم يكن لأي منهم أن يقرر أو يقترح ، وإنما انتظروا حتى قطع الهمس صوت «البَرّاح[1]»

---

(١) النادي أو المعلن .

يتجول في المدينة وهو يعلن :

– آصحابنا صلوا على النبي تربحوا ، موسم مول البـــلاد مولاي إدريس الأزهر يوم الخميس بعد القادم .

ولم يكن البراح الذي يعلن عن موعد الموسم من هؤلاء البراحين الذين تعرفهم المدينة من موسم لآخر ، لا ، ولم يكن مثل « خاي مَحمد » الذي يمر « بقيصرية التجارة » وشوارع المترفين يعلن في لهجة رتيبة طريفة تثير المداعبة : « آصحابنا اليوم ولا بعد اليوم ، اليوم في طياطرو « طريانة تشوفوا في السينما العريبي وبثينة في شريط لم تشهدوا مثله » ، يعلن ذلك وهو يوزع أوراق الاعلان عن أفلام الفروسية والكاوبوي والأفلام البوليسية ، ويشد من أنفاس عقب دخينته دون أن يتستر بذلك كما كان يفعل معظم المدخنين.لم يكن براح موسم مولاي ادريس يعلن عن اليوم الموعود في استهتار «خاي محمد» ولا هو يجد من سكان المدينة المداعبة والسخرية التي كان يجدها « خاي محمد » كما هتف بصوته الحاد : أصحابنا اليوم ولا بعد اليوم .. وإنمـــا كان رجلاً مهيب الطلعة ذا لحية كثة وخطها الشيب وعينين نافذتين جللهما الكحل بسواده ، يضع على رأسه عمامة مُكَـوَّرة خضراء شعار صاحب القبة الخضراء ، وعلى عنقه مسبحة طويلة ضخمة الحبات ، يتكىء على عصا قوية يقف معها وهو يضرب الأرض بها ضربة قوية كلما توقف ليردد إعلانه . وكان جلال الموقف لذي يصطنعه يدفع بسكان

المدينة أن يقفوا منصتين في شبه وعي الى الكلمات التي ينطق بهـا ليتأكدوا من يوم الموسم الصغير والموسم الكبير ، وبينهما أسبوع كما لا يحتاج البراح أن ينبه .

كان البراح من خُدّام مولاي ادريس تعرفه المدينة مرة في العام حينما يعلن عن الموسم،فهو من المرابطين داخل الضريح يعيش مُجَاوِراً في رحابه كما يعيش الكثيرون ينظفون ويؤذنون و « يزورون » الذين يحتاجون إلى مساعدتهم عند زيارتهم لقبر الولي الصالح وخاصة الغرباء عن المدينة ، ويقفون مع النساء اللائي لا تمكنهن وضعيتهن أن يدخلن للقبة الخضراء ، فهم يتناولون منهن المنديل أو « المحرمـــة » أو « المنصورية » ليضعوها فوق القبة أو تحت الكسوة ويرشونها بمـــاء الخصة (النافورة) لتقتبس البركة ، ثم يعيدونها إلى صاحبتها ليقضي الله غرضها فتلد أو يحبها زوجها أو يعمي الله عينيه عن طريق الأخرى ... ويتناولون مع هذه العملية « البركة » توضع في « ربيعة » مولاي ادريس أو شمعة تشتعل في رحاب ضريحه .

والبراح حينما ينادي يعرفه الكثيرون فيقدرونه ويكبرون العمل العظيم الذي يقوم بـــه ولذلك لا يجرؤ أحد على أن يستعيد كلماته ، وإلا رَمَقَه بنظرة حادة من عينيه المكحلتين تجعله يقف محرجاً – وربما خائفاً – يترقب النداء التالي الذي يصدر من الشيخ البراح ٠

واقترب يوم الموسم فأخذت دار الدبغ شِبْهَ رخصة عن العمل . لم يعد المعلمون ولا الصناع يراقبون المتعلمين ، فهم في اجتماعات متوالية ينظمون المهرجان الذي سيسير من دار الدبغ إلى ضريح مولاي إدريس وهم يجمعون المال من كل دباغ حسب قانون الضريبة التصاعديةالعادلة . فمن كل يأخذون حسب دخله ومركزه في دار الدبغ ، وكل من يمتهن الحرفة يدفع ولو كان صانعاً بسيطاً ، فإن لم يكن عنده ما يدفع يقتطع حظه من اجرته البسيطة ، ويدفعه المعلم عنه إلى أن يقتطعه عملاً من حُرٌ نِضَاله . ولم يكن أحد يتهرب من دفع حظه مثل ما يتهرب الكثيرون من دفع أجرة كراء الغرف أو المجابير ، ومثل ما يتهربون من دفع ضريبة الدولة أو « حق الأرضية[1] » عندما يذهبون ببضاعتهم إلى السوق ، وإنما كانوا يدفعون عن طيب خاطر يحملهم الحماس إلى التسابق في الدفع ولو كان ذلك مما يمس بميزانيتهم .

واشتغل المعلمون في التحضير لاختيار الذبيحة التي تقدمها دار الدبغ قرباناً لضريح « مول البلاد » وهم جميعاً على خبرة بعالم الثيران والأبقار ، وهم جميعاً يطمحون إلى أن يختاروا

---

(١) ضريبة كانت تدفع للسوق عندما يعرض التاجر أو الصانع بضاعته للبيع .

« رأس السوق[١] » سوق الخميس ، وانتهى الأمر بشراء ثورين « عجميين[٢] » روعي في اختيارهما الضخامة والسمن واللون . كان أحدهما أحمر ناصع الحمرة ، وكان الثـــاني أسود ناصع السواد . وفي هـــذا التقابل ما يوحي بالحديث عنهما لعدة أسابيـع ، وما يبعث على المقارنة بين ما تقدمه دار الدبـغ وما تقدمه الحرف الأخرى .

أيام ويحل يوم الموسم ، وبدأت دار الدبـغ تشهد حـركـة غير عادية ، فقد أخذ شباب الدباغين ينظمون الموكب الذي يسير في مظاهرة حية حامية إلى الضريح الادريسي ، وأخذ المعلمون يبحثون عن الأعلام الخضراء الحمراء المطرَّزة بخيوط الذهب في الوقت الذي كان الشباب يبحثون عن آلات الدق والتطبيل والبندير والتـَّعْـرِجة وأكوال ويتفقون مـع فرق الطبالين والغياطين والنفارين .

كانت ليلة الخميس ليلة ساهرة في الدار التي لا تكاد تعرف إلا نور السماء ، ولكنها في ليلتها تلك تزينت فأصبحت عروساً تكتسي حلة جميلة ، فرشت أرضية سطحها بالزرابي ، ونصبت

---

(١) أحسن ما في السوق .

(٢) العجمي : الثور الضخم القوي ربما كان معناها ما يقابل الغربي أي الأجنبي .

على جدرانهـا « حنابل » وفرش زاهية الألوان ، وأسرجت فيهـا أضواء كاربونية وغازية ، وأوقدت الشموع المزخرفة بالورق الملون ، واستدعيت جوقات المطربين من « الشيوخ » وفرقة « الطبلة والطاسة[1] » ورصت صواني الشاي ، وتحلق المعلمون والصناع وضيوفهم من المدعوين حول المطربين، ووقف المتعلمون يخدمون الحفل .

كان الجو خريفياً رائعاً ، فقد اختفت من سماء فاس الغيوم الليلية التي تطبق على المدينة فتكتم أنفاسها في الليالي الحارة وحلت محلهـا بقعٌ من غيوم خريفية تتيح للقمر أن ينير وللنجوم اللامعة أن تجلل السماء بعقودها المزهرة . وتحت هذا الجو الرائق المسالم تطامنت المجابير والقصريات والصهاريج وخف تجشؤها فلم يتغلب طيبهـا على طيب العود القماري و « سرغينة » و « الجاوي » و « الحرمل[2] » التي كانت تملأ الجو دخانـاً وخاصة كلما ارتفعت الأصوات بمدح النبي الكريم ، وقد خرج المعلمون عن وقارهم فكانوا يشاركون المنشدين ويرددون اللازمة في كل مقطع مع أفراد هذا الجوق

---

(١) جوقة الشيوخ « الأشياخ »: جوقة الطرب الشعبي الملحون، وفرقة الطبلة والطاسة : فرقة انشاد مدائح نبوية تعتمد على طبلة وآلة نحاسية .

(٢) أنواع من الأعشاب تستعمل في البخور .

أو ذاك ، وكان الصناع أكثر حماساً فكوّنوا الجوقة المرددة ، يرفعون اكفهم بالتصفيق في نغمات رتيبـة يرددون معها نشيد :

اللهم صل على النبي صاحب المعراج
محمد مول التاج

ولم يكن المتعلمون يقفون على الحياد في هذا الجو الحافل ، وإنمـا كانت أكفهم الشابة تلتهب بنغم حماسي ، وأصواتهم الطرية تردد في نغم غـير متناسق النشيد واللازمة ، كانت أصواتاً متفاوتة النغم ولكنها جميعاً لم تبلغ أصوات الرجال ، فكان التناسق كاملاً بين مجموعة الجوقة التي أحيت ليلة الموسم.

وانتصف الليل وكان لا بد للحفل أن يطعم ، وتطلعت الرؤوس الصغيرة منها على الأخص لباب الدار تنتظر الطعـام حتى أقبل أخيراً متعلمو المعلم فضول وهم يحملون مَثارِد[1] الكسكس في موكب حافل يتقدمه حاملو الشموع المُسْرَجة ينشدون نشيد مولاي ادريس . ولم يمر غير قليل حتى انتهى إلى باب الدار من الشارع المعاكس موكب متعلمي المعلم عبدالرحمن نائب الأمين والمرشح للأمانة إذا ما تخلى الدباغون عن أمينهم المعلم فضول . ويأبى المعلم عبد الرحمن إلا أن ينافس المعـلم

(١) جمع مثرد: الإناء يوضع فيه الثريد عادة ويستعمل للكسكس كذلك.

فضول حتى فيما تبرع به لليلة الموسم ، فالمعركة الانتخابيـــة الصامتة بينهما تتطلب ألا يتخلى أحدهما للآخر عن ميدان يكسب فيه ثقة الناخبين وأصواتهم يوم يحين موعد التصويت للأمانة . ولذلك قرر المعلم عبد الرحمن – وأعلن ذلـــك في جلسة مناقشة الاستعدادات – أن يتبرع بالثريد إذا ما تبرع المعلم فضول بالكسكس . وسر المعلمون لهذا الكرم ، فإن وفرة الطعام وتنوعه مما يضفي على الحفل روعة وبهاء ويجعل حفل الدباغين يتفوق في ميدان آخر إلى جانب ميدان الذبيحة والشموع والأعلام التي سترفع في موكب الدباغين إلى ضريح مول البلاد .

- ١٢ -

وكان صباح .. لم يعرفه الصناع والمتعلمون ، فقد وصلوا صباحهم بليلهم فأشرقت الشمس وهم ما يزالون ينشدون ويرددون ويضربون كيفما اتفق ، في البندير وأكوال والطار والطبلة والطاسة . انسحب المعلمون وانسحبت الأجواق بعد أن اقترب الفجر أو كاد . انصرف بعضهم للنـــوم استعداداً لصباح قريب . وانصرف المتديّنون منهم إلى ضريح مولاي إدريس ليصلوا الفجر - أروع فجر في السنــــة - وليرفعو

أكفهم بالضراعة إلى الله – في ليلة استجابة – أن يحفظهم – أولاً – وينمي أرزاقهم ثم يحفظ عائلاتهم ثم المسلمين أجمعين . وبين الذين يتجهون إلى الله –في ضريح مول البلاد– كثير من المأزومين الذين يرفعون أكفهم بالدعاء – بجاه الولي الصالح – أن يفرج كربتهم ويحطم أعداءهم ويبعد عن طريقهم الشياطين وأولاد الحرام ...

انهم جميعاً يتقدمون بعطائهم إلى مول البلاد : فيذبحون الذبائح ويوقدون الشموع وينفحون « الربيعة » بالعطاء القليل أو الكثير ، وهم يطمعون في أن يكون لعطائهم جزاء ، ولن يبخل مولاي إدريس على خُدّامه بالشفاعة عند الله أن يرفع عنهم الضر ويحيطهم برضاه ويبعد عنهم الشياطين ويحطم أولاد الحرام الذين يقفون في طريقهم ، والكافرين أعداء الدين الذين يحتلون البلاد وينشرون فيها المنكر والفساد ...

كان الصباح الذي لم يشرق على دار الدبغ وحدها ، ولا على الطوائف الكثيرة التي تنتمي إلى عالم الصناعة ، وإنما كان صباح المدينة كلها التي استقبلت الآلاف قادمين من المدن القريبة والقرى المجاورة إلى فاس ليحجوا إلى بيت الله : ضريح الولي الصالح الذي ما يزالون يدينون له بالولاء منذ قدم المغرب مبشراً ومعلماً ومنظماً وناشراً لواء السلام والمحبة .

استقبلت المدينة ضيوفها بترحاب عميق وضيافة نادرة .

فكان في كل حي دكان ، كل قِوامه مجمر لشواء الكفته و « الكواح » وأكوام الخبز المرشوش بالجنجلان[1] ، وكان باعة الحلوى والطحال المشوي والكاوكاو والحمص والفول المقلي والبطاطا المسلوقة يملأون الشوارع التي ستمر منها المواكب ، كانت أصواتهم ترتفع بالنداء :

– آمولاي إدريس .. آمول البلاد .. آكل وحَلّي ، وصلي على النبي ..

وكانت أفواج الأطفال تتجمع حول بائعي الحلوى والمشهيات دون أن تمتد يد أحدهم إلى جيبه ، فهم أطفال بدون جيوب ، ولو أن عيونهم كانت تتطلع في شوق إلى القصبات السامقة في السماء وقد التفت حولها كأفعوان أشرطة حلوى « جبان » ، وتتطلع إلى الموائد التي احتلت أركان الشوارع وقد صفت عليها كل أصناف الحلوى في ألوانهـا الزاهية الحمراء والبيضاء والصفراء والقرفية ، فيهـا السكرية والعسلية والسمسمية ولكن جماعات من المحظوظين والمحظوظات كان الآباء يحملونهم على أقفيتهم أو بين أذرعهم يلبسون ثيـاب العيد ويتزينون بأبهى زينتهم وبين أيديهم قروش وحسنيات ، لا يلبثون وهم يتطلعون إلى المهرجان الحافل أن يصدروا أوامرهم من عل :

(١) يسمى في بعض البلاد العربية « السمسم » .

– آبا ، حبيت الحلوى .. آبا ، حبيت كاوكاو ..

ويقف الرجل خافض الرأس رافعاً عينيه كأنما يحاول أن يرى أو يتحدث بعينيه إلى الطفل الذي يتربع القفى كما يتربع ظهر حمار مسرج ، ورجلاه ممتدتان خلف الأذنين :

– ماذا تريد يا ولدي ..؟ جبان ، أو الجلجلان ..؟

وتحتد شهية الطفل فيطلب نوعاً ، ثم يعدل عنه فيطلب آخر ، ثم يطلبها معاً ويضيف إليها كل ما تشتهيه نفسه من حلوى مغرية ، ويخضع الرجل لأوامر الطفل الذي يتربع قفاه وأنفاسه تكاد تختنق من شدة الحر ومن حمل ثقيل يضغط على قذاله وهو يقول :

– لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله يهديك آولدي ..

وتمتد يده بأنواع الحلوى إلى الطفل وهو يضيف :

– ... لا تأكل كل شيء ، أترك لإخوتك ووالدتك .

وفي شارع الشماعين تفتح الدكاكين منذ الصباح الباكر أملاً في أن يكثر الطلب على التمر والجوز والتين المجفف واللوز ، ولكن أحـــداً لا يلتفت إلى ما بهذه الدكاكين من مشهيات ومغريات ، فإن الوافدين من المدن القريبة والقرى البعيدة لا تغريهم المشهيات بمقدار مـــا تدفعهم الحاجة إلى الأكلة

الرئيسية : الكواح والكفتة والخبز .. ثم ان ما بأيديهم مما ادّخروه من مـال لن يفي بغير حق « الربيعة » وحق الكوايجي .. أما سكان المدينة فان سوق الشماعين لم يعد يثير فيهم شهية ولا يحملهم على أن يقفوا في يومهم الحافل ذاك موقف المتزود بالتمر والجوز واللوز . ويطفح الشارع « المتسع » بالوافدين عليه من كل صقع انتظاراً للمواكب الحافلة . وتقف صفوف متراصة على أبواب الدكاكين فتحجب المشهيـات عن أعين المتجولين ، ثم تحجب الرجل العريض الضخم المتربع على حشية متواضعة وسط هـالة من أنواع التمر والجوز واللوز وشرائط التين المجفف تتدلى من سقف الدكان كما تتدلى مسبحة هائلة من عنق « درقاوي » . ويضيق صاحب الدكان بهؤلاء الذين يحجبونه عن الشارع كما يحجبون بضاعته عن شهية المارين، ويضيق بمغرفته الطويلة –التي كان يتناول بها البضاعة لا تطولها يداه – فأصبح يهش بها على القوم الذين وقفوا سداً مانعاً بينه وبين الفرجة على المواكب الحافلة التي تنتظرها المدينـة في شوق . ويقرر عمي الحاج التازي أن يرفع « الغلاق » الأسفل فيقفل نصف باب الدكان ويقف ليطل من النصف الثـاني ، وبذلك يمنع الأيدي أن تمتد إلى بضاعته ويتيح لنفسه ولإطفاله – الذين كان يختزنهم داخل الدكان – الفرجة من علٍ ، وكأنه يجلس في « لوج » مسرح .

ويفعل أصحاب الدكاكين مثلما يفعل عمي الحاج التازي،

فترتفع « الغلاقات » السفلى ، ولا يكاد يطل أصحاب الدكاكين وأطفالهم من فوق الغلاق حتى تمتد الرغبة بكل ذي طفـــل فيرجو صاحب الدكان أن يستضيفه إلى أن تمر الذبائح، ويتمنع أصحاب الدكاكين ويشترطون الهدوء والسكينة ، ثم يؤكدون على شرط مهم جداً وهو ألا تمتد يد الطفل إلى ما بالدكان من بضاعة مغرية بالالتقاط والسرقة . ولا تمر لحظات حتى تقدم دكاكين التمر والجوز واللوز باقات حية من أطفال وطفلات في ثيابهم الخضراء الصفراء الحمراء ، وفي رؤوسهن المزينة بالضفائر والشرائط ورؤوسهم المزينـــة بحلاقة القرن و « العرف » و « الكطاية » ويقف صاحب الدكان مرة في حيـاته موقف فقيه « المسيد[1] » وهو يستضيف مجموعـــات من الطفلات والأطفال آتية من كل ركن من أركان المدينة ، فيهم الساذج البسيط ، وفيهن الذكية اللامعة الذكاء . أحدهم يقرص الآخر خفية والثاني يشد كطاية[2] جاره المغرية بالشد ، وقد تدلت خلف ظهره في استرخاء كمجدول من حرير . وثالث تمتد عيناه إلى أكوام التمر والجوز فلا تلبث يداه أن تتبعا عينيه في تلقائية طِفْلِيّة وصاحب الدكان يهتف بذاك وهذه :

(١) تحريف لكلمة المسجد : الكُتّاب .

(٢) الكطاية : خصلة من شعر تتدلى من مؤخرة الرأس وكانت طريقة لتزيين رؤوس الأطفال .

– آحشم أنت .. آولدي يهديك الله .. وإلاَّ أردك إلى والدك ..

ويضيق صدراً بهذه المجموعة من الأطفال التي لم تعد تهمها الفرجة بقدر ما أصبح يهمها أن تتصرف – وقد أقفل عليها الغلاق الأسفل من الدكان – تصرف العصافير وقد حجزت في أقفاصها . ويحمل مغرفته الطويلة العريضة يرفعها في وجه « الكتاكيت » في حماس وهو يعلن :

– والله اللي تحرك منكم لأكسرنها على دماغه .

ويخلد الأطفال – إلى حين – للراحة ، إلى أن تمتد يد أحدهم من جديد إلى قِرْن زميله فيشده ، ومع الصوت العاوي المرتفع ينطلق المذنب بصوت متظلم دون أن توجه إليه تهمة :

– والله ما مَسَسْتُه .. آي .. شخص آخر شد قرنه .

* * *

تتكوم أكوام البشر منطلقة من سوق القطانين والشماعين وشارع العدول وسوق العطارين ثم باب الجادليين . الدكاكين مليئة بالأطفال والطفلات ، والشوارع مليئة بالرجال والنساء حتى ليضيق المَمَر الذي ستمر منه المواكب الحافلة ، الموكب سيشق طريقه وسيزحم المتفرجين ليلتصق بعضهم ببعض ،

ومن ضاقت أنفاسه منهم فليقفز كقط مرعوب ليلتصق بجدار مهترىء أو بغلاق دكان يتدلى من هذا أو ذاك كما لو كان مشنوقاً من يديه . ولكن سوقاً مهماً يحظى بكثرة الوافدين دون أن يفسح لهم المجال لدخوله ، فان « العسس » يقفون على بوابتيه الواسعتين لا يتركون أياً كان أن يخترقه ، إلا إذا كان صاحب دكان أو قريباً لصاحب دكان أو يحمل طفــــلا سيسلمه إلى دكان من الدكاكين التي تقوم على جانبيـــــه : انه سوق « الجادليين[1] » ، وهو سوق ضيق لا يسع غير بعض الوافدين مع المواكب الكبيرة التي تخترقه لتصل إلى باب ضريح مولاي إدريس .

الأطفال المحظوظون هم الذين يجدون مكاناً في هذه الدكاكين. في هـــذا السوق الضيق تتم الفرجة الكبرى حيث تنحر القرابين فيحمل السوق طابع مجزرة بدون ماء ، إن غلاقات دكاكينه وجدرانه مليئة بألوان الدماء المتقادمة ، دماء الثيران التي ذبحت على عتبة ضريح « مول البلاد » ، ولم يفكر أحد في غسلها وتنظيفها . فهي طابع السوق يجب أن يبقى شاهداً على أن الحِرَفيّين دائماً أوفياء يقدمون ولاءهم كل سنة قرابين وضحايا . ولا تكاد تمر بالسوق في أي فترة من فترات السنة إلا وتذكر :

(١) صانعو مجاديل الحرير .

– هنا تُقدَّم القرابين لضريح مول البلاد ..

* * *

اشتد بالمدينة أوار الحر . وأيام الخريف –ليست كلياليه– ثقيلة مرهقة كأيام الصيف . ولكن المدينة التي احتملت أكثر مما تحتمل شوارعها الضيقة وأسواقها المتلاحمة ازداد اختناقها بعد أن أسلمت الدور والأسواق والشوارع كل سكانها والعاملين فيها إلى وسط المدينة وبعد أن أسلمت القرى والمدن القريبة « المُحبّين » من سكانها إلى المدينة العتيقة التي تؤوي جدث « سلطان المغرب » مولاي إدريس . كانت الجماهير مشغولة بتنظيم نفسها في صفوف أو بالبحث عن دكان يحتمل استضافة الأطفال أو بتلهية أسنانها بالحلوى والمسليات . ولكن الشمس – وما تزال فيها بقية من حيوية – توسطت كبد السماء وأشرعت أشعتها العمودية تخترق رفوف القصب المكسوة بأوراق العنب التي تغطي كثيراً من أسواق فاس لتحجب عنها أشعة الشمس اللاهبة . وضاق المتفرجون ذرعاً لهذا التأخير الذي تصطنعه المواكب عادة ، ترجو من ورائه أن تمتلىء الشوارع بالواردين وأن تكون نهاية الموكب في منتصف النهار فيستقبل الضريح الطاهر شيوخ الحرفة عند صلاة الظهر .

بدا الفرج واضحاً عندما قَدِم جماعة من الفتيان يجرون

ووجوههم مستبشرة ، أسمالهم – كانت قمصاناً يوماً مـا – مرتفعة فوق ركبهم ، أقدامهم حافية ، أنفاسهم لاهثة :

– ها هم جاءوا .. وصلوا « زقاق البغل » .. أي ثيران يَجُرُّون ..!!

وسرى الخبر مسرى النار في الهشيم ، فان الوجوه كانت متطلعة إلى منعطف كل شارع ، ولكن بداية الطريق ـ من زقاق البغل ـ تعني انهم سيصلون لا محـالة . الشواظ الذي ترسله الشمس اتقوه بأقبـاب الجلاليب ، أوراق الحلوى والكاوكاو أصبحت مراوح هزيلة في أيديهم . والبشرى التي حملها الفتيان تخفف من حدة الحر ، ولو أن الطريق ما يزال طويلاً . فالصفوف المتراصة كانت تقنع بالبُشرى في انتظـار الأمل الذي سيتحقق .

ساعة الصفر .. والهدوء يعم شارع « القطانين » ثم تسري العدوى لسوق «الشماعين»ثم شارع العدول ثم سوق العطارين.. الآذان تَرْهَف فإن أصداء الطبل والغيطة تنطلق من بعيد لتعلن أن المواكب اقتربت . وتشرئب الاعناق إلى منعطف كل شارع وكل سوق ويشتد الزحام فتصوت امرأة لأن رجلاً احتك بها بشكل غير عادي . وينطلق صوت واعظ :

– أنتِ الظالمة .. تركت خباء منزلك وخرجت تحشرين جسمك بين الرجال ..

وتنظر اليه من خلال لثامها شزراً فإن عينيه كانتا تتحدثان بغير ما يتحدث لسانه . ويُصَوّتُ يافع ..

وينطلق صوت من بعيد :

– أسكتوا وصلوا على النبي ، الموكب قد اقترب .. واليوم يوم موسم ، لا جدال ولا خصومة في يوم الموسم ..

وتسكت السيدة صابرة ، ويخجل اليافع ، وتَهْدِر الاصوات من بعيد شابّة قوية عنيفة تعتصر قوتها من شبابها وحماسها ومن التحدي الذي يظهر على وجه كل شاب من شباب الموكب ، تحاول أن تنتصر على اللّغط الذي تحدثه آلات الطبل والغيطة والنفير والطبلة والطاسة وأكوال والتعريجة .. ولكنها تكون جوقة حافلة أشبه ما تكون بجَوْقات الجاز المجنونة التي لا تكاد تسمع منها إلا آلات مبحوحة وحناجر انفلت منها زمام حبالها فلم تعد تتحكم في الصوت ولم يعد للصوت مدلول غنائي . وهي جميعاً تنشد وتردد :

اللهم صل على النبي صاحب المعراج
محمد مول التاج .

وسط حماس الشباب من صناع دار الدبغ ومتعلميها ومن خلال صراخهم اللاهث تنطلق أصوات مطمئنة واعية هادئة تصلي على النبي في خشوع وتدعو لصاحب اليوم المشهود وتستعطفه أن يشفع لأمة محمد . إنها أصوات المعلمين الذين لا

يكادون يسمعون أصواتهم . فقد طغت الجوقة على كل صوت يصدر من حنجرة مبحوحة . ولكن المُعَلّمين – وقد كانوا في يوم ما شباباً متعلمين يقومون بنفس الدور الذي يقوم به متعلموهم اليوم – سعداء بالموكب الضخم الذي التفت حوله جماهير لا يرى أي موكب مثيلاً لها ، وهم في خشوعهم وابتهالاتهم سعداء برضى مول البلاد . كانت قلوبهم خاشعة ولكن عيونهم كانت متجهة إلى الموكب تتنقل بين الجماهير المتطلعة إلى موكب الدّباغين . كانت الأعلام الخضراء والحمراء المطرزة بالذهب تتقدم الموكب يحملها شباب ويسير معها شيوخ الدار من المعلمين وهم يتلون صلواتهم وأدعيتَهم ، وتتلوهم جوقة الطبل والغيطة يتقدمها عمي الجيلالي أمين الغياطين وقد انتفخت شدقاه المرهفتان حتى لتكاد تَبين من خلالها أضراسه المهترئة ، وكان هو وجوقته متطوعاً ليشدو بغيطته – المعروفة في المدينة – في عيد مول البلاد . كان يلبس أجمل ثيابه : جلاّبة صوفية قهويّة داكنة مطرّزة بشرائط حريرية حمراء صفراء بيضاء يلبسها مائلة وقد أخرج ذراعه من فتحة في آخر كمها القصير . أرسل قب الجلابة مزيناً « بنوشة » حريرية في ألوان الشرائط وتربعت فوق رأسه عمامة مضفورة لا تتربع عادة على غير رأس أمين الغياطين . وجه لا تقتحمه العين وقد زينته لحية محدقة بدأ الشيب بطل من بين شعراتها السود ، وتدلت مع الأخاديد قطرات عرق تصببت من إجهاد ، وفي قدميه بلغة مخروزة جديدة يحتفظ بها ليوم الموسم . فما يصح أن يسمى

لضريح مول البلاد في موسمه العظيم على غير بلغة جديدة . من غيطته الجميلة تتدلى شرائط ملونة لعل بهـــا أعلاقاً وتمائم تحفظ الأشداق النافخة أن تصيبها عين أو مكروه .. ولعل بها أيضـاً مَبَاسِمُ للغيطة يغيرها كلما اختنق مبسم أو شرق بريق . كان صوت الغيطة يعلو ولا يعلى عليه ، وكان يقود جوقته ورأسه تتحرك بعمامته ذات اليمين وذات اليسار، فإذا احتاج الغياطون أن يعرفوا أي نغمة سيعزف تطلعوا إلى العمامة المضفورة فعرفوا من إشاراتها اتجاه النغمات .

ويلي فرقة الطبل والغيطة "قلبُ" الموكب ، وفيه يتجمع الصناع والمتعلمون وأصدقاؤهم من الذين ينتسبون إلى دار الدبـغ من قريب أو بعيد : المتاجرون في الجلد ، بائعو « تاكاوت » والجير ، بعض أفراد عائلات الدباغين ، الدباغون القدمـــاء الذين استغنوا عن المهنة أو استغنت عنهم ، جميعهم يتحلقون في حلقة بيضاوية تمتد على الشارع كلما طـــال – وقد تقصر وتزدحم في السوق القصير – حول ثورين ضخمين أحدهما أسود قاتم وثانيهما أحمر لامع الحمرة يتبعهما عجل طري العود فاره المظهر .

أمسك بالقرون شباب مفتولو العضلات وقد شدت بحبال قوية التفت حول أذرع الشباب ، وأحاط بالضحايا المتعلمون في ثياب العمل وأقمصتهم مرفوعة فوق ركبهم استعداداً لعمل هو غير الدباغة يمسكون بالقرون والذيول ويضعون أيديهم على

ظهر الضحايا رعاية وصيانة . ومن حين لآخر كان علي – وهو أجرؤهم – يغتنم فرصة غفلة من الصنــاع المحيطين بالثيران فتمتد يده في حذق إلى مـــا بين فخذي الثور ليمسك به في عنف يجعل الثور يحرن . وربما رَفَسَ بكلتا رجليه فيضحك الجمهور ويسر المتعلمون.. كانت الضحايا تضج بالأصوات المزعجة التي تملأ كيانها بعد هدوء المراعي الفسيحة والقرى الوادعة ، يرعبها تكدس الجمهور حولها في فوضى لم تعرفها أعصابها قبل الآن . كانت تحاول من حين لآخر الإفلات من الطوق الذي ضرب حولها ولكن الأيدي القوية كانت تعيد الحَرِنَ منهـا إلى صوابه . وضجت أعصاب الأسْوَد منها فحاول أن يدوس الموكب . ولكن يدي جزار امتدت إلى حبل يجمع قرنيه فربط به قائمتيه ، وأصبح يسير وعيناه في موطىء أقدامه .

كانت الحلقـــة البيضاوية تضج بالإنشاد . وكانت الأكف المفعمة شباباً وقوة تصاحب الانشاد وهي تعزف ، مصفقة ، أنغام « اللازمة » فيتجاوب معها الجمهور المتفرج ويصفق هو الآخر حتى لتضيق الشوارع المزدحمة الضيقة بالأصوات المبحوحة والتصفيق الحاد .

وذلك سر نجاح الموسم الكبير .

بعد قلب الموكب يأتي الذيل يتقدمه جوق الطبلة والطاسة وهو ينشد أناشيده المنغمة بشعر الملحون في مدح النبي وتقدير الأوليـاء والصالحين ، والغزل أحياناً في « للا عيشة مولات

السالف[1] » . ومع ذيل الموكب جمهور غفير ممن يحسبون أنفسهم أكثر من متفرجين .

يقترب الموكب من « العطارين » قلب المدينة . وحول الثيران يبدأ صراع خفي ، فقد أحاط بكل ثور ثلاثة أو أربعة من الجزارين كل منهم يزعم أنه القادر على أن « يشلط » الثور في حركة خفيفة فيصل بالسكين إلى العظم دون أن تستطيع الضحية حراكاً . الثور يذبح وهو واقف . والسر في السرعة التي تفصل أوداجه فيخر ساجداً على عتبة ضريح مول البلاد ، دون أن يتمكن من فرار أو يستطيع مقاومة . ولكل من الجزارين المتنافسين تجربته ، ولكل منهم حجته في الظفر بشرف أن يكون هو مقدم الضحية ، ولكل منهم سكينه التي لا تستعمل في غير الموسم . ولكن الشرف ليس كل شيء ، فإن إعجاب الجمهور يتناهى إلى كل الآذان في دوي حافل بالتصفيق والهتاف كلما استطاع الجزار أن يجعل الثور يخر ساجداً في حركة سريعة . وان همهمة الجمهور واستنكاره لتعلو كبد السماء كلما فشل الجزار في أن ينهي مهمته بالسرعة المطلوبة والحذق المعجب .

وتهتف الجماهير :

اللهم صل عليك يا رسول الله

---

(١) السيدة عائشة صاحبة الشعر الطويل المنسدل .

آجاه النبي عظيم
الجنة للصالحين
والنار للكافرين .

ثم ترتد الدماء حارة منطلقة في عنف فتخضب الجدران وغلاقات الدكاكين السفلى ، وقد تتطاير – والثور يضرب رأسه على الأرض محتجاً في عنف – فتدخل الدكاكين من غلاقاتها العليا وتخضب وجوه الأطفال والرجال وثيابهم . لا أحد يثور على الثور الذي يوزع دماءه على المتفرجين والمشاهدين والمتعلمين والصناع من رجال دار الدبغ وأطفالها ، فكل قطرة من دم الضحية بَركَة وشهادة وفاء لذكرى مول البلاد . ولكن البشرى تحل على الوجوه الطيبة محل الغضب أو الثورة . ويظل القوم يشاهدون « تصفية الروح » والثور يُسْلم روحه إلى بارئها حتى إذا امتدت قائمتاه وخلفيتاه مصلبةً تعلن النهاية كانت مواس صغيرة يشرعها المتعلمون والأطفال الجرئون ليقطعوا أطرافاً من لسان الثور وقد عض عليه من ألم الموت وذيله وربما بيضتيه ، يقطعونها – في وجه تحذير الصناع وغضب مندوب المقدم – ليتبركوا أو ليعلنوا لزملائهم أنهم كانوا في قلب المعركة وهم يحملون شاهدهم على ذلك .

مع نهاية الثور تقفل بوابة المجادليين ويفرغ السوق الصغير من زواره وينتهي دور المعلمين والصناع والمتعلمين ليدخل مقدم

« الحرم الادريسي » و « مزوار[1] » الإدريسيين فيستلمان الضحايا التي أصبحت منذ أن أسلمت الروح من نصيب أبناء الولي الصالح .

أطفال وفتيان كانوا قبل الآن يرفعون أكفهم ليخبطوا الثور وهو في طريقه إلى المصير المحتوم بحكم أنهم متعلمون في دار الدبغ لم يَعُد لهم الحق في أن يشهدوا بقية المصير ، وإنما ينشهم خدم الضريح كما ينشون ذباباً يكاد يتجمع حول الثيران الصريعة ، ويدخل الأطفال في أعقاب المعلمين والصناع إلى الضريح ، إن غفلت أعين الخدم عنهم ليندمجوا — بعد أن يغسلوا أطرافهم — وسط اللاعبين«المشاوشين» و«المشاقرين[2]» فإن المسجد الواسع الأرجاء يتسع صدره للمصلين والمتبركين والزائرين والداعين الله كثيراً والذاكرين ، كما يتسع للمشاقرين والمشاوشين واللاهين والآكلين الخبز والتين أو الجوز والتمر والحلوى .

•

ومع نهاية الموكب تستريح المدينة من ضجة ٍ غمَرتها منذ الفجر الباكر ، وتبتلع الدور سكانها — أطفالها ونساءها ورجالها — يستريحون من يوم حافل شاق ، ولكنه سعيد بما

---

(١) مزوار : نقيب .

(٢) المشاوشة : مصارعة بالأرجل . المشاقرة : تشبه المايفة ولكن بالعصي .

رأوا فيه من فرجة نادرة لا يشهدونها غير يوم في السنة ، يوم موسم مول البلاد . ولكنه يوم لم يكتمل بعد . فسكان المدينة والواردون عليها مدعوون إلى التجمع في ضواحي باب فتوح وباب الجيسة ووادي فاس : حلقات تتكون هنا وهنـــاك يحكي فيها الفداوي[1] قصة « سيف بن ذي يزن » وقصة صراع سيدنا علي مع الغول . ويبيع في بعضهـا الصيدليون « دواء كل مرض » ويكتب فيها الفقهاء « أحجبة » للعاقرات واللائي تغيرت قلوب أزواجهن عنهن فمالت إلى الأخرى ، حبيبة أو ضرة أو مجهولة لا يعلمها إلا الله . ولكن سهـل وادي فاس يشهد أصيلاً رائعاً حيث يلعب القرويون الذين وفدوا زائرين إلى المدينة المقدسة ألعاب الفروسية وضرب النار .

أصيل هادىء في المدينة ، ولكنه حافل في ضاحيتهـا ، ولن يكتمل موسم مول البلاد ما لم يتقبل التحية من سكان القرى المجاورة مثل ما يتقبل الهدية والضحية من سكان المدينة والعاملين في حقلها .

(١) حاكي القصص والأساطير .

-١٣-

كان يوم الموسم عطلة عن العمل في دار الدبـغ ، أيام قبله كانت شبه عطلة . المعلمون والصناع يستعدون لليوم المشهود . وكان المتعلمون ينتهزون الفرصة ليأخذوا حريتهم كامـــلةً : حرية عن العمل وحرية الاتصال وعقد الندوات والتعرف على أخبار الدار ، وحرية النقد المرير يوجهه كل منهم إلى معلمه أو إلى الصانع الذي يتحكم في مصيره. كان عليٌّ أبرزهم ثم التهامي. والسـطح كان ملتقى الندوة ، فقد كانوا يهربون ببعض الجلود

في غفلة عن المعلمين لينشروها ثم يعقدون ندوتهم ليتحدثون عن الموسم المقبل وعن استعدادهم العمل وقدرتهم على مصاحبة الركب حتى النهاية . وكان علي جديداً في الحرفة فهو يشهد أوّل موسم يساهم فيه بدار الدبغ ، ولكن التهامي والجامعي والحياني والبرنوصي كانوا جميعاً على خبرة بالموسم وبالطريقة التي تساهم بها دار الدبغ . وكان علي يحاول أن يأخذ عنهم الدروس ليصبح خبيراً ، وليتفوق عليهم في مصاحبة الركب حينما يعلو صوته بالنشيد وتعلو كفّاه بالتصفيق كترديدٍ موسيقي على اللازمة .

ومر يوم الجمعة ثاني يوم الموسم وعيد المؤمنين ، هو عطلة رسمية في المدينة التي كانت تهب جميعاً لصلاة الجمعة فلا يتخلف فتى أو رجل أو شيخ أو طفل في دور التعلم عن الصلاة مع الجماعة وإلا اعتبر مارِقاً يشار إليه بالبنان .

وأصبح صباح السبت فكان كل معلمي دار الدبغ في مكان عملهم بعد أن عادوا من صلاة الصبح وحضور حلقات الحزب. مع إطلالة الشمس كانت الدار تبدأ نشاطها العادي ، وكان المعلمون أسبق إلى العمل من الصناع والمتعلمين لا ليضربوا المثل لمساعديهم ، ولكن لأنهم يؤمنون بأن البرَكَة في البكور ، ويجب أن يبدأوا نشاطهم مبكرين إذا أرادوا لعملهم نجاحاً ..

مرت ثلاث ساعات قبل أن تتفتق أكامُ بابِ الدار عن عليّ ، لم يستجب لنداء فاطمة وهي توقظه ليلتحق بعمله، فقد انتهرها كما يصنع عادة صباح الجمعة :

– الصباح لله .. ألا تعرفين اننا ما نزال في أيام الموسم ؟

– يا ولدي الموسم انتهى .. والمعلمون شبعوا عملاً .

ويضع علي غطاءه على رأسه ، كأنما ليقي أذنيه من صراخ أمه .

وتتركه الأم وهي تهتف في سرها : لا حول ولا قوة إلا بالله .

في وسط الدار وقف عليٌّ مشدوهاً وهو يشهد نشاطاً ملحوظاً كأنما لم تسبقه أيام عطلة ، ولم يلتفت إليه أحد كأنما هو غريب عن ميدان العمل .

وفكر :

– أخلع جلبابي وأندمج في العمل كما لو كنت هنا منذ الفجر ؟

وارتد إليه تفكيره فان المعلم عبد القادر والصانع التباع يلاحظان المتعلمين ويحصيان أنفاسهم ، وستزيد مراوغته في ضخامة ذنبه . وقرر :

– ... لا ، بل أذهب لأؤدي تحية الصباح للمعلم .. فلعل يده مُمْتدّة تنتظر من يقبلها ..

ابتسم للفكرة الأخيرة وكاد يجهر بضحكة عالية لولا أن لاحظ أن الصانع التباع نظر إليه من بعيد نظرة استنكار .

َخلَعَ بلـْفَتَه . شدّ قميصه من تحت الحبال حتى برزت ركبتاه. ذهب خفيفاً سريعاً يخطو في وثبٍ نحو المعلم عبدالقادر حتى إذا اقترب منه تجاهله كأنما لا يقف بجانبه انسان . وعاد السؤال يلح على علي :

– انحني على اليد التي لم تمتد لتقبيلها ..؟ أزْوَرُّ عن اليد التي تثاقلت في كبرياء كأنما هي حشرة هذه التي ستنحني لتقبلها ..؟ أهرب بنفسي من جحيم الانتظار والاحتقار ..؟

ولكن أذنيه ضجتا بنصيحة أمه الدائمة :

– المعلم مثل والدك يا علي .. وهو لا يريد لك إلا الخير مهما قسا .

وامتدت يده في استعطاف وهو ينحني على اليد التي لوثها خليط « تاكاوت » وبعر الحمار ، فتثاقلت اليد القوية حتى استقامت قامة المعلم عبد القادر ، ونطق فمه ببطء وقد امتلأت العينان غضباً واكفهر وجهه كما لو كان الغضب قد ركبه منذ سنين :

– أين تأخرت وقد اقترب الظهر من أذانه ؟

وأبلس علي فلم ينتظر السؤال ولو أنه كان ينتظر اللوم والعتاب . وتلعثم وهو يجيب :

– أصبحت مريضاً .. محموماً .. أعني أمي كانت .. مريضة ..

ونطق الغضب من وجه المعلم قبل أن ينطق لسانه :

– أمك مريضة .. أنت مريض .. لم يكفك تأخرك فتكذب ..

وتفجر الغضب في اليد التي تقطر دِباغةً ، وانطلقت كالصاعقة لترسم لطمة قوية على الخد الذي نسي اللطمات منذ أيام المعلم التدلاوي . وكادت اليسرى تمتد لولا أن ابتعد علي بخفة في خطوة خلفية جعلته يقف على مبعدة من مدى سلاح معلمه .

– غلطة أخرى وتعرف بابُ الدار قفاك .. اذهب – يا كلب – إلى الجيار الثالث فقد كادت .. البطانة .. أن تهلك .

وذهب علي يخطو خطوات سريعة كما لو كانت كلمة « كلب » قد أمدته بحماس ليجري خلف الهدف . لم يفته أن يلحظ في عيون أصدقائه من المتعلمين إشفاقاً وفي عيون خصومه شماتة ، ولكنه مع ذلك نزل الجيار وهو يفكر :

– رخيصة . كان من الممكن أن تكون أكثر ..

لم تستقر كلمة كلب .. في أذنه كما استقرت كلمات الوعيد :
غلطة أخرى وتعرف باب الدار قفاك ..

تحدث إلى نفسه طويلاً عن هذا الوعيد ، وحدثته نفسه بما كان له من مصير يوم ترك العمل في المطحنة على أثر الغلطة الكبرى التي ارتكبها يوم شرب تراب الأرض من فطور المعلم التدلاوي . ولم يشأ أن يحدث أمه عن الوعيد ، وإنما ظل يتجرع غصته وحيداً حتى جمعه السطح بعد يوم بجماعة المتعلمين وكان بينهم الحيّاني والجامعي والبرنوصي . كان الحيّاني قد سمع تهديد المعلم عبد القادر لعلي ، وبقي هذا التهديد يملأ سمعه وحسه جميعاً ، فخاطب الجامعي بلهجة فيها كثير من السخرية وهو يقلد صوت المعلم عبد القادر :

– آلجامعي .. غلطة أخرى وتعرف باب الدار قفاك .

وضحك الآخرون فقد أدركوا انه يقصد علياً بسخريته ، ولكنهم لم يضيفوا كلمة واحدة خوفاً من أن يثيروا غضب زميلهم ، فانطلق علي من صمته يوجه الحديث إلى الحياني :

– كلكم مُهَدَّدون .. غلطة وتعرف باب الدار قفاكم .

وعاد إلى المجمع طابع الجد فقد نقل علي بحديثه إلى أحاسيسهم حقيقة كأنهم كانوا يجهلونها رغم انهم شهدوا بأنفسهم عدة مرات أن كثيراً من المتعلمين طردوا من العمل لأقل غلطة .

أجاب البرنوصي وهو يفكر :

– الحق مع المعلمين فهم أصحاب الشأن ..

وفكر الحياني قليلاً ثم احتدّت أعصابه وهو يجيب :

– من أين لهم هذا الحق ؟ (وأضاف في سخرية) هل نزل عليهم به وحي أوجدوه في القرآن ؟

فقال البرنوصي دون أن يجد حجة :

– أليسوا هم المعلمين ..؟

نطق الجامعي وكأنما استلهم حجة من سؤال البرنوصي :

– ألسنا نحن الذين ننزل الجيار والمغطس ونصعد السطح ونحمل الدبغ والجير وبعر الحمار وتاكاوت ؟

وتذكر علي حماره المقتول العضلات الذي كان يحمله أكياس الدقيق والقمح فقال بلهجة فيها كثير من السخرية :

– وماذا في ذلك ؟ أليس الحمير جميعهم يحملون ولا يقولون : آخ ..

ضحك الحياني ونظر إلى البرنوصي نظرة من يتطلع إلى حمار وقال وهو يشير إليه بأصبعه :

– قلها لسيدنا الـ ...

ثم اكتست لهجته طابع الجد وأضاف :

– وهل المعلم الشباني يستطيع شيئاً بدونك ..؟

فلم يعدم البرنوصي حجته فقال :

– إذا ذهبت أنا فغيري من المتعلمين كثير .. ألا ترى كم سيدة تتردد على دار الدبغ تطلب عملا لابنها أو أبنائها ..؟

فأجاب علي :

– ولكنهم جميعاً إنسان من حقهم أن يعملوا وأن يأكلوا ..

فأضاف الجامعي الذي كان يستلهم دائماً بداية الرأي من غيره :

– ... ومن حقهم ألا يطردوا ..

فأجاب البرنوصي :

– عليهم إذن ألا يغلطوا .

فأجاب الجامعي :

– وهل تعلّم مُعلمي ومعلمك إلا عن طريق الغلط ..؟ نحن جميعاً معدن الغلط .

فقال الحياني ساخراً :

– ولكن يعلموننا ألا نغلط ويطردوننا من العمل ..؟!

وقال الجامعي وهو يرنو بنصف عينه إلى علي :

– ... أو يرسمون أصابعهم على خدودنا ..؟

أدرك علي النكتة التي آلمته وكأنما تلقى بها الصفعة من جديد . واحتدت أعصابه وكادت الدموع أن تطفر إلى عينيه لولا انه كان يتجلد أمام زملائه فتجاهل كلام الجامعي ووجه السؤال إلى الحياني قائلاً :

– ترى أكل المعلمين مثل المعلم عبد القادر والمعلم الشباني و ..؟

فالتقط الحياني السؤال من فمه وأجاب :

– وهل يستحق أحدهم لقب «المعلم» إذا لم يفرض وجوده علينا نحن المتعلمين ..؟

أضاف الجامعي وهو يسخر :

– انهم لا يستطيعون أن يفرضوا وجودهم في المنزل فلا أقل من أن يفرضوه في المعمل ..!.

ضحك الحياني وقال :

– .. خاصة إذا كان للمعلّم مُعلّمتان ..

قال الجامعي ضاحكاً :

– ... أو ثلاثة .. معلمي رزقه الله ثلاثة .. من شر ما خلق .

– ... يجعلون حياته في البيت جحيماً ..

فقال الحياني متسائلاً بسخرية :

– حتى إذا جاء إلى دار الدبغ ..؟

التقط علي الجملة وأكملها ساخراً :

– كان هو الجحيم بعينه .. وطبق على المتعلمين الدرس الذي تلقاه من المعلمات ..

ساد الأربعة صمت مفاجيء واشتغلوا بنشر الجلود حتى نطق علي بعد وقت غير قصير :

– ما لكم صامتون « دابا يخرجوا الفئران[1] » ..

فلم ينطق غير البرنوصي الذي أرهقه الصمت ووجدها مناسبة للإفراج عن رأي كتمه طويلاً :

– من الأحسن أن نشتغل بجد وأن نترك الحديث عن المعلمين فإن للحيطان آذاناً ..

أجابه علي ساخراً :

– الخوف .. يا خويا ، العَصا لا تترك من يَعصَى ..!!

ونطق أخيراً الحياني بأسلوبه الجدي وكأنه لم يدرك شيئاً مما راج بين الزميلين :

---

(١) جملة مغربية تقال عند الحث على الحديث كأن هسران تخرج من مخابئها عندما يسود الهدوء والصمت .

– اسمعوا يا اخوان .. نحن أصبحنا رجالاً ولم نعد أطفالاً ..

تطلع علي بعينيه النافذتين إلى قامة البرنوصي التي تظهره أصغر مما هو ، وكاد ينفجر ضاحكاً لولا أن رده إلى الجد صوت الحياني وقد اكتسى لهجة صارمة :

– ... ومن حقنا أن نثبت رجولتنا ..

سكت وهو لا يدري كيف يشرح الأفكار التي أخذت تلح عليه ، حاول الجامعي أن يفهم ما يقصد فقال كأنما يشرح أفكاره :

– تعني اننا يجب أن نصبح معلمين ..؟

ضحك البرنوصي من أعماقه وقال ساخراً موجهاً الكلام إلى الجامعي :

– لا تنس آلمعلم أن تأخذ علياً متعلماً عندك حينما يطرده المعلم عبد القادر ..

ارتجف علي من سخرية البرنوصي فرفع كفه في وجهه وهو يقول :

– اسكت أنت وإلا هدمت أسنانك ..

خشي الحياني أن تحول الخصومة الطارئة حديثه عن مجراه فقال بصرامة وهو يبحث عن أفكاره :

– كل واحد يلزم مكانه .. أنت وهو وأنا جميعاً متعلمون مهددون بالصفع والاحتقار والطرد ، ومع ذلك .. لا أدري ما أقول ..

تلعثم وكأنمـــا يبحث بلسانه عن شيء ضاع منه فالتقط الجامعي الحديث منه ، وأضاف :

– ... ومع ذلك يجعل كل منا زميله خصماً يسلِقُه بلسانه أو يرفع كفه في وجهه ..

بدا على الحياني الارتياح فقد عبر الجامعي عن بعض مـا كان يبحث عنه ، ولكن ذلك لم يكن إلا بداية الطريق لمـا كان يقصد إليه ، فخفض رأسه مفكراً وهو يشغل يده بنشر الجلود . ثم رفع رأسه فجأة وكأنما وجد ما كان يبحث عنه ، وقال :

– نحن المتعلمين يجب أن نتحد ..

الكلمة ما تزال غامضة في ذهنه ولذلك توقف عن الحديث وعن العمل ، وبدا ساهماً كما لو كان يسبح في بحر الظلمات .. نظر إليه عليّ بفضول وكأنه يبحث في وجهه عن شيء ضائع. ونظر إليـــه الجامعي ، وحتى البرنوصي استوقفته لهجة الجد والصدق في كلماته فتوقف عن العمل . ووقفوا جميعاً كأنما كل منهم ينتظر أن ينطق الآخر ، ولكن اهتمامهم كان متوجهـاً إلى الحيـــاني يستَنجِزونه إكمال الحديث الذي بدأ يأخذ

باهتمامهم ، حتى نطق الجامعي وكان أكثرهم جرأة على الحياني لأنه صديقه وزميله في العمل عند المعلم فضول :

– تعني أن نتحد كما أن المعلمين متحدون .. هم أصدقاء رغم التنافس الذي بينهم وأحدهم يساعد الآخر كما لو كانوا شركة ..

بدأ الطريق يتضح أمام الحياني لولا أن نطق البرنوصي :

– ولكننا نحن فيماذا سنشترك ؟ كم بجيار نملك ؟ وكم مائة ريال في « شكارتك[1] » ؟

فانتهره علي وهو يحاول أن يفهم :

– اسكت أنت .. حينما يتحدث الرجال يجب أن ينصت الأطفال .. أفهمت ..؟

ارتاح الحياني لحكمة علي وقال :

– أقصد يجب أن نتحد فيهتم بعضنا لمشاكل الآخرين .

وبدأ الجامعي يفهم فقال :

– إذا مَرِض أحدُنا يساعده الآخرون .

وقال علي :

– وإذا ثقل العمل على أحدنا ينوب عنه الآخرون .

●

(١) الشكارة : حمالة النقود يفلقها الرجل بجدول على كتفه .

فقال البرنوصي ساخراً :

– وإذا أفلس أحدنا يعطيه الآخرون ..؟

قال الحياني متحدياً :

– نعم .. ولم لا .. مرة عليّ ومرة عليك .

وقال علي هازئاً بالبرنوصي :

– اتركه هـــذا المسكين .. كثير عليه أن يفهم ..!!
ما يزال رضيعاً في حاجة إلى رضّاعة أو مصّاصة ..

ثم عاد يفكر جاداً وأضاف متسائلاً :

– وإذا طـُرد أحدُنا ..؟

سكتوا جميعاً فإن السؤال لم يوضع من قبل بهذا الوضوح على ضمير أي منهم . كان صمتاً ثقيلاً قطعه البرنوصي ، وقد وجد حجته ، بقوله :

– يساعده الآخرون فيُطردون معه .. ورزق المّيمَة على الله ..

واحتد عليّ مرة أخرى فقد أحس بأن الكلام موجه إليه وشعر بعد ذلك بأنه وحيد يواجه المصير الذي يحمِـله تهديد المعلم عبد القادر كما واجه نفس المصـــير حينما تخلى عنه المعلم التدلاوي ، ولكن الحياني طامَن من حديثه وقال مجازفاً دون أن يفكر طويلاً في هذا الذي يقول :

ـ لا تحتد فلو اتحدنا لما طُرد أحد منا .

وقال الجامعي وهو يكمل فكرة الحياني :

ـ أي نعم .. لشعر المعلمون بقوتنا وصعب عليهم أن يطردوا أي واحد منا .

تهلّل وجه علي، فقد أحس كما لو أن المتعلمين جميعاً يقفون بجانبه وهو يواجه مصيره مع المعلم عبد القادر ، وأراد أن يعبر عن فرحته فقفز قفزة هائلة كمن يصد كرة ضخمة بقدمه وجهت إليه في عنف وهو يقول ماطّاً شفتيه :

ـ إيه .. ي .. ي والله ..

واستبشر وجها الحياني والجامعي وكأنهما أحرزا نصراً حقيقياً وحققا أحلاماً بدأت تراودهما . غير ان البرنوصي ركبه شيطانه فوجدها فرصة ليغيظ علياً ولو انه في أعماقه كان مرتاحاً للأفكار التي راودت زملاءه ، فقال وهو يوجه الحديث لعلي :

ـ ما تأكله غير مدهون[1] ..!!

وانصرف عنه الثلاثة إلى حديث أكثر أملاً ، وكل منهم

---

(١) أي ما تأكل الخبز إلا مدهوناً بالزبد . تقال للسخرية بمن يطمع في شيء يصعب تحقيقه .

يعنى بجلوده حتى صعد الصانع التـبّـاع ليتفقد العمل . وجد كلاً منهم مكباً على عمله فقال لهم مشجعاً :

ـ أيْوَه هكذا الرجال ..

واختص عليـــاً بالحديث لأنه عامِلٌ معه فقال ماسكاً بعنق جلد :

ـ ... ولكن ألف مرة قلت لك ادلك العنق كثيراً متى ستتعلم ؟ ماذا لو رآك المعلم ؟

فقال علي معتذراً :

ـ سأعود إليها .. سأعود بعد أن أفرغ من الأخريات .

واعتذر عنه الحياني قائلاً :

ـ المعلم علي أصبح مقتدراً .. لن تجدوا مثـــله في العمل أبداً .

فقال الصانع التباع ضاحكاً :

ـ اشكون يشهد لك آلذيب[1] ..؟

وانتهى الصانع من مراقبته فقـــال وهو يعود إلى الدرج مخاطباً علياً :

ـ أسرع .. أسرع ، فالمعلم يستبطئك .

---

(١) جملة تعني ان الأصدقاء يشهد بعضهم لبعض .

ـ سأنزل حالاً .. أنا وراءك .

واختفى الصانع فتساءل الجامعي وهـو ينفض يديه من آخر جلدة :

ـ ما رأيكم لو اتحدنا أيضاً مع الصناع ..؟ انهم أيضـاً طيبون ..

رسم السؤال علامة استفهـام في فكر الحياني وعلي ، ولم يجب عنه الحياني بغير حركة استفهام من شفتيه .

- ١٤

خرج علي من دار الدبغ وقد بدأ الظلام يهاجم المدينة رغم أن الشمس قد غربت لحينها ، ولكن الجدران السامقة المطبقة على زقاقات المدينة ودروبها لم تكن تترك الفرصة للنور الأغبش أن ينفذ إلى قلب الشوارع الضيقة . كان يراود نفسه ـ قبل أن ينتهي من العمل ـ أن يخطف رجله إلى « باب الخوخة » ليشهد آخر مراحل مباراة كرة القدم ، فإن به شوقاً إلى الملعب الذي لم يعد يزوره إلا لماماً، ولكنه

وقد خرج متأخراً من العمل لم يفكر مطلقاً ، وأمام الأفكار التي راودته ، أن يزور الملعب وإنما انساقت رجلاه ، دون أن يدري ، إلى المنزل . كانت أفكاره في عالم آخر :

ـ ترى ماذا تقول .. المّيمة .. لو علمت بالذي كان ؟

كذلك فكر وهو يجتـــاز الشارع الفارغ إلا من قلة من الأطفال يلعبون « الملا » .. أو « الاين[1] » هنا وهناك بين دار الدبغ والمشاطين . ألح عليه السؤال لأنه يعرف أي هم حملته أمه منذ أن استقبلها المعلم التدلاوي استقباله العاصف على باب الدار ، يوم أراقت الصدفة فطوره على تراب الزقـــاق الملتوي . حادث يذكره للمرة الألف وهو يجتاز نفس الزقاق في مسائه ذلك . كان يجرؤ على أمه فلا يهتم لو ظل عاطلاً منذ أن خرج من « المسيد » دون أن يحفظ قُرآناً أو يعرف من القراءة والكتابة إلا النزر اليسير ، يرفض أن يشتغل ويرفض أن يصحو مبكراً لأنه كان يؤمن كأخوته الصغار ان أمه ستعود في المساء من غسيل الثياب وقد حملت لهم عشاء طيباً ودراهم معدودات يتزودون بها لغدهم . ولكنه ، وقد أصبح فتى ، أخذ يدرك أن أمه لا تقوى على إعالتهم جميعـاً ، فهو مدعو أن يشتغل ليتعاونا معاً على إعالة العائلة الصغيرة . وها

---

(١) « الملا » يلعبها الأطفال مزدوجين بشقف من الفخار ، و «الاين» يلعبها بمجموعة بكرويات صغيرة من طين أو حجر أو رخام .

هوذا قد أصبح مهدّداً في عمله مرة أخرى ولن يستطيع الجار سيدي التهامي أن يبحث له عن عمل إذا عرفت باب دار الدبغ قفاه .

ـ أصحيح اننا لو اتحدنا لما استطاع المعلم عبد القادر أن يطردني ..؟

سؤال طفر إلى ذهنه في غمرة الأسى والهم المؤلم الذي ركبه ، ولم يلبث أن وجد الجواب صريحاً :

ـ انها آمال قد لا نحققها نحن :.. وإذا كبر الحياني وأصبح معلماً قد لا يوحي بها للمتعلمين من مساعديه .

وانتصبت في ذهنه من جديد فكرة الطرد وصمم :

ـ لا . لن أرتكب غلطة بعد اليوم ..

وخيل إليه ان البرنوصي قد حل في جسده . وكاد ينفجر ضاحكاً في سخرية من قصير القامة الذي يفكر بجبن ، ولكنه تراجع كما لو كان قد خطا أكثر مما ينبغي وقال لنفسه :

ـ انه يعيش في واقعه بعقل الشيوخ .. وتلك طريق الاحتفاظ بالعمل .

ووقفت أمامه شخصيتان : الحياني ، ووراءه الجامعي ، يفكران بعقل متمرد ، يريدان أن يفرضا على المعلمين احترام المتعلمين وضمان حقوقهم في عدم الطرد . والبرنوصي يفكر

بعقل واقعي ، يعرف سلطة المعلمين ويقدر هذه السلطة ولا يجد داعياً للخروج عنها . كل منهما يدعوه لأن يكون في صفه ، انه يقف في المفترق : الحيـاني بعقله المتزن وشخصيته القوية ورجولته التي تفرض الاحترام . لقد كاد أن يصبح صانعـاً .. ولكنه لو أعرب عن أفكاره للمعلم فضول لظل متعلماً إلى الأبد .. أو لعـــله هو الآخر تعرف باب الدار قفاه . والبرنوصي بطاعته المتبلدة وتقديسه للمعلمين واحترامه للعمل .. سيحتفظ بمركزه متعلماً وربما إلى الأبد ..

غرق في الحـــيرة وهو يخطو خطواته التي لا يعرف إذا ما كانت تقربه من المنزل أو تبعده عنه . وفجأة توقف :

ـ وجدتها .. أي نعم وجدتها .. سأرمي ثقل هذه الحيرة على المتيمة ..

فكر في ذلك ، فهي تبدو دائمـــاً كما لو كانت فقيهاً من القرويين تفتي في كل شيء .. وربما عرضت الأمر على جارتهـا للا خدوج لتستشير زوجها ويفتي لها بالرأي . بدا كأنه خرج من حيرته وأخذ يسرع الخطى إلى المنزل بعد أن وصل إلى « حي الرصيف » ، وفجأة ، اصطدم بأم تتربع الأرض يمتح من ثديها العاري رضيع يبدو من وجهه الأعجف انه لم يشبع قط . وتستند إليها طفلتان وهما تعبثان بأحجار التقطتاها من التراب . بعينين ضارعتين تطلان خلف لثام متداع قذر تتطلع الأم إلى المارين وهي تهتف :

ـ يا من يعشي هؤلاء اليتامى بخبزة لوجه الله ..؟

وقف علي أمام الأم مشدوهاً وهو يفكر :

ـ كان يمكن أن تكون هي الميمة وأكون أنا وتكون كنزة والجيلالي ..

أغمض عينيه من هول المأساة ، وحاول أن يطرد الفكرة فخطا خطوات سريعة . ولكن المنظر ، الذي لم يلفت نظره قط من قبل وقد شهد أعنف منه مرات ومرات ، واقترن بالخاطر الذي يلح عليه : الطرد من العمل .

عاد يفكر في إلقاء ثقل الحيرة على الأم ، ولم يتخذ قراراً فقد وصل إلى المنزل والدوامة تعصف به . لم يطرق الباب فقد وجده مفتوحاً ، وفاجأ أمه والأطفال يحيطون بها وهي تكسر لهم وحدات من الجوز يأكلونها بشهية . نسي الحيرة والأفكار السوداء التي ألحت عليه في طريقه ، وهو يتطلع بابتهاج إلى ما بين يدي أمه على ضوء شمعة ما تزال فتيلتها شابة ، وهتف بأمه هاشاً قبل أن ينحني ليقبل يدها :

ـ وأنا ..؟ أين حقي ..؟

ابتسم الأطفال هاشين للقاء عزيزهم ـ كذلك عودتهم أمهم أن ينادوه ـ وضحكت الأم فرحة بلقاء ابنها، ولكنها عابثته قائلة :

ـ قل بعد : السلام عليكم .. عدت مشوقاً إلى الجوز كأنما كنت تعرف أننا نأكله .

قال مسايراً أمه في مُمابثتها :

ـ من بعيد شممت رائحته ، ما ألذ طعمه ... أم .. تاح ..!

نطق الكلمة وهو يتلمظ بريقه ، فأدخلت حركته السرور على أمه وعلى إخوته الذين انفجروا ضاحكين ، وقالت الأم :

ـ انتظر سأكسر لك واحدة .

ـ هاتها جميعاً فان أسناني تلفت من طول ما نسيت الكسر ..

ضحكت الأم وهي تناوله أربع وحدات هي كل ما نابه فقال مطالباً بالزيادة :

ـ لا .. لا .. هاتِ حقي كله فليست بي حاجة إلى توفير ..

ـ توفيرِ ماذا يا سيدي « المشوه[1] » ..؟ هذا كل ما أعطى الله .

وعز عليه ألا ينوبه إلا أربع وحدات فقال ملحاً :

ـ هات الباقي .. لا تمزحي .

---

(١) الشره .

وضحك الأطفال لشره أخيهم ، ولأنه سيفاجأ بألا شيء يطمع في زيادته ، وضحكت الأم وهي تعابث علياً :

ـ انتظر فان شجرة جوز ستثمر في وسط المنزل ..!

قال علي مازحاً وهو يطرد خيبة أمله :

ـ كم أنت بخيلة آلميمة .. كنت أحسب أن معك قد هَاكَذَا ..

قالها وهو يوسع ما بين يديه مشيراً إلى الكمية التي كان يطمع فيها . فقالت أمه :

ـ أحمد الله على هذا الرزق .

ـ الحمد لله .. ولكن من أين لك هذا ..؟

أجابت الأم وهي تحاول أن تستدر فضوله :

ـ كل واسكت .. رزق ساقه الله بين يديك فلا تبحث عن مصدره .

إنما أبحث عن مصدر علّني أركض إليه رأساً دون أن أنتظر أن يمر على هؤلاء ..!

وأشار إلى اخوته الذين استهوتهم معابثه . فقالت الأم وهي تزيد من إثارته :

ـ ذلك سِرٌ لن تصل إليه أسنانك ..

وسكتت قليلاً ثم أضافت :

ـ ... إلا عن طريق الميمة ..

وأراد أن يعبر عن اعترافه بجميلها فسارع إلى يدها يقبلها بفم مليء بما يأكل ، وقال وبقايا الجوز تتطاير من فمه :

ـ الله يخليك لنا .. نحن لا نساوي شيئاً بدونك .

واستدر حنانها ، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقبله في وجهه وذاكِرتهـا تعود إلى الوراء : كان المرحوم لا يترك فاكهة إلا أغرقنا بها . وكان ـ علي ـ وهو صغير يشبع جوزاً وتمراً وبلوطاً وكاوكاو دون أن يشعر كما يشعر الآن بالحرمان.. وعادت إلى نفسها لتخفي دموعاً عن الأطفال لم يتبينوها على ضوء الشمعة الباهت ، وهتفت إلى نفسهـا في همس لتعبر عن رضاها : ولكن الحمد لله .. ورفعت عينيها إلى السقف وهي تضيف : هناك في السماء رب لا ينسى اليتامى ..

سمع علي كلمة اليتامى فانبعث أمام ناظريه في ظلام الغرفة منظر الأم ذات الثدي الأعجف العاري والطفل يمتص في جهد دون أن يندى بلبن . وفكر في أن يشرك أمه واخوتـه في هذا الذي رأى وأخذ يقول :

ـ آلميمة في الرصيف شاهدت ..

توقفت الكلمات في فمه وهو يشهد تطلع اخوته إلى قصة يحكيهـا فانهم يجدون تسلية فيما يحكي من قصص الطريق

وفيما تحكي الأم ، وأشفق على أمه واخوته فأكمل القصة على غير ما بدأ :

ـ ... دكّاناً يبيع كثيراً من الجوز والتمر واللوز ..

فأكملت الأم جملته مبتسمة لتخرج بالأطفال من جو الألم :

ـ .. والكرموص والزبيب .. أليس كذلك ..؟

ضحك علي وقال :

ـ أنت تعرفين كل الدكاكين.. لعلك مررت به في طريقك ومنه تسوقت ؟

أجابت الأم :

ـ الله يخلف على صاحب الخير .

ـ من هو صاحب الخير هذا آلميمة ..؟ عرفيني به ، فإني بحاجة إلى صديق ..

وأجابت الأم آسية :

ـ ستكبر وتثري وتصبح من أصحاب الخير .. ربنا يجعل أيديكم هي العليا .

ـ ومع ذلك أريد أن أعرف صاحب الخير هذا ..لا شك انه رجل طيب .

وقدرت الأم شوق علي إلى معرفة مصدر ما أتت به من جوز ، فقالت لترضي هذه الرغبة :

– دار سيدي عبد السلام الإدريسي ، كنت الموم عندهم أغسل الثياب ، وللاّ حفصة – الله يلقي وجهها للخير – لم يفتهـــا أن تذيقني من بركة مول البلاد مولاي ادريس .. الشرفاء يأتيهم خير كثير في الموسم : اللحم والشمع والجوز والتمر وما شئت من بركة جدهم ..

ولم يدعها علي تنهي جملتها فقال مقاطعاً :

– أي نعم .. التمر مع الجوز دائمـــاً لا يفترقان ، مثل النجاص مع التفاح ، والبرقوق مع المشماش ..

قاطعته الأم قائلة :

– .. الله يجعل بالـنـا مع الله[1].. اتركني أنهي حديثي.

– ولكني كنت أنتظر التمر .

– مرة أخرى إن شاء الله .

ولاحظت تطلع الأطفال إلى بقية الحديث فقالت :

– .. للا حفصة أعطتني مع الصبيبة بركة الموسم حتى لا تفوتكم البركة ، قولوا الله يخلف على صاحب دارها ..

قال الأطفال بصوت واحد كأنما يرددون لازمة نشيد :

– الله يخلف .

(١) جملة مغربية تقال للذي يشغل فكره كثيراً بملذاته .

وقال علي مجاهراً :

– الله يخلف على الذي اشترى الجوز وأهدى للضريح فأكل سيدي عبد السلام وللا حفصة .

وضحك وهو يضيف :

– وأكلت الميمة (وهو يشير إلى أخوته) وللا كنزة وللا عيشة وسيدي الجيلالي (وهو يشير إلى نفسه مغرقاً في الضحك) وسيدي علي .

نظرت الأم إليه شزراً كأنما لم يعجبها حديثه الجريء الفضولي ، ولكنه لم يلتفت إليها وإنما استمر يفكر دون أن يتحدث بالذي فيه يفكر :

– لعله المعلم فضول أو المعلم عبد القادر هو الذي اشترى الجوز من حُرِّ ماله وأهداه للضريح .. ولعله من المال الذي كسبه بجهدي وجهد الحياني والجامعي وحق البرنوصي وكل المتعلمين ..؟ وهتف مجاهراً :

– ايه .. الزَّرْع يدور ثم يدور ويعود إلى عين الرحى[1]

وقالت الأم :

– ما لنا وحديث الزرع والرحى الآن ؟.. أما تزال تحن إلى أن تكون رحوياً ؟

(١) مثل مغربي يعني ان الاشياء تعود إلى مصيرها أو أصلها .

فأجاب علي مُداهنا وهو يخشى إثارتها بالذي يفكر فيه :
– لا .. وإنما كنت أفكر في الموسم ..

وتذكر حديث الطرد وتهديد المعلم عبد القادر . كان يود أن يلقي عبء المشكلة على أمه فاطمة ، وما تزال الحيرة تلفه بدوامتها ، ولكنه وقد أفلت منه ذكر الموسم تشجع وقال :

– ما رأيك آلميمة ، هل سيكتب لي أن أشهد موسماً آخر أسير فيه مع الذبيحة وأهتف من أعماقي : اللهم صل على النبي صاحب المعراج .. محمد مول التاج ..؟ لو رأيتني يالميمة وسط الركب .. كان صوتي يعلو على أصوات الآخرين ..

– ولم لا يا بني ..؟ الله يفتح بصيرتك للخير ، وتبقى في دار الدبغ حتى العام القادم وتشهد الموسم الذي سيكون ولا شك أروع من الموسم الحالي .. ألا تعرف كم لك من أجر وأنت تسير في ركب الذبيحة لمول البلاد ..؟

فكر في الذي قالت أمه وأجاب ضميره دون أن ينطق لسانه :

– أي أجر..؟لم أزد على أن شهدت موسماً حافلاً وساهمت في مسيرة رائعة .. (وتذكر ففكر ساخراً) وكان «أجري» أربع وحدات من الجوز أهدتها للا حفصة لأمي .. لأنها ولا شك غسلت غسيلاً أكثر مما أخذت من أجر ..

وعاد إلى واقعه فسأل الام :

– ماذا – مثلاً .. أعني مثلاً – لو فكر المعلم عبد القادر في الاستغناء عني .. عن عملي ..؟

دهشت الأم للسؤال فهي تعرف علياً حينما يضمر أكثر مما يظهر ، وفتحت فاها مروّعة ، وثبتت عينيها في وجهه لتكتشف ما تحت لسانه دون أن تستطيع النطق . أدرك عليٌّ أنه روّعها فقال ملاطفاً :

– مالك منفعلة ..؟ أنتم النساء ..

قاطعته بشيء من العنف :

– قل الحق .. ضيعت مرة أخرى عملك ..؟

أجاب منكراً :

– أي فأل هذا ..؟ ألا تفكرين فيما هو أجمل : أدركت منزلة لدى المعلم مثلاً ، أصبحت صانعاً ، نلت أجراً اضافياً ..؟

– أمارة الدار على باب الدار [1] .. لو لم تكن مطروداً أو مهدداً بالطرد لما جاء ذكر ذلك على لسانك ..

---

(١) مثل مغربي يقال أحياناً للسخرية .

ثم اكتست لهجتها حِدّةً وهي تضيف :

– اسمع يا علي : لقد تعبت من مشاكلك .. هـذه المرة خُضْ بَحْرَك ، لم تعد صغيراً .. ليس لي أن أبحث لك عن عمل وقد أصبحت رجلاً .. أين أضع وجهي من جارنا سيدي التهامي وقد بحث لك عن عمل يظهر أنك لا تستحقه .

فقال علي وقد نفد صبره :

– أووه .. لو ظننت أنك ستتوهمين السوء لما سألتك . كان قصدي أن أسألك الرأي فيما يتحدث به الحياني والجامعي وكل المتعلمين .

– عم يتحدثون ..؟ اترك قُرناء السوء يا بني ..

– ليسوا قرناء سوء ، فهم يتحدثون مثلاً عن .. عن .. اننا ينبغي أن نتحد حتى نقف في وجه المعلمين أو ينصفونا مثلاً ..

وفكرت فاغرة فاها في هذا الجديد الذي يهرف به ، لم تفهم معنى لكلمة « الانصاف » التي ترد لأول مرة على لسانه ، ولم ينجدها تفكيرها بشيء ، فقالت نافدة الصبر :

– يا ابني انتبه لعملك، واترك عنك الكلام الذي لا يجديك نفعاً . ثم أضافت مهددة :

– أسمعت ..؟

لم ينطق وإنما انبعث أمام ناظريه البرنوصي . وحدق في أمه طويلا حتى اختفت صورها لتحل محلها صورة البرنوصي ، ثم تختفي صورته ليظهر وجه أمه مغموماً كالحاً ، ثم يختفي وجه أمه ليظهر وجه البرنوصي بسيطاً متبلداً مُكباً على العمل ..

ضاقت الأم بالصمت .. ولم يجد هو مجالاً للحديث فصمت طويلا مصراً على ألا يفتح حديثاً لا ينير طريق الحيرة التي يتخبط فيها. وتطلع إلى وجوه الأطفال فكانت ناطقة بالاهتمام، فالحوار الجاد الذي دار بين أمهم وعزيزهم كان يبعث على الاهتمام دون أن يفهموا شيئاً من معنى هذا الحوار . خيم على الغرفة جو ثقيل لم يستطع نور الشمعة الباهت أن يخفف من ثقله . وبدا لعلي أن يغادر المنزل ليتنفس هواءً نقياً منعشاً لولا أن أمه قالت لنفسها وهي تغرس يدها في الحشية مستعينة بذلك على القيام هاتفة آمولاي إدريس :

ـ أقوم لأسخن العشاء .. لقد أذنت العشاء .

وتراجع علي عن فكرة الخروج فان كلمات أمه ذكرته بأنه جائع .

- ١٥ -

« غلطة أخرى وتعرف الباب قفاك »

هذا هو عنوان المعلم عبد القادر كما أصبح يراه علي ! كلما دخل الدار في الصباح ـ وقد أصبح يصحو من نومه قبل أمه ـ رأى في وجه المعلم عبد القادر التهديد الصارم الذي لا يحمل معنى الرحمة ، وكلما انحنى على اليد القوية يقبلها قبلة الصباح أو قبلة الوداع عند المساء قرأ على صفحتها الصفعة التي ارتسمت على خده والمعلم عبد القادر يهدده بالطرد . لقد أصبح يخشى

المعلم عبد القادر كما لم يخش أحداً في حياته . كان المعلم التدلاوي قبله عنيفاً قوياً حريصاً على الوقت ، ولكنه كان يجد في علي صديقاً في كثير من الأحيـــان يتحدث إليه ويبادله الرأي ويستمع إلى قصصه ويضحك لحماقاتـــه حتى ليشعره بأبوته . وحينما يعنف كان يشعر لعنفه طعم الأبوة التي تعنف في كثير من الأحيان ، وهذا ما لم يشعر به مع المعلم عبد القادر قط .

وبدأ يحسب لخطواته حسابها : يحاول ألا يغلط ، ويرضي المعلم فيطيل قبلة الصباح والمساء وينحني أكثر مما تتطلبه اليد التي لا ترتفع لفمه . ويتطلع في فضول إلى كل ما يقوم بـــه الصانع التباع فيقلده أملاً في أن تكون تصرفات الصانع كلهـا مرضية .

ولكن الحياني ما يزال يجتذبه بأفكاره . انه الشاب الذي يجد عنده نفسه وفكره وقلبه حينما يتحدث إليه عن حقوق المتعلمين ومستقبلهم . واقترب منه مرة فوجده يتحدث عند احدى القصريات إلى عمر المتعلم الجديد عند المعلم الشباني وكان يبكي لأن الصانع ضربه على قفاه ضربة أشع منها نور بين عينيه ، وقد أخطأ :

– لماذا تبكي ؟ أنت رجل .. إنسان مثله ، وإذا ضربك اليوم فلن يسمح له القانون غداً بضربك .. كفكف دموعك واستمد شخصيتك ..

فكرة أخرى تعلمها من الحياني : القانون لن يسمح ..
ولكن من هو القانون هذا ..؟ وأين هو ..؟

وانتظر عند المساء حتى فرغ الحياني من عمله وخرجا معاً من الدار ـ وقد حرص على ألا يراه المعلم عبد القادر يخرج مع الحياني فيعتبرها إحدى غلطاته المنتظرة ـ تردد طويلاً قبل أن يسأل الحياني ، ولكن الحديث بينهما جرى في طريق سهلة حتى قال الحياني :

ـ مسكين عمر.. كان يبكي بكاء يمزق الأحشاء .

فسأل علي دون مقدمات وقد تشجع بحديث الحياني عن عمر :

ـ ومن هو « القانون » الذي قلت إنه لن يسمح بضربه ؟

ضحك الحياني من أعماقه ، وكان ضحكه بين السخرية والاشفاق، على سؤال ينبىء عن بساطة وجهل. ولكنه تذكر أنه هو الآخر لم يكن يعرف معنى « القانون » وفوجىء بالكلمة حينما سمع الفقيه عبد العزيز يتحدث بها إلى الصانع التباع في خلوتهما بغرفة دار الدبغ بعد أن أظلم المساء وفرغت الدار من المعلمين والمتعلمين . لقد فاجأهما وهما يتحدثان عن أشياء كثيرة بعيدة عن الدباغة :

ـ أنتم هنا تسيرون بلا قانون ينظمكم ويضبط سير أعمالكم.

ـ ومن سيضع القانون ؟ المعلمون ، وقد عاشوا حياتهم منذ كانوا متعلمين لا يعرفون ما هو القانون ؟ أم نحن الذين لا حق لنا إلا أن نكون مساعدين ؟

وفكر الفقيه عبد العزيز قبل أن يجيب :

ـ القانون عادة تضعه الدولة الرشيدة بمساعدة ممثلي العمال، ولكننا هنا نعيش في غيبة الدولة .

ـ إذن لا أمل في أن يكون لنا قانون ينظم عملنا ويحمي جهودنا ..

وفكر عبد العزيز طويـــلاً ، لا يستطيع ان يقول : لا أمل ، ولا يجد مخرجاً من السؤال الحرج الذي وضعه الصانع . وهو هناك ليحل المشكلة لا ليعقدهـا . وتطلع الصانع التباع وتطلع الحياني إلى الحيرة مرتسمة على الوجه الجاد . وجذبتهما الجدية والحيرة ليطيلا النظر في وجه الفقيه وقد كانا يريان فيه النور الذي يضيء الطريق : طريق المشاكل . وغمرته الحيرة فأمسك بشعر شاربه بين وسطي يمناه وسبابتها يعبث به بين شفتيه . ولم ترتفع عيناه من أرض الحجرة المتربة ، وقد كان لا يرفع عينيه من الأرض حينما يغمره التفكير ويظلم الطريق أمامه ، وفجأة لمعت عيناه وارتسمت ابتسامة على وجهـه ، وبدأ يبحث عن الكلمات الواضحة يقرب بهـــا الفكرة إلى التباع والحياني . وسأل :

ـ أليس لكم أمين يفصل بين المتخاصمين ، ويفتي في كل ما يتصل بالصناعة ؟

وأضاف الصانع التبّاع :

ـ .. ويحترمه المعلمون ويستشيرونه ..

وقال عبد العزيز :

ـ تلك إذن طريق البداية . إن الأمين يعني نقيب المعلمين، فلم لا يكون لكم إذن نقيب ، أنتم الصناع والمتعلمون .

سكت الحياني فقد كان يكتفي بالاستماع وقال الصانع التباع وقد ازدادت حيرته :

ـ ولكن الأمين يكون من أكبر المعلمين وأوفرهم جاهاً ومالاً ..؟

أدرك عبد العزيز الحيرة التي تستبد بالتباع فقال موضحاً :

ـ ..أما النقيب فسيكرن من بينكم تنتخبونه من أحسنكم خلقاً وأعلمكم بشؤون الحرفة وأقربكم إلى الثقافة وأكثركم جرأة في الدفاع عن حقوقكم .

ـ ولكن ما للنقيب هذا وللقانون الذي يحمي حقوقنا ..؟

فأضاف عبد العزيز :

ـ .. ويدافع عن مصالحكم ..

وظل السؤال حائراً في وجه التباع .

كان عبد العزيز وهو يلقن تلاميذه من الصناع والمتعلمين الذين يؤلف منهم خلايا للحركة هنا وهناك يوجههم إلى الادراك بأنفسهم فلا يلقي الفكرة إلا إذا دفعهم إلى الوصول إليها ، أو السؤال عنها بعد أن يدركوا . وأكثر ما كان يسر حينما يصل عضو الخلية إلى الفكرة ولا تبقى إلا تفاصيلها وحل مشاكلها . وحينما ألقى التباع السؤال أدرك عبد العزيز أنه وصل إلى الهدف فبرقت عيناه بالأمل وقال :

ـ ليس النقيب هو الذي يضع القانون ، ولكنها النقابة .

وانفتحت عيون التباع والحياني أقصى ما تستطيع أن تنفتح ، فقد فاجأتها كلمة « النقابة » أكثر مما فاجأتها كلمة « النقيب » من قبل . وأدرك عبد العزيز سر المفاجأة فابتسم وهو يثبت عينيه الذكيتين في عيونها ، وقال وهو يبحث عن الكلمات في شيء من التردد :

ـ هل فاجأتكما بجديد ..؟

واتسعت ابتسامته حينما توقفا عن الإجابة دون أن يدريا بماذا يجيبان . وقال ببساطة :

ـ النقيب هو رئيس النقابة . والنقيب ليس « أميناً » مطلق التصرف كالأمين ..!

فأكمل الحياني جملته :

ـ فضول ..

ـ ولكنـه يعمل ضمن مجلس منتخب منكم . المجلس هو الذي يسير النقابة ، والصناع والعمال جميعاً أعضاء فيها ..

اصطدمت أذنا الحياني بكلمـة العمال وبدا التساؤل على وجهه فقال عبد العزيز ـ وقد أدرك ـ مبتسماً :

ـ فهمتك .. العمال هم المتعلمون ..

وسر الحياني بهذا التفسير ، فقـد كانت أحاسيسه جميعها تشعر بالضعة وهم يطلقون عليه متعلم: عائلته، أمه ، زملاؤه ، أصدقاؤه ، معارفـه في الشارع كلهم يسمونه متعلماً . وكان يعرف أن كلمـة المتعلم لا تحمل احتقاراً ، ولكنه حينما كان يمارس مهنة متعلم ، بكل تبعاتها ومتاعبها وخوفها والاحتقار الذي يمارسه أحياناً المعلمون للمتعلمين، كان يشعر بأنها طبقة ، أو هي دنيا الطبقات في عـالم العمل . في الدار كانت تأتي طبقة المعلمين ثم طبقة الصناع ثم طبقة المتعلمين . وهذه أيضاً تمارس فيهـا الطبقية ، وما زال الحياني يذكر كيف كان « غشيماً » يتلقى ضحكات الزملاء وسخرية الصناع وصفعات المعلمين ، وكان يدفع ضريبة الغشمة من حر جهده وقوة شبابه فيحمل عليه الثقل كما يحمل على الحمـار الغشيم ، ويطلب إليه أن « يشتف » على الجلود في الجيار أو القصرية أو الصهريج ،

ويحمل قفة الجير وكيس النخالة وربما حمل عن الحمار عدلي الدباغة وتاكاوت من باب الدار ـ إذ لم تكن الحمر تستطيع أن تدخل مدارج مدخل الدار اللزجة مخافة أن تتزحلق فتنهار تحت ثقلها ـ حتى مخزن البضاعة . ثم انتقل إلى صف المتعلم العادي يشتغل دون أن يحمل عليه ، فقلت عند ذلك السخرية منه وتضاءلت الصفعات على قفاه . وها هوذا يرقى الطبقة العليا من بين المتعلمين فيكسب احترام الصناع حتى أنه يجلس مع التباع مجلسه ذاك ، ويسمع الأمر العادي وأحياناً الكلمة الطيبة من المعلمين .

خيل إليه والفقيه عبد العزيز يعطي لطبقته اسم « العمال » انه ارتفع درجة أخرى فأصبح « عاملاً » بعد أن كان « متعلماً »

قال التباع وقد بدأت الدروس التي يتلقاها تغم عليه :

ـ ولكن « القانون » من يضعه ..؟

ابتسم الفقيه عبد العزيز ، وقال وهو يشعر بالانتصار في الميدان الذي يعالجه ؟

ـ مالك « مقلق »[1] ؟ ستعرف من يضع القانون ؟ بل ستساهم أنت نفسك في وضع القانون ..

---

(١) من القلق وهي تعني : مالك مستعجلا .

أحس عبد العزيز بأنه خلق بهذه الكلمة شخصاً جديداً من التباع. فقد بدا السرور على وجهه الطيب، وابتسم ابتسامة عريضة ساذجة كما لو كان طفلاً تلقى هدية ثمينة ولم يجب ولم يسأل : كيف .

فقد أحس بالخجل كأنه استصغر نفسه أن يكون في يوم ما من واضعي القوانين .

وقال عبد العزيز وهو يزيد من رفع مكانة العاملين :

ـ المهم أن تفكروا جدياً في تكوين النقابة .

وسأل الحياني وقد بدأ يجرأ على الحديث :

ـ التّبّاع وأنا نكون نقابة ..؟

أحس عبد العزيز انه أمام طفلين ساذجين، وبدا عليه نوع من التضايق حمل التباع على أن ينظر إلى الحياني بشيء من الاستنكار . وتدارك عبد العزيز تضايقه ، وأحس بما قد يكون وقر في نفس التباع من سخرية أو احتقار للحياني ، فقال موجهاً الحديث للتباع :

ـ لا .. اتركه يسأل ، فالذي لا يسأل لا يستطيع أن يتعلم .

ثم توجه بالحديث إلى الحياني :

ـ لقد بدأت تدرك .. أنت والتباع تكونان النقابة ..

ولكن ليس وحدكما . فالنقابة يجب أن تضم كثيراً من العمال : صناع ومتعلمين كلهم يجب أن ينضموا إلى النقـابة . وتؤلفوا جميعاً نقابة لعمال الدباغة تضع القانون وتفرض وجودها وإرادتها على المعلمين وعلى الحكومة ، وتدافع عن حقوق العمال وترعى مصالحهم وتفرض الأجور الضرورية لعملهم ، وترد كل عامل طرد إلى عمله .

* * *

وجد الحياني الفرصة مواتية ليجيب علياً وقد سأل عن القانون :

ـ تعرف النظام الذي تسير عليه دار الدبـغ ..؟

وفكر علي طويلا ثم أجاب :

ـ نعم .. أعرف .

ـ ذلك قانون وضعه المعلمون ولم يكتبوه ، يحققون به مصالحهم . ونحن العمال ..

وأدرك انه أخذ يستعمل كلمات من الصعب أن يفهمها علي فاستدرك :

ـ .. أعني نحن المتعلمين يجب أن نضع قانوناً يحمي مصالحنا ويدافع عن حقوقنا ..

ولم يفهم علي شيئاً . فقد غم عليه الموضوع وسكت دون

أن يسأل . وأضاف الحياني وقـــد أدرك أن علياً دخل في منطقة الظلام :

ـ ستفهم كل شيء .. وستعمل بنفسك على تحقيق كل شيء بعد أن تُكوَّن النقابة ..

وسكت قليلاً ثم أضاف :

ـ ستكون عضواً فيها .. أليس كذلك ..؟

سكت علي ولم يجب بشيء حتى قال الحياني مرة أخرى :

ـ ستكون طبعاً من بين أعضائها المهمين .

وفكر عني طويلاً وانبعث في نفسه الأمل الذي طالمـــا راوده . كان يأمل أن يكون في يوم ما من بين أعضاء فرقة كرة القـــدم يصول ويجول في باب الحمراء لولا أن أمه كانت تنهاه عن أن يكون صعلوكاً .. فهل ستنهاه أيضاً عن أن يكون عضواً في النقابة باعتبارهـــا نقابة الصعاليك ..؟ ترك السؤال يجول في فكره وانتقل بسرعة إلى حديث الحياني ، وسأل بعفوية :

ـ وهل سيكون أيضاً الجامعي معنا ..؟

فأجاب الحياني :

ـ سيكون الجامعي والبرنوصي وعمر .. و .. حمدوش ، و .. التباع .. و ..

هتف علي ببساطة :

ـ حمدوش .. والتباع ..؟

فقال الحياني بثبات وقد أدرك ما وقر في نفس علي :

ـ نعم حمدوش والتباع وغيرهم .. كلنا عمال نعيش في وضعية يجب أن نرفعها .

افترق الزميلان وفي ذهن كل منهما حديث النقابة . ولكن فكر علي كان مليئاً بالغموض والتناقض . النقابة ستكون للدفاع عن حقوق المتعلمين .. وحمدوش الذي كان احتقاره له وتهديده اياه أول ما تلقاه من دروس العنف في الدار .. والتباع الصانع ـ أو المعلم الصغير كما اعتاد المتعلمون أن يسموا الصناع ساخرين ـ سيكون هو الآخر عضواً في النقابة ؟

ولكن الحياني قال ذلك .. وهو أعرف .

ـ آلميمة .. آلميمة ..

دخل علي المنزل وهو ينادي أمه كما لو كان يحمل إليها خبراً ساراً فخرجت من غرفتها تتقي صيحاته :

ـ اس .. اسكت .. سيدي سلام رجع إلى غرفته (ثم هامسة) والجيران لا يحبون من يقلقهم .

وانكتم علي وهو يفكر :

ـ اسكت .. اسكت .. دائماً اسكت .. في الدار :

اسكت .. في دار الدبغ : اسكت .. نحن الصغار لا حق لنا حتى في الحديث جهراً ولو كنا في منزلنا أو مكان عملنا .. بقي أن يمنعوا عنا الحديث جهراً في الشارع ..

وأجاب نفسه ساخراً :

ـ اسكت آالمنحوس قد يسمعونك ويفعلون ..

ثم أجاب أمه هامساً :

ـ اسكتنا .. يا للا .. هل الحديث جهراً يوجع الدماغ ؟

وكانا قد وصلا إلى الغرفة والأطفال يلعبون ، فلما رأوا عزيزهم كفوا عن اللعب واستقبلوه باشين . وقالت كنزة، وقد بدأت تجد الحظوة لدى علي :

ـ آعزيزي .. ماذا تراك حملت إلينا من حلوى ..؟

فابتسمت الأم وقد أثارتها عاطفة حنان ، واحتضنها علي وطبع على خدها قبلة حرى ، وأجاب :

ـ آلغزالة حينما يندي ذاك المعلم وتجود يده سأحمل لك حلوى لم تأكليها في حياتك .

وقال الجيلالي وعائشة في صوت واحد :

ـ وأنا ..؟

ـ وأنتما أيضاً سأحمل لكما حلوى كبيرة .

وارتاحت الأم لعاطفة الأخوة التي شهدتها بين أبنائها وسألتهم ضاحكة :

ـ هل تذيقونني من حلواكم ؟

فأجابوا بصوت واحد :

ـ نأكلها جميعاً آلميمة .

وقالت الأم موجهة الحديث إلى علي :

ـ الله يعطيك ويمتعك يا ابني .. وتحمل إلينا كل ما نشتهي .

وفكر علي يائساً ، ولكنه تغلب على يأسه وقال :

ـ إن شاء الله سأجعلكم جميعاً أسعد الناس .

لم تجب فاطمة وإنما اغرورقت عيناها بدموع الفرح والأمل واحتضنت علياً وطبعت على جبينه قبلة وهي تدعو هامسة :

ـ الله يفتح بصيرتك للخير .

ارتفعت معنوية علي بهذا الحديث الودي ونسي الصدمة التي واجهته حينما دخل المنزل ينادي أمه . وتذكر ما كان يريد أن يفضي إلى أمه به فابتدرها قائلاً :

ـ آلميمة .. ما رأيك في الحياني ؟

ـ أنا يا ابني لا أعرفه .. ولكن حديثك عنه يشعرني بانه شاب طيب .

ـ الحياني تحدث إلي اليوم عن تكوين النقابة لتدافع عن حقوقنا نحن المتعلمين .

وفغر الأطفـــال أفواههم ، وقد كانوا يتتبعون حديث أخيهم بانتبـــاه ، فقد سمعوا كلاماً لم يفهموه . وفغرت الأم فاها،فلم تكن تختلف عن أطفالها في انها لم تفهم هي الأخرى. وكان حرياً بعلي أن يفغر فاه هو الآخر ، فقد كان يتحدث بحديث لم يفهمه . وقالت الأم :

ـ الله يجعل خيراً يا ابني .. أنا لم أفهم شيئاً .

وكاد علي يجيب .

ـ وأنا أيضاً لم أفهم شيئاً .

ولم يترجم الشعور بخيبة الأمل الذي أصابه حينما لم يجد عند أمه فهماً لحديثه ، ولكنه استمر قائلاً :

ـ الحياني يقول: اننا سنكوّن النقابة وستضع قانوناً يحمي مصالحنا ويدافع عن حقوقنا .. وسأكون أنا عضواً فيهـا .. افرحي يا أمي .. سأكون عضواً فيها ..

وغُمَّ على الأمّ ، ولكنها لم تستسلم للجهل ، وتخيلت ان النقابة دار عمل مكسبها أحسن من مكسب دار الدبغ فقالت:

ـ وماذا ستشتغلون فيهـا ؟ هل المعلمون فيها أكثر جُوداً ..؟

فتحت متاهات مظلمة جديدة أمام علي وأدرك انه عاجز عن الإجابة ، واستغرقه التفكير فيما كان يقوله الحياني . وبدا على الأم انها تستبطىء الجواب . وأخيراً نطق :

– لا .. النقابة فرقة يكوّنهـــا المتعلمون .. أعني الذين يخدمون في دار الدبغ حتى الصانع التباع وحمدوش .. –ذلك المتعلم الذي يبدو كالغول – لتدافع عن حقوقهم .

وحملت كلمة « فرقة » الأم إلى ما كان يحدثها به أحيانـاً عن فرقة الكرة بباب الحمراء ، وغمرها تفكير مظلم ، وأخيراً نطقت آسية :

– يا ابني اشتغل في عملك وقم بما يكلفك به معلمك وابعد عما يغضبه عليك .

– ليس في هذا ما يغضبه ..

– ليس فيه إلا مـــا يغضب .. في المرة الماضية أتيت لي بحديث « الانصاف » وماشي « الانصاف » واليوم « النقابة » وماشي[1] « النقابة » .. وغداً ماذا ستحمل إليّ من حديث ؟

وفكر علي مرة أخرى في البرنوصي .. ويئس من أن يجد عند أمه مفتاح ما يغمض عليه من مشاكل . وصمت .. صمت

---

(١) وما شيء اسمه الانصاف كأنه تساؤل يحمل معنى الازدراء لمـــا يتساءل عنه .

طويلاً حتى بدا أنه نسي الموضوع . وليخرج من صمته ويحرر نفسه من ثقل الغموض الذي يعيش فيه هتف بأمه :

– أبوا العشاء أذنت ..؟

– إذن نقول : الله أكبر ..

ولم يخف عليه انها تندد به ، فقد كان يجب أن يصلي ولم يخف عليها انه يقصد إلى انه جائع يريد أن يتعشى . ولكنها قامت لصلاتها ، وبعد الصلاة كان العشاء .

-١٦

- آعلي .. آعلي ..

سمع هتـاف المعلم عبد القارد من غرفته في الطبقة الثانية بدار الدبغ فأجاب وهو يرفع رأسه ، ورجلاه غارقتان حتى فخذيه في قصرية الدباغة :

- نعـ...م

وأطل عليه الصانع التباع يستعجله :

- اغسل يديك وأطرافك واصعد .

وتحرر من القصرية – التي تزكم الأنف – بكثير من الغبطة ، وذهب يركض إلى السقّاية ليغسل أطرافه وهو يغني بهمس : أحب عيشة الحرية . خرج من السقاية يقطر المـــاء من وجهه وأطرافه جميعاً وهو ينفض قطراته في عنف. وصعد عند المعلم وقد كان في شغل يعد الجلود المدبوغة ، يضع كل مجموعة منهـا في مكان يساعده في ذلك الصانع التباع . لم يلتفت إليه المعلم عبد القادر ، ولم يجرأ هو أن ينبهه إلى مجيئه ، وإنما انتظر في تطلع إلى مـــا سيكلفه به حتى إذا فرغا من تصنيف الجلود ووضع كل مجموعة منها في مكان ، التفت إليه المعلم عبد القادر قائلاً :

– هوذا أنت .. هل قدمت ..؟

لم يجب علي فهو يعرف ان المعلم عبد القادر يسأل أحياناً أسئلة لا جواب عنها . وأضاف المعلم :

– تعال – الله يرضى عنك – ستحمل هذه المجموعة إلى المعلم الصفار الخرّاز[1] – تعرف معمله طبعاً – .

فأجاب علي مؤكداً :

– ذاك الذي حملت إليه منذ أسبوعين البضــاعة ..؟ في المشاطين ؟

---

(١) صانع البلغ .

– أي نعم ذاك هو .. واحرص على أن يدفع لك ثمنها .

– كم سيدفع لي ؟

– هو يعرف .. اسمع ، ولكن اياك أن تقبل منه أقل من ثلاثمائة ريال ..

وردد علي :

– ثلاثمائة ريال .

ثم أخـــذ يردد سراً : ثلاثمائة ريال ، فان الرقم الكبير الذي لم يسمع به إلا مرات معدودات حري أن يطـــير من فكره . ولكنه سرعان ما تلفت إلى نفسه متسائلاً في سره وقد أدرك معنى الرقم :

– ثلاثمائة ريال ..؟ يا له من قدر مهول ..؟

واتهم نفسه بأنه لم يستمع جيداً .. ثم وجد نفسه يكرر الرقم في عفوية دون أن يتلعثم لسانه .. وعاد فاتهم المعلم بانه غلط أو بالغ دون قصد ، وفكر :

– أسأله عن حقيقة الرقم ..؟ لا ، سيثور في وجهي فمثل المعلم لا يغلط .. ولماذا كان معلماً ؟ لأنه لا يغلط .. لا ، يجب أن أسأله حتى لا أقع أنا في غلط .

وصمم على أن يلقي السؤال :

– قلت : ثلاثمائة ريال ..؟ أليس كذلك ..؟

ونظر إليه المعلم شزراً ، وأخذ الصانع يهز رأسه إيجاباً دون أن ينبس ، وكاد المعلم أن ينفجر لولا أن خشي أن يسمعه زملاؤه ، وكل منهم يعمل في غرفته الخاصة ، وطامن من صوته وهو يقول :

– هل أُحَدِّثُ إنساناً أم حماراً ..؟

تذكر علي حماره القديم وقال لنفسه :

– الحمار نفسه يفهم ، وقد فهمت لولا اني أردت أن أتأكد .

وأضاف المعلم :

– أين عقلك ؟ ثلاثمائة ريال .. احفظها كما يحفظ الأطفال لوحهم في المسيد .

« لم أحفظ لوحاً في حياتي » هكذا فكر، ومع ذلك فهو يذكر الرقم كما يذكر جيداً انه لم يمسك به في حياته . وقال مؤكداً :

– ثلاثمائة ريال .. اني أذكر جيداً آسيد المعلم .

وقال المعلم بعد أن تأكد من أن علياً لن ينسى الرقم الذي سيطالب به المعلم الخراز :

– أما هذه المجموعة فستحملها إلى مولاي أحمد الدلال .. أتعرفه ..؟

وكان علي قد استخدم فكره عندما سمع الاسم وتذكر

ملامح الرجل جيداً فهو يعرف انه سيمتحن . ولم يكد المعلم ينطق : أتعرفه ..؟ حتى أجاب على الفور :

– أعرفه جيداً .. الرجل الشايب اللي ما عنده سنان ويلبس نظارتين سميكتين يحملها بخيط يعقده في عمامته ..

كاد المعلم أن يبتسم .. أما الصانع التباع فقد كاد ينفجر ضحكاً من الصورة الدقيقة التي أملاها علي وكأنه كان يعدها من قديم . ولكن المعلم أعجب هذه المرة ببديهة علي الحاضرة، وتأكد انه ليس حماراً ، وليزيد في امتحانه سأله :

– وأين ستجده ؟

وأجاب علي بسرعة :

– في سوق الجلد .. في القنانبيين فإن لم يكن هنـــاك فسأجده في فندق الجلد عند المعلم أ.. أ..

وأنقذ الموقف الصانع التباع فقال :

– المعلم ابن علال .

وقال المعلم عبد القادر :

– بالضبط .. الله يرضى عليك .. قل له : – على لساني – بعها .. ولا أقل من ثلاثمائة وخمسين .

وصمم علي ألا يقع في خطأ أو شبه خطأ فكرر الرقم :

– ثلاثمائة وخمسون .. المعلم الصفار : ثلاثمائــة ومولاي أحمد الدلال ثلاثمائة وخمسون ..

وقال المعلم عبد القادر مشجعاً :

ــ أيوا هكذا آلرجل .. أما هذه المجموعة ..

وفتح علي فاه دهشاً فسيحمل على رأسه ثلاث مجموعات كما لو كان حماراً حقيقياً . ولكنه كتم مشاعره بسرعة ، ولو ان فكرة اختلاط المجموعات قد راودته . وليظهر استعداده بدأ يهز رأسه ليبرهن عن وعيه والمعلم يضيف :

ــ .. هذه المجموعة : أذكرها جيداً .. أحملها إلى المعلم الصادقي ولا تقل له شيئاً ، ولا تطالبه بشيء .. أفهمت ؟

أجاب علي وفكره في الثّقل الذي سيحمله .

ــ فهمت جيداً لن أطالبه بشيء.

ونظم الصانع التباع المجموعات على رأس علي بحسب الطريق التي سيمر منها . وأمسك علي بمجموعات الجلد من أطرافها بيدين قويتين ، فهو يعرف ان « قرداً » منها قد يفلت بسهولة إذا ما تساهل في الإمساك بتلابيبها . وخرج من الدار ينوء بحمله وقد نسي الأغنية التي طالما هتف بها لسانه : أحب عيشة الحرية . فليست حرية هذه المسؤولية « الثقيلة » التي يتحملها . وفكر في الطريق القصيرة ، ولكنها مزدحمة بالمعلمين والصانعين والمتعلمين والتجار وأصحاب الحرف المختلفة وبكثير من العاطلين الذين يَفِدُون على الأسواق علهم يجدون عملاً : حملاً يحملونه ، أو مساعدة يقدمونها فإن لم يجدوا

فسيغنمون ساعة يقضونها ، بعيدين عن الفراغ الذي يعيشون فيه طوال حياتهم ، متفرجين في حركة السوق .

تلاشى الحماس الذي أظهره حينما ناداه المعلم ليخرج من العمل في الدار إلى العمل في السوق ، فليس سهلاً أن يؤدي المهمة التي كلفه بها : المعلم الصفار سيأخذ البضاعة ، وسيقول له : بيني وبين المعلم . ماذا سيصنع به المعلم عبد القادر لو لم يعد إليه بثلاثمائة ريال كاملة ..؟ يناقشه الحساب ..؟ يخاصمه ؟ يطالبه بشدة ؟ يعيد البضاعة إلى صاحبها ؟ هل يعيدها له المعلم الصفار ..؟ وهتف لنفسه بصوت مسموع :

– وآينى حصلة ..!؟ [1]

وغمره التفكير :

وإذا لم أجد مولاي أحمد الدلال ؟ طبعاً أعيد المجموعة إلى المعلم .. لست مسؤولاً .. ولكن من يقنع المعلم بأن الدلال لم يكن هناك ؟ سيتهمني قطعاً بأني قصرت في البحث عنه .. واليوم يوم مهم في السوق فهل سيقبل المعلم ألّا تباع البضاعة اليوم ؟ قطعاً سأجده .

واصطدم في بداية شارع المشاطين بزحام .. واستمر يفكر :

---

(١) أية مشكلة هذه ..!؟

بداية الزحام .. ماذا حينما أصل إلى السبطريين والقنانبيين وقال لنفسه بصوت يكاد يكون مسموعاً:

– أحضر أطرافك لا يطيروا لك بشي فردة ..[1]

وبدأ يهتف بصوت جهوري يطلب إفساح الطريق :

– آبالك الله يرحم والديك .

كان صوته يصدر وراء ستار من الجلود تتدلى على حافتي رأسه تكاد تستر وجهه وتكتم أنفاسه . ولم يكن يرى من الشارع إلا مواطىء أقدامه . كان يسير بحذر وكل فكره متجمع في الحمل الذي يثقل رأسه . ولم يكن أحد يستمع إلى هتافه ولكنه ألف كسائر الذين يحملون حملاً أن يهتفوا بجماع أصواتهم : « آبالك الله يرحم والديك » كأنهم يريدون أن يُشْعِرُوا الآخرين انهم أنفسهم آخذون بالهم مما يحملون على ظهورهم أو فوق رؤوسهم ، ولكنه وقد انتصف مع شارع المشاطين – فيما كان يحس – بدأ فكره ينتقل إلى قدميه وهما تَتَحَسَّسَان مع الطريق مكان مَعْمَل المعلم الصفار . لا يمكن ان يسأل أحداً عنه فإنّ أحداً لن يستمع إليه وسط الزحام، ولكنه سيهتدي إليــه بحاسته السادسة التي تسعفه حينما يغم عليه الأمر . لم يهتد ، توقف قليلاً وهو يحاول أن يزحزح عن عينيه ما يتولى عليهما من فردات الجلود ، ولكن حماراً داهمه

---

(١) انتبه حتى لا تسرق منك واحدة .

وهو يحمل حملاً ثقيلاً وَحمّاره من ورائه يهتف بأعلى صوته :

– آبالك .. آبالك ..

– حتى إذا اقترب الحمـــار منه وهو متوقف ، هتف به الحَمّار ..

– آبالك من ثلمة آذاك الحمار الله يـ ..

وأكملها سباباً فاحشاً .

وانفلت علي من بين عنق الحمار وحِمْله في اللحظة التي كاد يلقيه على وجهـــه ، واضطربت الجلود فوق رأسه ، وكادت تقع وسط الطريق لولا أن اقترب بها من الجدار فانفلتت منه وهو يسندها بركبتيه وبطنه جميعـاً . ومرق الحمار والحَمّار وسط الزحام . ولم يعد لوجوده إلا أصداء عابرة لقوائمه تخبط أحجار الطريق الناتئة بصفائحها الحديدية، وإلا أصوات الحمّار وهو يهتف :

– آبالك .. آبالك ..

انطلقت عيناه في الطريق تلاحقان الحِمار والحَمّار وهما يبتعدان ، وارتدتا إليه بعد لأي مغرورقتان بدموع الهزيمة . وهتف من أعماقه بصوت لم يسمعه غيره :

– والله لو لم تكن هذه الجلود بين يدي ..

وتوقف ، فهو يهـــدد ولا يدري ماذا يستطيع أن يصنع بحَمّار مفتول الساعدين قويّ البِنْيَة كما بدا له من وراء .

أنسته الجلود المتدحرجة بين يديه وركبتيه وبطنه جميعاً والجدار ، أنسته هزيمة الحمار الذي داهمه ، والتفت إليها يلم شعثها وقد اختلطت مجموعاتها ، فألوانها جميعاً « زوانيـة »[1] وأصنافها واحدة أو تكاد. وبدأ يصنفها وسط الزحام الذي يزداد شدة ، وحاول أن يهتدي بالخِبرة التي اكتسبهـا . وداهمته الحيرة وهو يتحدث إلى نفسه :

– هذه مع هذه .. لا .. لا .. هذه مع تلك .

ويعد المجموعات فلا يهتدي لعددها .. لم يحدثه المعلم ولا الصانع عن عدد كل مجموعة .. ولكن الشيء الذي لا يشك فيه أن فرداً منها لم يضع منه .

طال به الأمد وهو يصنف المجموعات حذراً أن تمسهـا لوثة من وسخ الطريق أو تدوس عليهـا رجل قذرة من هذه الأرجل التي تعبر الطريق حافية أو ببلغ ممزقة ملوثة كالحافية. وهتف أخيراً إلى نفسه وهو يغالب دموع الألم :

– لتكن هذه مع تلك أو تلك مع هذه فهي سواء ..

نظم الجلود واحدة فوق الأخرى كيفما اتفق ، وحملها على رأسه بعد أن تبين الطريق وعرف المسافة التي تفصله عن معمل المعلم الصفار . وبدأ يسير رويداً لصق الجدار – الذي تناثأ آجرُّه – حتى وصل إلى فندق المشاطين حيث يوجد معمـل

---

(١) لون الجلود الذي تصنع منه البلغ يشبه لون قشر الليمون .

الصفار واجتاز مدخل الفندق في زحام شديد بين قوم يحملون قرون الأبقار والثيران[1] يعرضونها للبيع ، وآخرين يحملون الأمشاط بائعين أو مشترين ، وآخرين يحملون الجلود أو البلغ أو القنب أو «الطحال» وفي غمرة السوق وهرجه والأصوات المتطايرة المرتفعة من هنا وهناك كان حذراً أكثر مما كان حذراً في الطريق ، فهو يخشى أن ينسل فرد من الجلود وسط التدافع بالمناكب ، ولو انه لم يعد يخشى أن يداهمه حمار يحمل ثقلاً كثقله أو أكثر حملاً . وفي جهدٍ عنيف صعد الدرج المتآكل المتهاوي في الفندق العتيق ، ووقف عند باب معمل المعلم الصفار يسأل عنه فلم يجده .

– اترك السلعة هنا فالمعلم ذهب لسوق السباط .

قال ذلك متعلم جالس وراء «قرميله[2]» منهمك في صنع بلغة يكاد يفرغ منها . أرسل كلماته باقتضاب ، وخفض رأسه في جد ينهي عمله . ووجد عليّ نفسه أمام مشكلة استغرقت فكره :

– أترك مجموعة الجلود للصانع وقد ألح عليّ عبد القادر أن أسلم المجموعة للمعلم الصفار وأستلم ثمنها ؟

---

(١) تصنع منه المشط وتباع عادة في سوق الشاطين .

(٢) القرميل مائدة صغيرة ثقيلة تقوم على ثلاث قوائم يضرب عليها الجلد عند صناعة البلغ منه .

– لا .. هذا لا يتفق مع تعليمات المعلم .

– أذهب بها أطوف الأسواق في هذا الزحام الشديد ..؟

وذكر مداهمة الحمـــار له ، وفي الأسواق غيره من الحمير كثير . لم يهتد إلى حل ، وانتظر أن يجده عند المتعلم فسأله:

– ومتى يعود المعلم الصفار ؟

ألقى سؤاله وكأنمـا ألقاه في بئر عميق لم يرد له صدى ، فإن المتعلم تجاهله وهو منهمك في عمله ، وظل ينظر إليه فى صبر عله ينبدى بجواب حتى يئس ثم عاد يسأله :

– ألم يترك ثمن هذه البضاعة معك ؟

وزاد المتعلم في تجاهله وهو يطرق بعنف على « القرميل » حتى نفد صبره وقال بصوت جهوري :

– معك أتحدث .. ألم تسمعني ..؟

فرفع إليه المتعلم عينين مثقلتين بما يشبه الاحتقار ثم خفض رأسه دون أن ينبس . وظل علي صامتاً يأكل قلبه الغيظ ولم يطق صبراً فنطق مرة أخرى :

– هذه بضاعة معلمك .. أسألك إذا كان سيعود أو ترك ثمنها ..؟

ورفع المتعلم رأسه وهو ينفخ متأففاً :

– اوف .. لست عاطلاً مثلك .. عندي شغل ، عمل ، ألا ترى ..؟ ليس لي وقت أضيعه معك ..

– بضاعة المعلم الصفار .. أنت مسؤول عما يصيبها .

وبكلمة المسؤولية استدر بعض انتباهه ، ففكر ملياً ثم أجاب :

– المعلم ليس هنـــا ، وبوسعك أن تتركها أو تنتظر حتى يعود .

– متى يعود ؟

وزاد المتعلم في تعذيب علي وهو يجيب :

– ومن يدري ؟ الغائب حجته معه ، يمكن أن يعود بعد انتهاء السوق عشاء ويمكن أن يعود صباحاً .. ويمكن ..

وصمت المتعلم فظن علي ان وراء « يمكن » حلاً للمشكل فسأل :

– ويمكن ماذا ..؟

– يمكن أن يفتح الله عليه في البضاعة التي حملهـــا إلى السوق فلا يشتغل غداً ولا بعد غد ولذلك لن يعود إلا صباح السبت ..

هكذا أجاب المتعلم ساخراً ، وهو يعرف انه سيزيد في حيرة علي . وانتهى من إعداد البلغة التي كانت بين يديه ، وقام من مكانه يخبط وجه فردة منهـــا على وجه الاخرى في اعتزاز فخوراً بأنه انتهى من عمله ، ينظر إلى علي في شموخ كأنما يريد أن يقول :

- أرأيت ..؟ اني معلم ، صانع ، ولست متعلماً ..

ونظر إلى البلغة في إعجاب وهو يقول بصوت مسموع :
- يا سعد من يلبسك ..!

ثم التفت إلى علي وهو يقول :
- ماذا قررت ..؟ أنا خارج وسأقفل باب المصنع : تتركها ، أم تعود أدراجك ، أم تنتظر على الباب ..؟

فتح السؤال أمام علي ثلاث اتجاهات كلاها تسير نحو الضلال فأخذ يفكر . واستبطأه المتعلم فأضاف :
- أسرع .. سأذهب بالبلغة إلى السوق قبل أن ينفض .

قالها وهو يتجه إلى الباب يحمل القفل ليضعه في الخرصتين المتراكبتين .

وانتهى علي من تفكيره بسرعة وأجاب :
- لا .. أتركها في ذمتك . أخبر المعلم الصفار انها من عند المعلم عبد القادر .. ثمنها ثلاثمائة ريال .. لا أقل من ذلك أبداً .. سأعود لآخذ الثلاثمائة .

وقال المتعلم وهو يقفل باب المصنع في اشمئزاز :
- لا تـَمَوِّدْ لي خَرَايف[1] ..!

ترك علي مجموعة المعلم الصفار وحمل حمله وأخذ ينزل الدرج

---

(١) لا تحك لي خرافات ..!

المتداعية المتدحرجة في حـــذر مخافة أن تزل به قدمه حتى انتهى إلى وسط الفندق وقد ازداد الزحـــام شدة ، وتلمس طريقه إلى الباب تصدمه المناكب القوية دون اعتذار. منكباه لا يستطيعان دفعاً ولا صداماً ، فهو حريص على الحمل فوق رأسه مخافة أن يفلت منه فرد أو يختل تنسيقه ونظامه .

ولم يكد يفلت من سوق المشاطين حتى انتهى إلى سوق الصفارين تغمره ضوضاء المطارق وهي تنزل على طناجير النحاس وورقات الصفر وتعود فتصطدم بالسندان كأن لها معه ترة ، رائحة قوية تزكم الأنوف يتصاعد دخانهـا من نيران ملتهبة في كل دكان من دكاكين تبييض النحاس . رجال يحملون طناجر ضخمة فيها يطبخ القِـدّيد اسودت ظهورها من دخان الحطب ، يتقيهم المارون في حذر فيفسحون لهم طريقاً تتسع سعة الحمل الأسود الذي يمتطي رؤوسهم وظهورهم ، دلالون يبيعون الطناجر والمصافي والحلل والمهاريس القديمة ، أطفال يسيرون في غير اتجاه تلهب أرجلهم الأحجار الناتئة من أرض مهترئة ، وعلي يسير وسط هذا التيـار الجارف حَذِراً أن يمس جلوده طائف من سواد الطناجر أو تمتد يد صناع لتسلبه إحداها .

وفي ميدان الصفارين انطلق صوت مذياع بالأغنية التي طالما رَدَّدَ أحد مقاطعهـــا : أحب عيشة الحرية .. وهتف علي إلى نفسه :

– وأية حرية هذه التي أعاني منها ..!

أسلمته ساحة الصفارين الواسعة إلى ممر « السبطريين »
حيث يتكاثف الزحام ويلتقي الدلالون بالصانعين والبائعون
بالمشترين،هو عنق زجاجة يمر منه الصناع والعاملون والعاطلون
من سوق إلى سوق . كان علي يعرف انه سيمر بفترة امتحان
فليس من السهل أن يجتاز الممر الضيق بسلام وهو يحمل حملاً
ثميناً . ألجأه الزحام إلى جدار متآكل ، وكاد يهوي ما يتدلى
على قذاله لولا انه تماسك،ولولا أن أيد حسبها رحيمة امتدت
لتساعده حتى خرج من الأزمة . تمرس على الزحام فلم يكن
ليفاجأ بسوق القنانبيين ، وما كاد يعبر ساحة السبطريين
ـ حيث يتجمع كل علم المدينة في المكتبات المتقابلة ـ حتى
أخذ ينادي بصوته المتصاعد من الأعماق :

– آمولاي أحمد الدّلّال .. آمولاي أحمد الدلال ..

أقرب طريقة يصطنعها الباحثون عن الرجال في الزحام
الشديد ، بين الأصوات المتلاطمة المنادية ، من خلال الضجيج
الذي تثيره الخصومات والمناقشات الحادة والمقايضات
والمساومات والمطالبة بالأداء ، ترتفع أصوات المتعلمين الصغار
تنادي المعلمين والدلالين والمشترين والبائعين .

لم يهتد علي إلى مولاي أحمد الدلال ، وذرع السوق صاعداً
نازلاً وهو ينادي ، يصطدم ببائع قنب وحامل طحال ودلال
جلد ، وعاطل يمد يده :

– آلمعلم .. آذاك البركة . هدية لوجه الله .. والله ما عندي عشاء أطفالي .

وتقف الكلمة في فمه . فقد اصطدم بوجه يعرفه ، انه معلمه القديم.ينحني على كتف المعلم مقبلاً في خجل وهو يقول:

– هذا ما كتب الله .. لا خدمة لا ردمة آلمعلم .. الله يجعل البركة في وليداتك ..

وينفحه المعلم على استحياء وهو يهتف لنفسه :

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..

لم تضع نداءات علي هبـــاء فقد اهتدى مولاي أحمد إلى الصوت المنادي من بعيد، أخذت أذناه تتلمسان مصادر الصوت وتتبعان هوجاته ، وعيناه تبحثان –خلف نظارتين سميكتين– الوجوهَ المتعارضة ، واقترب أخيراً من مصدر الصوت فأخذ يهتف :

– أين أنت .. آلبلا .. آحلق الزمارة ..؟

وبدأ النداء يبتعد مرة أخرى فاضطرب مولاي أحمد ، فقد أدرك ان صوته الضعيف لم يصل اذني علي وأخذ يستغيث:

– آلمعلم .. أمسك بالولد المنادي .

سلم علي البضاعة إلى مولاي أحـــد الدلال وهو يتنفس الصعداء فقد آن للمجموعة الثانية من الجلد أن تنسحب لتخفف العبء عن رأسه .

– المعلم عبد القادر يقرأك السلام .. بـع هـــذه المجموعة ولا أقل من .. انتظر .. اصبر .. يا ربي ذكرني في الشهادة..

ونسي علي الرقم ولكنه أخذ يستعيد ذاكرته وهو يحك جبهته كأنما يستدرها التذكـُّر.ثم أخذ يقول بصموت مسموع:

– ثلاثمائة للمعلم الصفار .. أيوا .. ثلاثمائة وخمسين لمولاي أحمد الدلال ...

وهتف به مولاي أحمد وهو يضربه على قفاه ضربة رفيقة:

– قل مولاي أحمد وكفى .. الله يعطيكم البلا . مولاي أحمد البلغيش العلوي .. مرة أخرى لا تقل الدلال أبداً .

أمسك مولاي أحمد بالمجموعة وأخذ يعدها .. أخذ علي طريقه يبحث في ذاكرته عن معمـــل المعلم الصادقي ليسلمه المجموعة الثالثة ، واضطرب مولاي أحمـــد وهو يعد ويقلب المجموعة بين يديه .

– واحد ، اثنين ، ثلاثة .. ناقصة فردة ، تعال أين أنت أيها الشيطان .

بهت علي ومولاي أحمد يواجهه بان المجموعة ناقصة، وتطلع في وجهه يبحث عن صدق ما يدعي فلم يجد غير لحية كثة بيضاء تضطرب في انفعال ، وبصاق يتطاير من فم أهْتَم ، وكلمات متقطعة مضطربة :

– اللي تسحر مع الدراري كيصبح فاطر[1] يعلمونكم طويلاً ويجدونكم شقفات[2] .. أين أضعت الفردة ؟

لم يحر علي جواباً وإنما عاد بذاكرة أثقلتها الكارثة إلى طريقه يبحث عن الفردة الضائعة . وذكر الأيدي الرحيمة التي امتدت إليه تساعده في زحام السبطريين.. تجمدت عيناه في وجه مولاي أحمد ولم ينبس، ولكنهما لم تصمدا فاغرورقتا بدموع الهزيمة ، وانسحب ومولاي أحمد يقول :

– اعقل .. اذكر جيداً ، لم تحمل إلي غير ثلاث فردات.

(١) لا صيام لمن يتسحر مع الأطفال .

(٢) جمع شقف : قطعة من فخار أو زجاج مكسورة لا تصلح لشيء.

-١٧-

– ايه كلمت سيدي التهامي ..؟

كذلك هتف علي لأمه وهو يحاول عبثاً أن يُطامِن من صوته ، قالت أمه نافدة الصبر :

– قلت لك ألف مرة : لا ترفع صوتك ، العالم كله يستمع إليك .. لا تفضحنا ..

ونظر إليها علي – وقد احتدت أعصابه – شزراً ، ثم قال بصوت مسموع يحاول أن يكتمه :

– هل أنا امرأة ..؟ صوت النساء لا يسمعه الرجال .. نعم .. أما الرجال ..

ونظر إلى قامته وقد بدأ يصف نفسه بأنه رجـــل ، واستمر يهدر :

– .. الرجال صوتهم مسموع .. ليس عيباً .. أفهمت..؟

ضاقت فاطمة بهــذا التحدي فقالت وهي تقصد إلى أن توقف تحدّيَه :

– لو كنت رجلاً لما وضعتني في هذه المواقف .. لكنت احتفظت بعملك في دار الدبغ ..!

– ما تزالين تقولين : عملي في دار الدبغ ..؟

وكادت الأم تختنق فخرجت من الغرفـــة وهي تغصّ بدموعها . تبعتها كنزة وعائشة ووقفتا بجانبها وهي تتشاغل بتافه العمل لتطرد قوّة الاختنـــاق . ووقف الجيلالي بجانب أخيه وهو ينظر إليه في ألم ، يطمع في أن يفعل شيئاً ، أن يقول شيئاً ليخفف عن أخيه حدة المعاناة . ولم يشعر علي بغير الوحدة القاتلة ، فقد طالت مدة البطـــالة منذ طرده المعلم عبد القـادر ، وما زال يجلس إلى أمه فلا يجد عندها حلاً ، وما زالت تملأه غمّاً وهي تتحدث عن قلة العمـــل فلا تكاد تعمل يوماً حتى تتعطل يومين ، وهي تحدثه عما كان ينفحها به من مال قليل – هو كل اجرته في دار الدبغ – يساعدها على

ان تفي بالتزاماتها في لقمة خبز للأطفال وفي كراء غرفة في منزل مشترك بين الجيران ، وهي تصعّد آهات أخرى تفضح الآلام الداخلية التي أصبحت تعانيها منذ عاد إليها في اليوم المشؤوم ليخبرها بأن المعلم عبد القادر قد نفذ وعيده بعد أن عبث ـ بالرغم عنه ـ في مجموعات الجلود وسرقت منه فردة من بينها . ثم ما زال يخرج إلى الشارع وتذهب به رجلاه في طريق دار الدبغ ، ولكنه لا يستطيع الاقتراب منها إلا بمقدار ما تقترب رائحتها من أنفه فتجد لها من بعيد طيب العطر ، ويقف يناجي أولئك الذين احتلوا أمكنة مكينة من قلبه : الحياني، الجامعي ، البرنوصي ، حتى المعلم عبدالقادر والصانع التباع .. وترتد عيناه عن جدران الدار السامقة وقد تجمع فيها كل قلبه ليعود دون أن يدري ، تقوده رجلاه نحو « بين المدن » : يصخب النهر في أذنه ، قاذوراته ومياهه العنيفة تتكسر على الصخور الضخمة وهي صامدة لا تريم . ويُطِلُّ على النهر ليشهد المياه الهادرة والبُخار المتصاعد يحمل كل ما تتجشأه المدينة . ويذهب بخياله مع المياه وهي تجري بين الصخور لتمر بفتحات الطاحونات تمدها بطاقة قوية بها تدور . ويحلم وهو منكب على النهر بالطاحونة التي علمته الحياة ، بالمعلم التدلاوي وهو يدير الغربال بين يديه ، بأكياس القمح وهو يحتضنها بين ذراعيه ، بأكياس الدقيق وهو يحملها على ظهره قبل أن يضعها على ظهر الحمار .. وتسلمه رجلاه في

غير وعي إلى باب الطاحونة يقف متوارياً وراء الجدار المتآكل، هدير الرحى يصل إلى أذنيه رتيباً كما لو كان قطعة موسيقية يرددها حاك قديم . يرهف أذنه متسمعاً النغم الرتيب الذي طالما ألهب أحاسيسه . وينتفض لصوت التدلاوي وهو يصدر تعليماته للمتعلم :

– صيّر[1] القمح آلحمار .. أمسك بالغربال بين باطني كفيك آلمشمع[2] .. ضع عارضاً في فتحة النهر ليخفف من قوّة الطاحونة آلـ ..

وتجتذب أذنيه خطوات سريعة خفيفة تخبط حصوات الطريق الناتئة في عنف . انه يعرف هذه الخطوات معرفة جيدة، ما يزال يذكرها كما لو لم تفارق أذنيه لحظة . ويتلفت نحو منعطف الشارع فيظهر صديقه القديم : الحمار وقد ركبه متعلم جسور يهمزه بقدميه ويخبط عنقه بعصا غليظة وهو يهتف به :

– آرا .. آرا .. الله يلعن الحمير .

يقف الحمار بباب المطحنة وقد غادره راكبه، ويحاول

---

(١) صَيَّر : غربل القمح وأداره في الغربال لينزع عنه ما اختلط به من حصا وغيره .

(٢) المشمع في الدارجة المغربية : المغلق الذي لا يفهم شيئاً كأن عقله طمس بالشمع .

علي أن يشير إليه .. أن يهمس إليه من بعيد .. قلبه يهفو إليه ، يَوَدُّ لو قبّله .. ولكن الحمـار في شغل بمزود نخالة يلتهمها في التذاذ . ويفكر علي :

– نسي كل صداقتنا .. لم يذكر حتى ساعة الوداع وأنا أقبل عنقه وخدّيه جميعاً .. الحمـار يبقى حماراً .. لو كان حيواناً آخر ، كلباً مثلاً لذكرني لقفز عندي يلثم وجناتي .. ولكني لا أعمل إلا مع الحمير .. حتى صداقاتي لا تصلني إلا بالحمير ..

ويعود مغموماً ودويُّ الرحى يفغم أذنيه بنغمه الرتيب ، من درب إلى درب ومن شارع إلى شارع .. والنهـاية : باب الحمراء .. الساحة الفريدة التي يسَع قلبها للعاطلين والمحرومين واللاهين والجادين والمشعوذين ولاعبي الكرة ولاعبي « الاين » و« الملا » والخذروف «الطرينبو» . يضيق الشباب والرجال والأطفال بحياتهم في المدينة الضيقة فيرتادون الساحة الواسعة المغبرة الشهباء ، تحتضنهم جميعاً دون أن يضيق عِطنُهـــا بأصدقائها. وقد أصبح علي من هؤلاء الأصدقاء بعد غيبة كادت تطول هي المدة التي قضاها في دار الدبـغ .

بجانب الأطفــال من لاعبي « الاين » يقف منفعلاً متربصاً يتابـع اللاعبين في شغف وشوق وأصابعه ترتعش كأنما تريد أن تمسك هي الأخرى « بِإينَة » أو « بوش » لامِـع ممـــا بين يدي الأطفال . وهمَّ أن يلعب لولا أنه لا يملك ما يشتري به

إينا ولولا أن الأطفال الذين يلعبون دون سنه بكثير. ولكنه لم يتخلف عن إبداء الرأي كحَكَم وتوجيه النصح والحكم بين المتنازعين في كثير من الأحيان .

ويقف بجانب لاعبي « ألـمَلاَ » وقد افترش كل اثنين منهم أرضاً ، وفرق كل منهما ما بين فخذيه في وضع متقابل ليكوّنا ميداناً تتحرك فيه اليدان بالأحجار الصغيرة المتراصة المتطايرة، ترمي بإحداهـــا إلى أعلى لتجمع الأصابع في خفة واحدة ثم اثنين .. ثم هي جميعاً . ويقف علي وقد فغر فاه كما لو لم يكن قد لعب « الملا » من قبل . يود أن يلعب مع اللاعبين، ولكن مع كل لاعب منافس ، وهو الوحيد الذي لا يعرف أحداً في الساحة الفسيحة ، ويسأل نفسه وقد أضنته الغربة :

– تراني نزلت من سمـــاء أو نبعت من أرض لا يكاد أحد يعرفني في دنياي هذه ..؟

وتملُّ نفسه الفرجة في اللعبة المتكررة فينصرف وقد أغراه حماس جمهور يرتفع صوته بالتشجيع تارة والشماتة تارة ، تقوده رجلاه في تؤدة وقد بدأ العياء والجوع يأخذان منه مأخذه . انها جماعة تلعب بالخذروف (طرينبو) ، يملك كل لاعب منها خذروفاً خرَطه خرّاط ماهر من خشب الزيتون ركبته سن حادة لمّاعة ، يقذف به اللاعب وقد لوى عليه خيطاً ينطلق منه كقذيفة موجهـــة إلى هدف هو خذروفُ مُلاعِبِـه .. ويصيب الخذروف الهدف أو يخطئه ، ويدور ويدور وهو

يتمايل كما لو بات في خمارة ، ويعلو الهتاف كلما أصاب الهدف أو طال الدوران أو مال على جانبيه ثم استقام ثم مال ..

ولا يطمع علي في غير الفرجة المجّانية ، فلعله لم يلعب من قبل بالخذروف إلا خذاريف الأطفال الصغار التي تباع بأرخص الأسعار عند بقال الحي .

ويسعى إلى هذه الحلقة أو تلك من حلقات رواة قصص « سيف بن ذي يزن » أو صراع سيدنا علي والغول . ويسمع القصـــة في شوق ويرفع يديه إلى فمه يقبلهما ويمس بأطراف أصابعه جبهته ثم يعيد تقبيلهما كما يفعل المشاهدون كلما ذكر اسم النبي سيدنا محمد ، ويتمتم بفمه وهو لا يدري بم يتمتمون، إلا أنه يذكر أن أمه تقول كلما ذكر النبي : صلى الله عليه وسلم ، فيقولهـا وهو يعتقد ان المشاهدين لا شك يهتفون بالصلاة على النبي كلما سمعوا اسم النبي كما تفعل أمه . وتأخذ القصة بمجامع قلبه وهو يتتبع الصراع بين البطل وخصمه حتى إذا جـــاء دور النصر أو الهزيمة توقف القصاص وهو يهتف بالمشاهدين :

ـ اللي يحب النبي يصلي عليه .

ويصلون على النبي وهم يقبلون أطراف أصابعهم ويرفعونها إلى جباههم ، حتى إذا اطمأن إلى أنهم ارتبطوا بالصلاة على النبي بادَرَهُم :

ـ ومرضى الوالدين يحك جيبه ويضع هنا ـ وهو يمد قدحاً ـ فرنكاً أو حسنياً أو حتى قرشاً ، كل على قدر استطاعته .

وتمتد الأيدي إلى الجيوب لتنفح القصّاص مما أعطى الله ، وينسل الذين لا يملكون من بين الجمهور ، ويبدأ علي يتراجع لينسل هو الآخر . والقصاص يعرف ان بين جمهوره متسللون فيناديهم في جرأة :

ـ مساخيط الوالدين سيذهبون .. لا يحبهم النبي ولا يحبونه .. صلوا أنتم على النبي .

وتهدر الجموع المتحلقة بالصلاة على النبي، وفي قلوب المتسللين حسرة فإن جيوبهم لا تمكنهم من البقاء .

كل ما في جو الساحة كان تحضيراً للّعبة الكبرى . كان الجمهور يتجمع وسط الساحة الواسعة ليتجه الذين كانوا يحتمون بالجانب الظليل منها ـ وقد بدأت الشمس تزول ـ إلى وسطها وينسل الذين كانوا يتحلقون حول « الفداوي[1] » أو حول بائعي الأدوية والأعشاب ، يتركون نداءاتهم المغرية بلهجتهم الصحراوية :

ـ آذوي .. آذوي .. دواء لكل عاقر، لكل ضعيف ..

---

(١) الفداوي حاكي الأزليات والقصص .

يدفىء العظـام ويفتح الشهية ويقضي على المتاعب .. ويعيد الرجولة .

نداءات أخذت تضيع وسط الساحة المترامية الأطراف ، ولم يعد أحد من روادها يتجه إلى قصّاص أو « صيدلي » أو ملعب الاين أو الخذاريف ، وإنما اتجه الجمهور جميعه إلى ملعب للكرة وقد أحاط به في شكل بيضاوي كما لو كان ملعبـاً منظماً ، وبدأ أفراد الفريقين ـ العَدْوة واللّمْطيـين ـ يفدون بسراويلهم القصيرة غير المنظمة وألبستهم المختلفة اللون والشكل ، كل كان يلبس ما وجد . وجاءَ الزهر والنيكرو ورابح وفتح والحَايِل والبرق أسماء عرفتها ساحة اللعب ولم تعرفها دنياهم ومنازلهم ، ولكنهم كانوا معتزين بها . وأصوات من جمهورهم تنادي من بعيد :

ـ آلزهر .. أرنا اليوم حنة يديك[1] .. آلنيكرو آولد .. حمر وجهنا اليوم ..

ويبتسم « النيكرو » بوجهه الأسود الجميل وأسنانه البيضاء اللامعة وهو يقفز في دلال معتزاً بقدميـه الدقيقتين وعضلاته القوية . ويقفز رابح من بعيد في تَحَدٍّ وجمهوره يهتف به :

ـ الربح .. الربح ..

---

(١) أرنا مهارتك

وينطلق صوت من بين الجمهور :

ـ إياك والهزيمة ..!

ـ لا تخف (ويضيف معرضاً بمنافسيه) لست « شماتة ».

يشتد الجـــدل بين الجمهور فيتعصب فريق إلى اللمطيين ويتعصب فريق إلى المدويين، ويأخذ الجمهور في تصنيف نفسه فيتجمع أنصار العدوة في جـانب ويتجمع أنصار اللمطيين في جانب ، وتبدأ هتافات التحدي من صفوف هؤلاء وأولئك :

ـ اليوم ذبيحتكم ..

ـ ها ها ها .. لن ترفع العدوة رأسها بعد اليوم ..

ـ ماذا تعرفون حتى تعرفوا لعب الكرة ..؟

وتنطلق القهقهات في جو من التحدّي ولكنه يكاد يكون ودياً. ويقطع الحَكَم هذا التراشق بالنكت وهو يرمي قرشاً في الفضاء من بين وُسْطَاهُ وإبهامه ، وتنحني رؤوس اللاعبين في فضول إلى الأرض باحثة عن الجـانب الذي يقترحه الحَظ ليكون مواجهـاً لأشعة الشمس المائلة إلى الغروب . ويبدأ اللعب في جو من الصخب والعنف بـــين فرقتـين من الهواة كل منهما تطمع في أن تكون مرشحة يوماً للقسم الوطني الثاني.

كان علي وهو يتابع لعب الاين والملا والخذروف ويستمع إلى قصص الفدَاوي ويتتبع حكاية الصيدلي عن دوائه العجيب

الذي يشفي من كل الأمراض ، وينابع المقابلة الرياضية ، كان يعيش مع هؤلاء جميعاً دون حماس . فلأول مرة كان يشعر وهو يتابع الكرة بأنه غريب عن ميدانها ، ولم يعد أحدٌ من أبطالها يستفزه أو يدفع به إلى إعجاب . وحتى الزهر بحركاته الرشيقة ومراوغاته التي كانت تنال إعجاب أنصار فرقته وخصومها ، والتي كانت تستقر في وعيه فتجعله يتطلع إلى أن يكون في يوم ما كالزهر خفة ورشاقة وقدرة على اللعب، حتى الزهر هذا لم يكن يثير فيه حماساً ولا انبهاراً كما كان يفعل من قبل . كانت مشاهدته لكرة القدم هوايةً ينطلق إليها من ذات نفسه فيندمج في جو اللعب ويعيش مع أبطالها وهم يتحركون ويناضلون ويراوغون ، ولكنه الآن يشاهد الكرة وقد ساقته قدماه دون أن يعي . انه طريد العمل والفراغ والتشرد ومناكفة الأم وشماتة بعض الزملاء وغضبة المعلم عبد القادر ، فكيف يعيش مع الكرة بقلبه وقد ترك قلبه في دار الدبغ بين الجيار والقصرية والصهريج والمغطس ؟

وانتهى اللعب فأسلم رجليه إلى حركة آلية لا يكاد يتحمس لغالب أو يرثي لمغلوب . أخذ طريقه لا يدري إلى أين ، ولكن الذي يدريه ان رجليه ستسلمانه أخيراً إلى الغرفة الثاوية في الظلام بين أم تسأله : أين كنت ؟ ولم تركت عملك؟ واخوة ينظرون إليه في إشفاق كأنه مجرم يستحق الرثاء .

بدأ الظلام يخيم على المدينة ، وقد أحاطت بسمائها أشعة

لازوردية تركها غروب خريفي تخترق سحباً متفرقة لم تتمكن بعدُ من أن تطبق على المدينة ، ولكن أنوار الأشعة الزاهية كانت تختفي كلما أغرق علي في النزول مُنحدِراً إلى أعماق المدينة بين الجدران المتآكلة المتصاعدة المطبقة على الزقاقات والدروب والمباري الضيقة . أسرجت مصابيح الطرق كابيةً خابيةً ضعيفة ولكنها تتيح للمارين أن يسلكوا سبيلاً واضحاً . ومن بعيد طرق سمعَ علي صوتٌ مسموع يهتف لشخص آخر :

ـ الله يهنيك .. غداً أمر عليك في مثل هذا الوقت .

عرف الصوت ، ولم يلبث أن تبين صاحبه ـ وقد تلفت نحوه ـ على ضوء مصباح لا يكاد يبين :

ـ الحياني ..؟

كذلك هتف علي من أعماقه كما لو فوجىء بصديق لم يره من سنين .

ـ علي ..؟ هو أنت ..؟

واحتضنه الحياني مدفوعاً بالإشفاق الذي ما زال يغمره منذ أن طرد المعلمُ عبد القادر علياً في غير رحمة ولا شفقة . تأثر حتى طفرت إلى عينيه دمعتان حارّتان ، ولكنه وأدهما في المهد واصطنع ابتسامة عريضة وهو يمسك به من ذراعيه :

ـ أين أنت..؟ اشتقنا إليك يا علي .. ماذا تعمل الآن..؟

أطلق أسئلته دون أن ينتظر جواباً فهو يعرف كل شيء عن مصير علي الذي لا يختلف عن مصير أي شاب لا يجد عملاً أو طرد من عمل . وانساق علي برغبته في أن يتكلم . فمنذ خرج في الصبح لم يحدّث غير نفسه ولم يسمع صوته أحدٌ غير أذنيه :

ـ أنا هنا في الشارع .. أخيط الدروب والزقاقات[1] .

وضحك وهو يضيف ساخراً :

ـ كنت أتسلى في باب الحمراء : كرة و « ملا » و « أين » و « طرينبو » والفداوي و « هاذّوا .. هاذّوا » ..

ضحك الصديقان ولكن أمارات الحزن بدت واضحة في عيني الحياني فحاول أن يعيد شيئاً من الثقة إلى نفس علي :

ـ لو كنا وصلنا إلى تكوين النقابة لما استطاع أن يمسّك بسوء .

وأجاب علي يائساً :

ـ وإلى أن تتكون النقابة سأظل أخيط الدروب والزقاقات ..

دارى الحياني حزنه وهو يقول :

---

(١) مثل مغربي : « فلان يخيط الدروب ويعود الزناقي » كناية عن البطالة والسير في الطرق على غير هدى .

ـ لا يا علي..أنت شاب صغير وستشتغل وتنتج في عملك.. أعدك أن أبحث في دار الدبغ سيدي موسى عند المعلم ابن رحمون أو المعلم أ .. أ .. يا رب فكرني الشهادة..السالمي.. لا بد أن نجد .. اعتمد عليّ ..

ذكر علي كلمة أمه التي ترددها عشرات المرات ، فأجاب وهو يودع الحياني :

ـ الإعتماد على الله .

تابع الحياني طريقه وليس في فكره غير مأساة علي . وقد ألحت عليه المأساة فأخذ يفكر :

كلنا معرضون للطرد ، ماذا ارتكب علي ليُطرَد ؟ خلط الجلود وسرقت منه جلدة ..؟ ومن منا لا يقع في خطأ كهذا ..؟ ولكنهم المعلمون .. لو لم يجدوا متعلمين يحرثون على ظهورهم[1] .. يحملونهم فوق ما يطيقون في دار الدبغ : في الجيار ، في المغطس ، في القصريات ، فوق السطح ، تحت الأرض ، في الشارع ، في السوق ، لو لم يفعلوا ذلك لما كانوا معلمين .

وتوقف تفكيره قليلاً فتوقفت رجلاه عن السير كما لو كان يحاول أن يستمع إلى شيء من بعيد .. كأن هناك شيء ينبع

---

(١) تعبير مغربي يعني : يستغلونهم ويستعبدونهم ويستفيدون من عملهم.

من منبـع غائر يهمس َتوْأَدَةٍ وهدوء .. ثم بدا الحيـاني كمن يتحدث إلى نفسه وهو يواصل السير ، يناقش شخصاً ليقنع ويقتنع ، ووجد نفسه وهو يقول بصوت مسموع :

ـ لا .. لا .. سأترك دار الدبـغ هذه .. لن أظل طول حياتي أدبـغ الجلود في برك من القاذورات .. والنهاية ؟

وجاء الجواب سريعاً :

ـ الطرد .. الطرد .. الطرد .. علي .. علي .. علي ..

وعاد يقول لنفسه :

ـ مسكين علي .. كلنا علي .. الغلطة التي ارتكبها كان يمكن أن أرتكبها أنا أو الجامعي أو البرنوصي أو أي واحد من عشرات المتعلمين الذين يشتغلون كالحمير ..

وتوقف مرة أخرى كما لو كان يبحث عن رأس خيط ضائع في كومة مشتبكة . وعاد يسأل نفسه :

ـ أترك الدار ..؟ وأين أذهب ؟

وذكر علياً وهو عائد في يأس من باب الحمراء يخيط الدروب والزقاقات ، وكاد ييأس لولا أن بدا الصوت النابـع من المنبـع الغائر يهمس :

ـ وتلك الآلات التي بدأت تدور في أطراف المدينة ..؟

وتوقف وهو يفكر .. ثم أضاءت شمعة باهتة الضوء طريق تفكيره المظلم :

ـ سمعت مولاي إدريس يتحدث عنها : بعضها يصنع الصابون ، بعضها يغزل الصوف والقطن ، بعضها يصنع الأحذية ..

اتسعت خطواته وهو يسير كما لو اهتدى في مسيرته . ثم توقف وقد اعترضه سؤال :

ـ وسكة الحديد ـ طنجة فاس ـ ..؟

وترادفت الأسئلة :

ـ .. وسيارات النقل ..؟ ومعامل المشروبات..؟ ومصنع الورق ..؟

واستنارت الشمعة فأصبحت نبراساً يضيء طريقاً لم يعد مظلماً ، فقهقه وهو يوسع خطاه كما لو كان يريد أن يلحق بشيء يخشى أن يضيع منه .

وسمع صوته يتحدث :

ـ نحن هنا نسير كما يسير البغل وقد حجبت جانبي عينيه غمّازتان حتى لا يرى إلا الطريق الذي اختط له .. نعيش داخل الأسوار في مدينة مسورة .. لنقتلع الغمازتين ولنخترق الأسوار .. لنبحث عن العمل خارج الجيار والقصرية والمغطس.

سار في طريقه نحو منزله وفي أذنيه كلمات : لنبحث عن العمل ..

وتابع علي طريقه بخطوات بطيئة متهالكة وليس في ذهنه غير كلمات : الاعتماد على الله ، ثم واجه الواقع وهو يغرق في قلب المدينة يقطع زقاقاً ليصطدم بدرب، فرددت أذناه أصداء كلمات سيسمعها :

ـ أين كنت ..؟ أين تأخرت ..؟ الجيران عادوا إلى منازلهم وأنت ؟ هل وجدت عملاً ..؟ لماذا لم تذهب إلى المعلم عبد القادر أو الصانع التبّاع لتستعطفه ؟

ونفض أذنيه من أسئلة أمه كما لو كان يسمعها حقاً . وعاد يخطو خطواته الثقيلة كأنما يسوق نفسه إلى جحيم . وعادت أذناه ترددان أسئلة أخرى :

ـ هل كلمت سيدي التهامي ؟ هل بحث لي عن عمل ..؟

أنقذته من دوّامة الأسئلة رجلاه وهما تخبطان في غير اتجاه فقد اصطدم ببوابة فندق المشاطين . وتوقف قليلاً وهو يذكر مأساة الحمل الثقيل الذي أتى به لهذا الفندق ، واتجه تفكيره سريعاً نحو المتعلم الذي أهانه حينما حمل للمعلم الصفار بضاعته . وذكر كيف كان يشتغل بجدية واعتزاز وهو يصنع البلغة كما لو كان معلماً ماهراً .. وذكر ثيابه النظيفة وعمله النظيف ، وفكر :

ـ قدمت إليه من وسط الجيار والصهريج وثيابي تنفث

البشكة [1] ووجدته في معمله نظيفاً عامـلاً بيديه جالساً على مقعد مهما يكن فهو مريح .

تجاوز الفندق وفكره مع المتعلم الذي اقتحمته عينـاه في سخرية . وتوارد على فكره السؤال :

ـ لم لا أعمل في الخرازة ؟ صناعة البلغ مريحـة نظيفة شيقة ..

ظل السؤال يهدر في أذنيـه وهو في طريقه إلى المنزل . وصمم على أن يطلب من أمـه أن ترْجُوَ سيدي التهامي حتى يبحث له عن عمل مع خراز .

---

(١) رائحة النخالة حينما تنقع وهي كريهة حادة .

- ١٨ -

وقف الحياني أمام معمل الصابون في المدينة الجديدة وقفته لأول مرة أمام باب دار الدبغ ، كان أنفـه وعيناه وحواسه جميعاً قد ألفت رائحة الدار بحيث لم تعد تثير فيه الغثيان كما كانت تفعل في البداية ، وإنمـــا أصبح يعيش وسط المجيار والقصرية يخبط النخالة والجير وتاكاوت برجليه ويخلطها بجماع يديه كما لو كان «تطييبه» كسكسى يخلطها بمرق موفور التوابل ذكي الرائحة شهي الطعم. وها هو ذا يقف أمام معمل الصابون

تزكم أنفَه رائحةُ الزيت والشحوم والصودا وجافيل، ويقتحم المعمل بنفس الاشمئزاز والغثيان ، ولكن بنفس العزم وقوة العمل . ويألف الرائحة والقذارة كما ألف من قبل ، ويندفع بروح الممارسة الجدية والمسؤولية التي أخذ يحصل عليها في دار الدبغ ، فيظهر صبراً على العمل ونشاطاً ملحوظاً بين العمال وذكاء في تفهم العمل الكيماوي .

كان المعمل قد قبله كمساعد يحمل الصناديق ويدفع بالنتاج إلى الفرن ويقوم بالعمل القذر والصعب والشاق كسائر العمال المغاربة الذين قبلهم المعمل كعمال موقتين . وكان يقف إلى جانب العمال الفنيين ليحمل بساعديه ما ثقل من أداة أو مادة أو نتاج . وكان يقف بجانب المهندس أو المعلم يفغر فاه كأبله كلما حدثوه بهذه اللغة التي لا يفهمها ، ويصبر على الأذى وهم ينفخون بأفواههم أو أنوفهم ويرفعون أيديهم ويصرخون في وجهه متضجرين من هذه البلادة التي جعلت منه إنساناً لا يفهم اللغة التي يتحدث بها الناس . ويستعين بذكائه على الفهم ، وبالآخرين يترجمون له في إشارة عابرة إن وجد من بينهم من يجرأ على الاشارة أو يفهم ما يريد الفني والصانع والمساعد ، ولكنه درّب حاسته على الفهم كما درب يديه على العمل ودرب عقله على التقاط « الصنعة » كما فعل من قبل في دار الدبغ . ودرب فكره على فهم هذه اللغة فأخذ ينطقها محرفة مضحكة

في البداية ، ولكنه أتقن النطق مع الزمن وإن لم يكن يفهم إلا ما يتصل بأوامر الفنيين وصناعة الصابون .

كان يغتبط أشد الاغتباط كلما حل موعد العطلة الأسبوعية فلم يكن يعرف من عطلة الأسبوع إلا صباح الجمعة ـ إن سمح المعلم ـ يذهب فيه إلى الحمام ويلبس ـ مرة في الاسبوع ـ ملابس غير ملابس العمل ، ويصلي الجمعة مع الجماعة في مسجد الأندلس إن لم تشغله أمه بعمل يضيع عليه الصلاة ، ثم يعود إلى العمل سريعاً بعد غداء عاجل. فما يزال المعلم يذكرهم بالآية الكريمة : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله .. ولكنه في معمل الصابون يعطل يوم الأحد كاملاً غير منقوص وإذا كان قد تخلف عن صلاة الجمعة منذ عرف المعمل فإن الوقت الذي يسمح له به للغداء لا يكفيه لصلاة .

وعرف ليلة العطلة شيئاً آخر لم يعرفه إلا لماماً وهو أنه يذهب إلى الصندوق في صف مع سائر العمال لينال أجْرَهُ على العمل الأسبوعي . فلم يعد متعلماً يكاد يدفع أجر تعلمه ، وإنما أصبح عاملاً ينال أجر عمله .

وعرف شيئاً آخر هو العمل الموقوت ، كان في دار الدبغ يعمل مع الشروق وينتهي العمل مع الغروب إلا لحظات يسمح بها المعلم ضحى وعصراً لينال بُلْغَةً من غذاء ، يضيق المعلم

إذا طالت قليلاً لسبب تأخر الخبز في الفرن أو بلل في الفحم فلم يتقد . ولذلك كان يحتال على المعلم كلما اضطرّ إلى غياب أو تأخر ، فيصطنع قصة أو يدخل الدار متوارياً لا تلحظه عين ، وهو اليوم يخرج مع العمال ظهراً فلا يأخذ ثانية من عمل ولا يعطي دقيقة لعمله من وقت تحرره ، وهو يعود في ساعة معلومة لا يقبل القانون أن يتخلف عنها ولو لم يسعفه الفرن بخبز ولم تتقد نار تحت طعام .

وعرف شيئاً آخر في معمل الصابون طالما تاقت نفسه إلى أن يعرفه وأن يمارس استخدامه . كان يطمح دائماً أن يركبها وأن يسابق الراكبين الذين يرحمون أقدامهم من السير اللامتناهي. وكانت تقف في وجه تحقيق أمنيته أن الناس كانوا يتحدثون بشيء من الازدراء عن « الصعاليك » الذين يركبون الدراجات ويتيهون خارج أسوار المدينة لا يدري أحد أين سار بهم « عود الريح[1] » هذا الفرس السحري الذي جاءت به المدنيّة الحديثة ليفسد أخلاق الشباب ويصرفهم عن عملهم ويدفع ببعضهم إلى الهروب من « المسيد » أحياناً ليرضوا رغبتهم الجامحة في ركوبه ، وكانت أمه كلما سمعت أن شاباً من هؤلاء الشبان الطائشين ضُبِط فارّاً من المسيد أو من العمل متلبساً

---

(١) عود الريح أي فرس الريح ، كانت تطلق على الدراجة .

بركوب « عود الريح » تنصحه في عطف وهي تتلو فقرات من « دلائل الخيرات » ليحفظه الله من « أولاد الحرام » حتى لا يتعلم ركوب الدابة الشيطانية، ولم يدفع به « أولاد الحرام» ليركب « عود الريح » وإنما إنساق برجليه وفكره آخر أول أسبوع في العمل إلى دكان يبيع الدراجات بالتقسيط فدفع أول قسط وتعهد بالباقي أسبوعياً ، واصطدم بحجر كبيرة أول ما وضع قدميه على محركها، ثم زاغت به عجلتاها فكادت عنقه تدق وهو يصطدم بجذع شجرة ضخمة ، ولكنه استأنف رغم رضوضه الدامية فأصبحت من يومه ذاك مركبه إلى المعمل كما يفعل سائر العمال ، ولم تَحْتَجّ أمه إلا بقدر ما سمحت لها المفاجأة أن تحتج ، فقد أفهمها ألا سبيل إلى العمل ولا سبيل إلى أن يحصل على الأجر في آخر كل أسبوع إلا إذا كان يستطيع أن يخطف رجليه من الدار – وكانت على مقربة من باب الفتوح– إلى المعمل وهو بعيد في أعماق المدينة الجديدة.

واختلف الناس في الحياني – منذ رأوه يجر دراجته من باب الفتوح إلى المنزل ويركبها من باب الفتوح إلى المعمل – فوصفه الشيوخ والكهول والمحافظون بأنه صعلوك ينقل إلى المدينة الآمنة بعض تصرفات الصعاليك، ولذلك كانوا يُحذّرون أولادهم من أن يقتدوا بالصعلوك الذي يركب « عود الريح » ولا يرتاحون كلما وجدوا فتى من فتيان الحي يتحدث إلى الحياني أو يسير معه ، فهم يدركون قوة العدوى ويحوقلون

وهم يدعون في قلوبهم أن يحفظ الله الفتى حتى لا تعديه جرأة الحياني .

ولكن الفتيان والأطفال والشباب كانوا ينظرون إليه كبطل يعرف الكثير من تطورات الحياة العصرية حتى ركوب « عود الريح » . ولم يكن يخلو يوم من مفارقات ، فقد كان يلحظ أن شيخاً من شيوخ الحي يبعد عن طريقه كلما رآه قادماً يجر دراجته، ولكن مجموعات من الأطفال كانوا يحيطون به وهم يفغرون أفواههم من قوته العجيبة التي تمكنه من جر الدراجة بيد واحدة دون أن تسقط منه ، وكان كثير منهم يجرأون فيطلبون إليه أن يركب « عود الريح » أمامهم ليروا كيف يسير سريعاً كما لو كان فرساً فضائياً أو بساط ريح . وكان يركبها ويسير بها خطوات، إذا لم يكن ينزل مُنْحَدَراً أو يصعد عقبة وإذا سمحت ظروف الشارع وزحامه بذلك ، فيرضي رغبة التفوق والاعجاب بالنفس .

ولم يلبث غير أسبوع في المعمل حتى طلب إليه رئيس العمال أن لا يعود إلى المعمل بثيابه الفضفاضة وسرواله الواسع، ولكن عليه أن يلبس بذلة العَمل، زرقاء ضيقة، تحتها سراويل محكمة وصندال أو حذاء يساعد على الحركة ، فإن البلغة لا تقوى على الغطس في مياه المعمل ولا تصبر على المواد المتطايرة من العمل . وفكر في أن يطلب إلى رئيس العمال أن يسير في المعمل حافياً كما كان يفعل في دار الدبغ ، ولكنه تلفت إلى

أقدام العمال جميعاً فوجدها محشوة في حذاء قديم أو ممزق ولكنه حذاء على كل حال .

أصبحت صورة الحياني تبعث على الرثاء عند كثير من الناس ، ولكنها تبعث على الافتخار والاعتزاز عند الكثيرين، فقد تخطى البوابات والأسوار التي تحيط بالمدينة ، وأخذ يطل على عالم ما وراء السور الكبير ، فيلحن ببعض الكلمات الأجنبية ، ويلبس ملابس مختلفة عن الآخرين ، ويجر الدراجة أو يركبها ، ويحمل في جيبه أجرة عمله أسبوعياً فيغني أمه عن العمل ومع ذلك يأكلان ويأكل اخوته حتى الشبع .

وبلغت أصداء عن الحياني إلى زملائه جميعاً ، فالصانع التبّاع الذي فقد فيه زميلاً ذكياً نشيطاً ما يزال يذكره بخير منذ انفصل عن العمل في دار الدبغ ، وما يزال يتطلع إلى أخباره عساه يستعيده إلى العمل حتى عرف أنه يعمل في معمل للصابون بعيد بعيد ، في المدينة الجديدة التي يتحدثون له عنها دون أن يتمكن من زيارتها إلا حينما تقطع السيارة بعض أطرافها في طريقها إلى « مولاي يعقوب » والمتعلمون التهامي والجامعي وحمدوش والبرنوصي يسألون عن الحياني بعد أن انقطعت أخباره فلم يقابلوه في السوق ولم يعرفوا أنه التحق بدار الدبغ سيدي موسى حتى علموا أنه أصبح يسير على دراجة ويلبس بذلة تكاد تشبه ملابس النصارى . وزاد أحدهم فأخبرهم بأنه رآه وقد تكاثر شعر رأسه ، ويكاد يجزم بأنه

« ربى الفريزي »[1] ولكنهم لا يصدقون ، فهم يعرفون الحياني شاباً عاقلاً متديناً كان يحرص على صلاة الجمعة ولا يسمح لنفسه أن يرتكب معصية تسلك به طريق النار .

وعلي ما زال يفكر في الحياني منذ افترقا في ذلك المساء الحزين عندما كان علي عائداً من باب الحمراء . ولكنه لم يهتد إلى أخباره حتى كان أسبوع عيد وقد تمتع بعطلة أسبوع فأخذ يرتاد الأحياء المتطرفة في المدينـة بحثاً عن تسلية وملأ للفراغ القاتل . اصطدم بالحياني في باب الفتوح وهو يهم بالنزول عن دراجته . كان الازدحام شديداً ، وأكثر ما يشتد الازدحام بأبواب المدينة وأطرافها في أمسيات العيد حينما تقفل المدينـة دكاكينها وأبواب أسواقها المهمة ؛ وتمر الأيام الثلاثة من العيد في المعايدات وزيارات القبور والأهل والأصدقـاء وارتياد الزوايا من بعد العصر حتى صلاة العشاء لمن يعنيهم أمر الزوايا أو ينتمون إلى الصادقيين أو الدرقاويين أو الجيـلاليين أو العيساويين .. ولكن غير المنتمين لا يجدون مكاناً يستريحون فيه أيام أسبوع العيـد من استمرارية العمل غير الابتعاد إلى أطراف المدينة وأبوابهـا ، ومن ثم يكثر الازدحام وتشتد الحركة ويضيق عنق االزجاجة عن أن يسع البشر الذين لا عمل لهم إلا أن يقفوا فاغري أفواههم في لا شيء أو متحدثين عن

(١) أي ترك شعر رأسه دون أن يحلقه بالموسى كما كانت العادة .

كبش العيد أو العصيدة المعسلة التي ما تزال لذتها بين أسنانهم.

ولكن الحياني كان عائداً من عمل فمعمل الصابون لا يعرف إلا يوماً واحداً في الأعياد الدينية والوطنية والأجنبية ، أما الأعياد الإسلامية فهو لا يكاد يسمح بيوم واحد فيها للعمال المغاربة إلا على مضض . وفوجىء الحياني بالبـاب العريض تزدحم فيه أكداس البشر فترجل عن دراجته ، وكان أن اصطدمت رجله وهي ترتفع عن سرج الدراجة فتلفت ليعتذر أو يسمع احتجاجاً وشتماً . وكان أمام عينيه وجه غاضب ثم ابتسم :

– أهلاً الحياني ، عيد مبارك .

– أهلاً علي ..

وتردد في أن يهنئه بالعيد، فقد انتهى يوم العيد منذ أربعة أيام . أنساه العمل المتواصل فرحة العيد وتهنئة العيد، ولكنه أجاب مجاملاً ، ويده ما تزال تصافح يد علي :

– .. اللهم أغفر لنا[١] .

قال علي ضاحكاً :

– لولا رفستك القوية لما رأيتك .

ضحك الحياني وهو يجيب :

– ستبقى دائماً « رحوياً » أما تزال تعيش مع الحمير .

(١) جملة تقال عند المايدة .

وقال علي :

– أينما ذهبت تجدهم يرفسون .

لاحظ الحياني أن علياً يُحَدِّق في وجهه وهندامه ورأسه، وقد ألبسها طربوشاً أحمر متواضعاً ، فأراد أن يصرف عينيه عن التحديق وقال :

– تعال .. تعال معي نسر قليلاً فإن الجو جميل .

استقبل علي الاقتراح بترحيب فقد أنقذه من فراغ أطبق عليه طوال أيام العيد ، وفتح فمه لحديث مع صديق لم تستطع الأيام أن تطفىء غلة حنينه إليه .

– .. ولكن لم اخترت أن تتعلم الخرازة ..؟ ألم تكفك الأيام التي قضيتها مع الجلود والبطانة [1] ..؟

كذلك هتف الحيّاني في وجه علي وهما يتحدثان عن العمل الذي يشتغل فيه كل منهما . أنصت علي في أناة وأمسك قليلاً عن الكلام وهو يفكر ، ثم أجاب مغموم النفس :

– ما العمل ؟ حَظّي أن أكون صانعاً لما يأكل الآخرون وما يَنْتَعِلُون ..

وسكت قليلاً ثم أضاف ساخراً :

– .. ولو تأخر بي زماني لكنت صانعاً لما يلبسون وما به يغتسلون ..

---

(١) البطانة جلد الخروف .

لم يفكر مطلقاً في أن الحياني يشتغل فيما يغتسل به الناس، وأدرك الحيـــاني انه لم يقصد إلى الإساءة أو التعريض فغض الطرف وأراد أن ينقذه من اغتمامه فقال وهو يبتسم :

– الناس كلهم يعملون للآخرين.. ألا تأكل أنت ما يشقى في زراعته غيرك ..؟ العمل والصناعة ليس عيباً ..

قاطعه علي جاداً :

– .. ولكن العيب أن تتخلى عن كرامتك في سبيل لقمة خبز جافة تأكلها ..

– عهدي بك محافظاً على كرامتك ..

– .. لو تركني الآخرون محتفظاً بها ..

قال الحياني محاولاً أن يواسي علياً :

– عهدي بالمعلم باعلو رجلا جاداً محترماً لعماله .. هذا ما كنت أسمع عنه ..

– كنت تسمع عنه ذلك وأنت تحمل إليه الجلود المدبوغة، ولكن حينما تكون متعلماً عنده ..

وسكت كأنه لم يجد الكلمة التي تفصح عما فيه يفكر ، فأكمل الحياني جملته ضاحكاً :

– .. ينفحك بنفحات المعلمين ..

ورغب الحياني أن يخرج بعلي عن الجو الجاد فسأله :

– .. قل لي: أيهم أحسن المعلم التدلاوي أم المعلم عبدالقادر أم المعلم باعلو ..؟

ضحك علي وهو يجيب :

– سئل الحمار مرة أيها أحسن لك : العقبة أو المنحدر ؟
فأجاب : الله يلعنها معاً[1] .

ضحِكا والحياني يربت على كتف علي في ود .

تذكر علي انه لم يسأل الحياني عن العمل الجديد فقال :
– وأنت ..؟ كيف كان خروفك ..؟

فابتسم الحياني قائلا :
– ما تزال تفكر في الخروف .. انتهى العيد وما تزال كسائر الآخرين تتحدثون عن الخروف ..

وأدرك انه يقصد رب العمل فأضاف :
– .. هو كسائر الخرفان .. (واستدرك) انه كسائر الحلاليف[2] .. المعلم لا نراه إلا حينما يُفَتّش أو يصدر الأوامر من بعيد .. أو يأتي إلينا نافخاً شدقيه تتراوح فخذاه على حمل بطنه الضخمة محتجاً أو معاقباً . والصناع – وهم كثيرون – يشتغلون بأعصابهم ..
– .. وتشد حبال الاعصاب على أعناقكم ..
– تماماً ..

---

(١) مثل مغربي .
(٢) الحلوف : الخنزير وينعت الرجل الضخم القوي البنية الأحمر الوجه بأنه حلوف استقذاراً أو اشمئزازاً .

وضرب على كتف علي وهو يضيف معابثاً :

– من أين عرفت ذلك أيها العفريت ..؟

وأضاف الحياني وهو يعود إلى حديثه الجاد :

– من مدرسة واحدة تخرجوا جميعاً: مسلمون ونصارى.. في دار الدبغ كانوا ..

وأحس علي بالتضايق من حديث المعلمين وعقابهم فبادر الحياني قائلاً :

– اترك حديثهم بربك فهم جميعـــاً كما تعرفهم وحدثني عن .. عن ..

بدا عليه انه لم يكن متمكناً مما يريد أن يقول ، فتوقف الحياني وهو يتطلع إلى وجهه، وكانا قد اقتربا من منزل الحياني فقفزت إلى ذهنه فكرة قالها على الفور :

– تعـــال معي إلى المنزل ، أمي ستفرح بك وسنشرب كأس شاي 'مشَحّر منعنع ، وعند ذلك ستتذكر ما كنت تريد أن تقول .

اضطرب علي مسروراً ، فلأول مرة يتلقى دعوة مـــن صديق . وكاد ينفعل لولا انه شغل بفكرة أن الحياني ارتفع به مكانه حتى أخذ يستدعي أصدقاءه .. وفكر : لا شك أن له منزلاً محترماً .. ودون أن يسأل نفسه : أيقبل الدعوة أم يرفضها ، انساقت رجلاه مع الحياني في طريقهما إلى المنزل .

كانت الأمُّ النَّصَفُ ، وهي تحضر لهما الشاي وما بقي من حلوى العيد ، فرحةً بصديق ابنها تدعو لهما بالصّلاح والرشاد بصوت مسموع ، ثم تتمتم بين شفتيها بما لا يدريان ، ولكنها ولا شك كانت تقرأ آية الكرسي حتى لا تصيب الابن - وقد رشد فبدأ يستدعي أصدقاءه - لوثة من شيطان أو نظرة من عين حسود . وشغل علي بالنظر إلى الأم وهي تتردد بين الغرفة والمطبخ ، وتتداعى إلى فكره أمه حينما تغيب أم الحياني حتى إذا أقبلت رأى في هندامها الجديد ووجهها النضر المليء عافية وصحة صورة أخرى غير الصورة التي ألفها في غرفة أمه المظلمة . واكتشف أن أم الحياني لا تشتغل، فقد كفاها ابنها مؤونة العمل منذ أخذ يشتغل في معمل الصابون .

مع الشاي الدافىء أخذ الحياني يتحدث مرة أخرى عن العمل في معمل الصابون ، وبدا لعلي أنه حديث جديد عن عمل « نظيف » وانتاج سريع واختصاص في العمل وتدقيق في الوقت وتركيز على العمل داخل المعمل لا في المعمل والشارع معاً . فَغَرَ فاه دهشاً ، وانصرف ذهنه لحظة عن حديث الحياني ليكتشف أنه الموضوع الذي كان يريد أن يسأل عنه . ولم يترك الفكرة تلح عليه ولكنه هتف بالحياني :

- ذلك ما كنت أريد أن أسألك عنه ونحن في الشارع .

فقال الحياني معابثاً :

- الكأس المشحر ذكرك بما كنت قد نسيت .

وسأل علي على الفور :

– .. ولكن اخبرني : لم لا ينظم المعلمون في دار الدبغ وفي « الدراز »[1] والمطحنة عملهم كما ينظمه مسيو.. مسيو.. ماذا قلت ؟

– مسيو روز .. تذكر دائماً : روز .

وفكر الحياني في السؤال فهو لم يضعه على نفسه من قبل وقد اكتشف الآن أنه جدير بالتفكير . زاغت نظراته وضاقت حدقات عينيه وبدا كأنما يُحَدّق في شيء دقيق وهو يرشف من كأسه بصوت مسموع دون أن يتذوق ما يرشف من شاي. تلفت بعد لأي إلى علي وكأنه اكتشف شيئاً غامضاً وهو يقول :

– يخيل إلي أن مسيو روز تعلم صناعته في المدرسة ، فهو لا يخلط مواد الصابون إلا بِوَزْن وكَيْل ، وهو لا يوقد نار الفرن إلا في حرارة محسوبة، وهو لا يخرج الصابون بغير قالب ولا ينشفه إلا تحت حرارة معينة، أفتظن أن المعلم عبد القادر أو المعلم فضول أو المعلم التدلاوي يقدرون على عمل منظم بهذا الشكل ؟

وضحك علي وهو يقول :

– قفة جير زائدة ، قفة تاكاوت ناقصة سيان.. (وأضاف

---

(١) معمل صناعة البلغ وصناعة النسيج .

ساخراً) البركة .. المعلمون يخدمون بالبركة والعطفة والاتكال على مولاي ادريس ..

وخشيَ الحياني أن تسمع أمه سخرية علي فزاغت نظراته تبحث عن أمه ثم أشار إلى علي محذراً ، فابتسم وهو يكتم ضحكته بعد أن تعذر عليه أن يكتم أفكاره . وعاد من سخريته إلى موضوع ألحّ عليه وبحث طويلاً عن المناسبة للجهر به ، ولكنه لم يجدها فسأل في وضوح :

– وماذا عن حق الجمعة .. ؟

وضحك الحياني فقد عاد به إلى أيام دار الدبغ ، وتذكر كيف كان المتعلمون ينتظرون أن يكون المعلم مسرور القلب عامر الجيب ليسألوه في تواضع أجرتهم كما لو كانوا يسألونه صدقة .

– حق الجمعة آلمعلم الله يخلف عليك .

أجاب الحياني وهو ما يزال غارقاً في الضحك .

– قل حق السبت لا حق الجمعة .

وبدا على علي أنه لم يفهم فأضاف الحياني :

– قبل الانصراف في عطلتنا الأسبوعية ظهر يوم السبت نذهب نحن العمال إلى « الكيس » ..

وفغر علي فاه فقد كانت الكلمات الجديدة والأفكار

الجديدة ينطبع أثرها في فمه فيفغر فاه كما لو كان يفكر بفمه..
وأدرك الحياني فاستدرك :

– .. إلى الصندوق، فإن المعمل له موظف خاص يصرف أجور العمال وأثمان المواد ويحصل ثمن البضاعة المبيعة ، وهو الذي يدفع أجورنا يوم السبت .. وهي أجور محددة لا تزيد قليلاً ولا تنقص .

ارتطم فكر علي برغبة ألحت عليه وهو يسمع الكثير عن معمل الصابون فينبهر . فكر في أن يسأل الحياني ليبحث له عن عمل في المعمل ، وبدا له أن الحياني قد ينزعج من طلبه ذاك فطوى كَشْحَه على رغبته ووقف ليودع الحياني شاكراً له ، وللأم التي استقبلته كما تستقبل ابنها ، ضيافتها .

خرج من المنزل وسار في طريقه تقوده رجلان قيادةً عَشْوائِية فقد كان فكره مع الحياني الذي بدا له عملاقاً ارتفع كصاروخ من قعر الجيار والقصرية والصهريج ومن حضيض البشكة وتاكاوت وبعر الحمام والجير إلى سماء اسمهـا المعمل وانتاج اسمه الصابون .

- ١٩ -

وجد نفسه أكثر سعادة من أي وقت كان يحلم أن يكون فيه سعيداً . فقد كان معمل الغزل بالنسبة إلى المطحنة ودار الدبغ ودراز المعلم بَاعَلُّو مكان نزهة وحرية وراحة من العمل الشاق الذي عرفه منذ أول يوم عرف فيه العمل . كان يجد فيه نفسه بين زملاء أغلبهم مغاربة يحملون أكياس القطن خاماً أو يدفعون حزماته الضخمة ، ويدحرجونهـــا إن هي ثقلت عليهم متعاونين دون أن تراقبهم عين أو ينهرهم لسان . وكان

يلذ لهم أن يتعاونوا لدفع هذه الأكياس ودحرجتها، يستعينون على ذلك بالفاتحة الجماعية يلقونها كنشيد :

– واحد .. زوج .. ثلاثة .. هوبلا ..

وكان قدماء العمال قد تعلموا أن ينطقوها بالفرنسية ولو محرفة مضحكة .. وقد تعلم علي هو الآخر أن يهتف معهم : آن .. دو .. طروا .. ولكنها فاتحة لم تلذ له فلم يلبث أن علّم زملاءه أن يهتفوا كما كان العمال يهتفون بدار الدبغ في بداية أي عمل شاق :

– اللهم صل عليك يا رسول الله .

في صوت جماعي يستعينون به على بذل أكبر طاقة ليحركوا كيس القطن الخام أو صندوق القطن المغزول .

ولكن هذا النشيد كثيراً ما أثار مراقب العمل الذي لم يكن يفهم ما يقولون . وكان أكثر ما يخشى أن يتحدث العمال بما لا يفهم . ورغم انه يبذل جهداً في فهم العربية إلا أن كثيراً من الكلمات والجمل والاصطلاحات كانت تستعصي عليه. وكان العمال الصغار يتعمدون أن يثيروا شكوكه بالحديث المبهم فينظر اليهم شزراً كأنما يحاول أن يفهم بعينيه ما استعصى على فكره أن يفهمه . ويضحكون في سرهم إذا ما خشوا أن تزيد ابتساماتهم في إثارته . ولكنه – رضي عن معابثتهم أو غضب – فهو دائمـــاً راض عن العمل الذي يؤدونه في صبر وأناة وتحمل .

ولم يكن علي يقبل البقاء في وضعه ذاك .

حملُ الأكياس ودحرجَتُها ونقل الصناديق عملية تذكّره دائماً بالمطحنة ، بدار الدبغ ، بحمل صفوف البلغ والسير بها في توازن مضحك إلى « سوق السباط » . كان في دار الدبغ يتعلم صناعة ، وكانت الصناعة ثروة وذخيرة كما كانت أمه تحدثه وكان في المطحنة يتعلم إلىجانب حمل الأكياس وركوب الحمير صناعة طحن الحبوب واستخراج الدقيق والكسكس والنخالة ، وعند المعلم باعلو تعلم أن يدق النعل على «القرميل» وأن يضع البلغة في القالب مستعيناً « باللزاز » و « الزيادة » وأن يخيط البطانة وفي يسراه « اليشفة » وفي يمناه الإبرة[1] . وفي معمل الغزل يكاد يكون حمالاً يحمل الأكياس ويدحرج الصناديق . وعرف انه لو طالب رئيس العمال بأن ينقله إلى عمل فني لأثار غضبه من حيث ينبغي أن يترضاه كما يفعل العمال جميعهم .

« الصناع سواء في دار الدبغ أو في معمل الغزل .. »

كذلك فكر وهو يهم بالحديث إلى رئيس العمال مسيو رولان في أن ينقله إلى عمل فني . ومن ثم تراجع عن الحديث إليه وظلت الفكرة تتردد في ضميره حتى اهتدى أخيراً إلى أن معظم العمال الفنيين – سيدات وسادة – لم يتخرجوا من

---

(١) الألفاظ الموضوعة بين قوسين كلها أسماء لادوات صناعة البلغة .

مدرسة ، وكل علمهم انهم فرنسيون ، وقد تعلموا الصناعة كما تعلمها قبلهم الرَّحَويون والخرازون والدباغون بالتدريب والممارسة .

لم يجد لفافة قطن يدحرجها أو سلّة غزل يحملها ، ولم يحمل كما هي عادة زملائه مكنسة يكنس الأرض المليئة بنداف القطن المتطاير ، فقد كان يعرف أن المكنسة لن تجمع نِدَافاً تذروه تيارات الآلات ، ويملأ جو المعمل كما كانت ذرات الدقيق تملأ جو المطحنة ، ويتساقط النداف حينما يحلو له على رؤوس العمال ووجوههم وأشفار عيونهم ويتغلغل في ملابسهم وينفذ إلى لحمهم وبين طيات أفخاذهم وأذرعهم . وقد كان العمال جميعاً يظهرون كما لو كانوا مهرجين في سيرك حيوان ، وجوههم بيضاء كما لو ان عنكبوتاً صناعياً نسجت عليها رقيق خيوطها. كان ذلك يذكره بالمطحنة حينما ينشط العمل فتتطاير ذرات الدقيق على وجهه ووجه المعلم التدلاوي ، ويضحك هو من وجه المعلم كما كان الأطفال في الشارع يضحكون من وجهه هو . ولم يكن يحاول أن يكنس المطحنة أثناء العمل كما لم يكن مجدياً كنس معمل الغزل أثناء العمل فإن تيارات الرحى والآلات كانت تدفع الذرات متطايرة في الهواء المضغوط فيظلم الجو ويتحول الفراغ كما لو كان في نهار مثلج بمناطق سيبيريا . بدلاً من المكنسة توقف عند آلة تشرف على سيرها سيدة بِشْرٌ وجهُها ، ولم تكد تحاول أن تمد يدها إلى بكرة حتى أسرع يساعدها ، ولا تكاد تمتلىء جعبة حتى يسرع فيغيرها ،

ولا ينقطع خيط حتى يبحث عن أصله فيلحمه . وأعجبت المرأة بنشاطه وذكائه ، وسرّها أن يكون عندها – وهي العاملة من الدرجة الأولى بحكم جنسيتها – مساعد من عمال الدرجة الثانية . وحدثته فلم يفهم ، ولكنه أدرك . وبدا لها ان اللغة ليست حاجزاً .. وكم يسرها أن تحتفظ بمساعدها لو قبل مسيو رولان ووافق صاحب المعمل مسيو هنري . ولم تجد كبير عناء في إقناع رولان ، فقد أدرك هو الآخر ان العمل ربما كان أسرع إذا كان لدى مدام باوليني مساعد هو علي.

أصبح علي يحس بزهو وهو يرتفع درجة في عمله . شيء لم يعرفه طوال حياته العملية، وأصبح يحس بزهو أكثر وهو يتعلم شيئاً جديداً، ويستطيع – دون أن يعوقه أنه ليس فرنسياً– أن يتابع سير الآلة فيزودها بقطن لتندفه أو بقطن مندوف لتغزله ، ويستطيع أن يبحث عن الخيط الضائع فيكتشفه وعن الجعبة المليئة فيغيرها .

اكتسب ثقة بنفسه في انه عامل مختص ، ولكنه سرعان ما بدأ يشك في هذه الثقة . تلك أعمال بدائية يستطيع أن يتقنها دون ما حاجة إلى إرشاد مدام باوليني ، ومع ذلك سيظل عاملاً من الدرجة الثانية لأنه مغربي وهي فرنسية . ولكن مدام باوليني لن تترك الثقة تنهار من نفسه فقد أصبحت في حاجة ملحة إلى مساعدته حتى أصبح يتخلى تدريجياً عن عمله الأساسي فلا يحمل كيساً ولا يساهم في دَحْرَجة لفافات

القطن أو صنـاديق الغزل . تواضعت مدام باوليني مع مسيو رولان على إعفاء علي من عمله كحمال أو مساعد في المعمل دون أن يكون لهذا التواضع مدلول في سجلات العمال .

لم يرتفع علي من درجة حمال أو مساعد فهو يعيش في ظل السيدة العاملة ، وهو يتقاضى أجر العامل المغربي لم يزد قرشاً واحداً رغم انه أصبح قادراً على القيـــام بنفس العمل الذي تقوم به السيدة « معلمته » وفكر :

– الناس هنا يُؤْجرون على جنسيتهم .. وكان حرياً أن يؤجروا على جِنْسِهِم . إمرأة، ومع ذلك هي المعلمة وأنا .. أنا ما أز ل متعلماً ، ومع امرأة ..

وقهقه في نفسه ولم تكن لقهقهته غير ظلال ابتسامة مُرة ارتسمت على شفتيه واستمر يفكر :

– لم يكفه الفيل زادوه الفيلة.. تذمرت من المعلم التدلاوي والمعلم عبد القادر والمعلم باعلو والصانع التباع، ولكني أصبحت متعلماً مع من .. ؟ مع امرأة ..

توقف تفكيره قليلاً وقد تماثلت مدام باوليني أمام ناظريه بوجهها السمح وعينيها الزرقاوين وقامتها الفارعة وشبابها الغض ويديها البَضَّتَين .. وابتسم لنفسه وهو يجيب كأنما يحدث شخصاً انبعث من نفسه :

– سير آولدي .. مع المليح صابوك[1] .. لتكن سيدة ، لكنها جميلة ، بَرّاقة لماعة ..

هف قلبه إلى رؤياها وهو يسير عائداً على قدميه إلى منزله من المعمل ، فقد أصبح يشعر بغبطة وارتياح وهو يعمل في مساعدتها ، ويحس لكلماتها – الفرنسية أو العربية الملحونة التي تنطقها محرفة بصوت أخاذ – أصداءً تدغدغ إحساسه وفكر :

– عاملات من صنف المدام : جميلة ، رشيقة ، متعلمة .. طبعاً تكون ذات امتياز .. تكون معلمتي أنا : الرحوي ، الدباغ ، الخراز .

ودارت به الدَّوّامة فثار على نفسه وهو يفكر :

ألأنَّ عينيها زرقاوان لاعبتان أقرُّ لها بالامتياز .. ؟ هي لا تؤجر على جمالها ولكنها تؤجر على عملها . وجعبة الخيط المنسوج من يديها البضتين لن تكون أجمل من جعبة خيط منسوجة من يدي ..

وتطلع في فضول إلى كفيه وهو يقلبهما أمام ناظريه ، كفان خشنتان ما تزال آثار الدباغة تلون أظافرهما وتحيل بشرتهما إلى لون قاتم . وعاد يؤكد لنفسه ما اهتدى اليه من دوامة كادت تلفه :

---

(١) شبه مثل يعني : إذا كنت مع جميل فلا تهتم لما سيصيبك .

- .. ولكنهما قادرتان على العمل قويتان .. أقوى من اليدين البضتين الناعمتين .

وظلت الدوامة تلفه :

- لم لا تكون أمي فاطمة هي الأخرى عاملة أمامَ آلة غَزْل أو نسيج تريح يديها - وقد أصبحتا خشنتين - من فرك الثياب بالصابون و « الليان » ويستقيم ظهرها من تقوس على جفنة الغسيل الواطئة حتى الأرض ؟

وتراءت إلى عينيه كَفّا أمه يتطلع إلى شقوقهما الخشنة وأصابعهما المتورمة . واختلطت الصورة باليدين الناعمتين البضتين الرشيقتين .. وقفزت إلى ناظريه مدام باوليني مكبة على جفنة غسيل تفرك الثياب وتعْرِك أكداس القمصان والمناصير والأزُر ، واختفت الصورة لتقفز مكانها صورة أمه واقفة بجانب آلة الغزل بهندام أزرق وقوام معتدل وشعر ممشوط ، تراقب الآلة ولا تكاد تتحرك إلا عندما تمتلىء جعبة أو تفرغ بكرة أو ينقطع خيط . ونطقت الأم باللغة التي تتقنها مدام باوليني فبعثت الابتسامة إلى فمه ، وظلت أصداء كلماتها الفرنسية تتردد في أذنيه .. واختفت الصورة لتحل محلها صورة مدام باوليني وهي ترفع رأسها من جفنة الصابون بعينين متورمتين ووجه مرهق وشعر منفوش وذراعين مكسوتين بزبد الصابون والليان وملابس ممزقة ملفوفة في فوطة مبتلة بمياه الغسيل . أشفق على شبابها وجمالها وكاد يهتف بها :

ـ مكانك ليس هنا.. أمام الآلة النظيفة تدار بالكهرباء..

ارتد اليه وعيه بصيحة مفاجئة من حمّار كاد يدهمه بحماره المثقل بكيسي سكر :

– بالك .. بالك الله يعطيك العمى .. تقفون في طريقنا كأنما دقت أرجلكم بمسامير ..

وانتبه علي إلى الرجل فوجد وجهه يتصبب عرقاً وهو يسرق الحمار الحرن المثقل بقنطار ، ولو كان من سكر .. إنه يدفع الحمار دفعاً كما لو كان هو الذي يحمل على عاتقه الكيسين. وأشفق على الرجل فابتسم من شفتيه ابتسامة إشفاق ، وود لو استطاع أن ينوب عنه في سوق الصديق الحرن . ذكر كيف كان حماره يتلف أعصابه وكأنه ينتقم منه حينما يحمله كيس دقيق. الحمير جميعاً على اتفاق، إنهم يحرنون كلما أحسوا بأننا أرهقناهم .

وعاد يفكر وقد تلاشى صوتُ الحمّار يرجو المارة أن يفسحوا له المجال ليصل بالسكر سليماً إلى صاحبه :

– لو كان للحمير بعض العقل لفكروا في أن يقاوموا طغيان السادة ، ولعلهم كانوا يفكرون في تكوين نقابة تدافع عن حقوقهم ..

وابتسم للفكرة فقد كان سيد الحمار ، ومع ذلك لم يستطع أن يندمج في نقابة تمكنه من حقوقه .

كانت الأفكار تراوده وهو في طريقه من العمل إلى المنزل، ولم يكن يشعر بالمسافة الشاسعة التي تفصل المعمل عن الدار لأنه عاش فيها – وهو يقطعها ماشياً – مع أفكاره . وقد فوجىء عندما وجد نفسه بباب منزله . واستعاد الطريق التي خيل اليه أنه لم يمر منها ، ولكنه مع ذلك شعر بغبطة فقد كان يحس بجوع قاتل . ارتمى على أقرب جشية إلى باب الغرفة وقد اقترب منه الجيلالي يحمل كراسة يتهجى منهـــا بعض الكلمات .

استقبلته الأم بترحاب كما أخذت تستقبله بعد أن اشتغل في المعمل . وكان ترحيباً صادراً عن سعادة تغمرها بعد أن أيقنت أنها تخلصت من بؤس لازمها منذ فقدت المرحوم والد الأطفال. كانت الأجرة محددة مضمونة يحملها إلى أمه في آخر كل أسبوع تستعين بها ، مع ما تحصل عليه من أجرة الغسيل ، على تكاليف الحياة . ولم تعد هذه التكاليف ترهقها بعد أن انتظم الدخل ، ولم يعد علي يعود مساء مرهقاً من عمله – كما كان يعود أيام المطحنة ودار الدبغ والدراز – فلا يجد طعاماً أو لا يجد منه إلا التافه القليل . كبر علي في عينيها واستوى رجلا راشداً يعول اخوته وأمه. ومن ثم لم تعد تضيق بوجوده ولم تعد تعيش مع مشاكله ، وكم كانت تود أن تزوره في معمله الجديد – كما كانت تزوره في المطحنـــة أو في دار الدبغ أو الدراز كلمـــا تطلبت هفواته تدخُّلَـها لدى المعلمين – لترى

بعينيها هذا الذي يحدثها عنه من آلات تسير بقوة سحرية لا تحركها قوة انجراف الماء في النهر كما كانت تحرك المطحنة فتدور ، ولا تحركها يد قوية أو رجل مرنة كما تحرك آلات النسيج والغزل في « الدرازات » المنتشرة في أحياء فاس . وكانت فاطمة تنكر أن تكون هذه الآلات تتحرك بنفسها ، وتنكر أن تملىء جعبات كثيرات في لحظات قليلة ، ويعرف علي ألّا سبيل لتصدق هذا الذي يتحدث اليها به إلا إذا رأته رأي العين ، ولكنها لن تتمكن من ذلك والمعمل بعيد عن متناول زيارتها .

لم يكد علي يعلن عن جوعه حتى نهضت فاطمة تستعد لتقديم العشاء ، كانت تتحرك في الغرفة بنشاط ، تغْدو وتَروح حاملة المائدة والخبز والماء في انتظار اشتعال الفحم . وتطلع اليها في فضول يبحث عن شيء جديد لم يبحث عنه من قبل ، ولعله أخذ يتطلع لأول مرة إلى قوامها ويفحص وجهها وذراعيها وساقيها وتصطدم عيناه بملابسها . واختفت لحظات تنفخ بالكير على الفحم ليلتهب ، وتسمرت عيناه بمدخل الغرفة ومداوم باوليني تقتحمها بقوامها المشوق وهندامها الجميل وابتسامتها العذبة وخطواتها المنتظمة ، تكاد تقترب منه ، ثم تختفي الصورة لتظهر الأم وهي تحمل بين يديها صحناً دافئاً يتماوج بخاره . وقام علي إلى عشائه ونفسه تهتف :

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. الله يلعن الشيطان .

كان حديث المائدة بشرى زفها إلى أمه فقد أخذ يقترب من العمل الحقيقي ليصبح معلماً . وقف بجانب المعلمة يساعدها في العمل ، ولن يمر عليه طويل أمد حتى يصبح معلماً يسير الآلة بنفسه ويشرف على عملية الغزل من القطن الخام حتى الخيط المغزول .

اصطدمت أذن فاطمة بكلمة « المعلمة » ، وعز عليها أن يكون ابنها متعلماً مع « معلمة » ولم تكتم ما راودها من شعور بالغبن فهتفت في وجه علي :

– ويلي يا ولدي.. لم تجد في المعمل معلماً تتعلم على يديه..؟

وابتسم علي فقد اندمج في العمل مع مدام باوليني ولم يضع على نفسه هذا السؤال وأجاب على الفور :

– هي أحسن من معلمين كثيرين .

لم يفكر في الدافع الحقيقي لهذا الإطراء التلقائي ولم تفكر هي بالطبع ، وإنما دفعها ذلك إلى أن تتراجع عن الاعتراض وقد صدر منها دون أن تتدبر الأمر :

– لا عليك يا بني.. متى..متى أنعم بلقب أم «المعلم علي».

ضحك علي دون أن يجيب ، فقد اختفت كلمات « المعلم » « المتعلم » من حياته بعد أن فارق دار الدبغ والدراز ومع ذلك فستظل أمه تعتبره متعلماً إلى أن يصبح معلماً .

-٢٠

خرج الحيـاني من المعمل فائر الفكر منفعل الأعصاب لا يدري أين يتجه . أمامه المنزل وهو مقبرة باردة لما يضطرم في داخله من انفعـال . أمه لا تكاد تحس حتى بقلقه وهي تعد طعامه أو تنهض في الليل لتسحب الغطـاء على أذنيه ورأسه مخافة أن يصيبه برد كما كانت تفعل وهو صغير . الجيران لا يجمعهم إلا السور الكبير الذي يحيط بالمنزل ، وهم بعـد في منازل متفرقة ولو أن ما يفصلهم أحياناً غير ستار ينسدل على

بوابة كل غرفة .. الأصدقاء طوح بهم العمل ، كل منهم اتجه إلى عمل يختلف عن عمل صديقه فاستغرقتهم الدرازات أو دور الدبغ أو معامل الصابون والنسيج والغزل واصلاح السيارات ، حتى زملاء المهنة لم يعد يدري عنهم شيئاً . فالصانع التباع لم يره منذ مدة رغم ان حلقات الحزب كانت تجمعهم وهو في دار الدبغ ورغم ان عبد العزيز كان يأنس للقائهم حينما يزور الدار بين العشائين بعد أن تخلو من المعلمين وكثير من الصناع والمتعلمين فيتحدث إليهما عن شؤون المهنة والنقابة والتجمع لمواجهة مشاكل المهنة ومشاكل العلاقات بين العمال وأرباب العمل . والبرنوصي والجامعي انقطعت الصلة معهما ولم يعد يجمعهم سطح الدار الذي كان يتيح لهم أن يتحدثوا حتى عن توافه الأشياء . وزملاء معمل الصابون يجمعهم العمل ثم .. مع صفير السادسة مساء يركب كل منهم دراجته فلا يدري أحد أين ذهب « عود الريح » بزميله، حتى أصدقاء الكرة تفرقت بهم السبل فقد احترف اللعبي وبوروساين والصامبا فانضموا جميعاً إلى فرقة الكوكب ، وانضم البقالي والماحي ودواح لفرقة « السام » كمتدربين احتياطيين وبذلك انحلت الفرقة التي كانت تجمعهم في باب « الساكمة » عشية الجمعة أو الأحد ، وكان الحياني يلعب فيها « الظهير الأيمن » .

وعلي ..؟

طفر الاسم إلى ذهنه في صورة سؤال أوحاه التفكير في

أصدقاء الكرة ، فقد كان علي « يحمدش »[1] — كما كان يصفه الحياني — حينما يسمع اسم الكرة فيترك كل حديث إلا حديث الأبطال والانتصار والغلبة وتسجيل الاصابات ، وكان يتخذ من حديث الكرة سبيلاً للجدل والتنفيس عن الطاقة ، فلا سبيل إلى جدال في حياته الراكدة إلا أن يخلق خلقاً ، وكان الحديث عن الكرة سبلاً واضحـــة للجدل الذي يبلغ أحياناً حد الرهان .

فكر الحياني في علي وهو يسير إلى منزله يقظ الحس ثائر الفكر .

— وأين لي أن أحصل عليه ..؟

هكذا تساءل بصوت داخلي تكاد تسمعه أذناه . وتوقفت رجلاه عن السير كما لو كان يريد أن يذكر شيئاً ندّ عن ذاكرته ، وكما لو كانت خطوات رجليه تحجب ذاكرته عن الانطلاق . وقرر ..

أخذ يخطو خطوات سريعة مخافة أن تفلت منه الفكرة ، وكأنه معه على موعد يخشى أن يتأخر عنه فلا يجده . وعند مدخل الدَّرْب كان يلتقي مع علي وجهاً لوجه كما لو كان كل

---

(١) أي يفعل فعل الحمدوشيين وهم فرقـــة من المشعوذين تنتسب إلى سيدي علي بن حمدوش ويقومون بحركات وحماقات في انفعال هيستيري غريب .

منهما يبحث عن زميله : حَيّاه بحماس ولم يتردد في أن يحتضنه فعل من لم ير صديقه من أمد طويل .

– علي أين أنت ..؟ كنت أبحث عنك ..

– وأنا أبحث عنك دائمــــاً .. ومنذ افترقنا في منزلك أيام العيد .

– المهم .. أنت الآن ذاهب معي وسنتعشى معاً ..

واعتز علي بدعوة صديقه .. فمن شأن استدعاء كهذا أن يرتفع بمكانة شخصيته .

– لا بد أن أخبر « الميمة » فستظل في انتظاري .

– على شرط ألا تتأخر .

استقبلت الأم الخبر بابتسامة عريضــــة ظهر منها فراغ نواجذها .

– أذهب – يا وليدي – الله يلقي لكم الخير .. ويخلف على سيدي الحياني .

وتذكرت وهو يصد عن باب الغرفة بين نظرات إعجاب الجيلالي وكنزة وعائشة :

– اسمع يا علي .. يا سيدي علي : لا تتأخر.. أرجوك .. فلن أنام إلا بعد عودتك .

– اطمئني .

وتذكرت شيئاً آخر مهماً فهتفت به في أذنه وهي تشير إليه ، أن أقدم :

- الجيران لا يحبون من يوقظهم في الليـل .. لا تنس أن تدق الباب في همس .. وستجدني مستعدة لكي أفتحها .

تلقف علي كلماتهـا في عجلة ، وركض إلى الدرب وهو يسحب الباب وراءه في عنف لكي تنقفل من الداخل «بالساقطة» ولتصطدم خرصتها فتخبر السكان أن أحداً ما خرج . وواجه الحياني متطلعاً وكأنه يستعجل أن يفضي إليـه بهذا الذي جعله يبحث عنه ويستدعيه للعشاء . ركبه شيطانُه فابْتَدَرَ الحياني :

- لا شك أنـه عشاء فخم : البسطيلة والتّـفَايَا [1] في انتظارنا ..!

فابتسم الحياني دون أن تتم ابتسامته عن شيء . ولم يلبث أن قال :

- بيت الفقراء لا يعرف البسطيلة والتفايا .. نسمع عنهـا في أقاصيص الدور الكبيرة .

وانتهى علي إلى الموضوع فسأل :

- سنتعشى بمناسبـة ما ولا شك .. عرس أو سابع أو طهارة ..؟ أتراك تزوجت ..؟

تاهت أحلام الحياني وهو يسمع السؤال الأخير بأكثر من أذنيه فإن أمه ما تزال تهتف به :

---

(١) نوعان من الطعام .

– متى يا ولدي .. متى تعمر عليّ المنزل بزوجتك وأولادك ..؟

وهو مع أمه يحلم بالزوجة والأولاد ، ولكنه يقف دائماً عند الحلم وهو يتحدث إلى نفسه :

– الزوجة والأولاد ؟ مسؤوليات ضخمة وأنا غير مستقر في العمل .. كنت في دار الدبغ ابني المستقبل البعيد .. حينما أصبح معلماً – ولو بعد عمر طويل – يمكنني أن اعتمد على هذا المستقبل فأتزوج وأنا مطمئن، وألد الأولاد وأنا مطمئن.. واليوم انتظمت أجرتي وضاع الأمل في مستقبلي .. للحاضر يعيش هؤلاء الذين نخدمهم فتنمو ثروتهم ويشتد ساعد معملهم أما المستقبل فهو لهم وحدهم ..

وألح عليه سؤال كثيراً ما يتردد في ضميره :

أتراك كنت تفضل أن تبقى في دار الدبغ متعلماً ثم صانعاً لتصبح في يوم ما معلماً ..؟

وترك السؤال حائراً في ضميره كعادته كلما ألح عليه ، وانتفض كما لو عاد من رحلة بعيدة ليجد علياً ما يزال يتطلع إلى جواب :

– ذهبت بعيداً آلمعلم علي (وهو يربت على كتفه في تودد) اشتقت لك وأحببت أن نتمشى معاً .

ومن خلال ابتسامة الغبطة التي طبعت وجه علي أحس بأنه يجب أن يضيف :

- وأحببت أيضاً أن أعرض عليك أمراً لا شك أنك ستمانيه في معملك . فقد تواترت الأخبار بأن المعامل كلهـا ستهتز بالاضراب .

وانتفض علي للمفاجأة :

- الاضراب ..

- أي نعم .. الاضراب ابتدأ تحضيره في معملنا. وسيبدأ في معملكم وقد يشمل المعامل كلها .

وقع علي في دوّامة شديدة ، فهو لا يعرف عن الاضراب إلا أنه امتناع عن العمل ، وهو لا يدري معنى لهذا الامتناع ولا يحس بالحاجة اليه ، وهو يشعر أكيداً أن الاضراب معناه أن المعمل سيستغني عن عماله ليستقبل آخرين.. فهل سيجازف الحياني وسيجازف هو مرة أخرى بأن يترك المعمل ويدفع بأمه لتبحث له عن عمل في زقاقات فاس وحواريها ..؟

وأحس الحَيّاني بالدّوّامة التي لَفّت علياً كما تلُفُّه منذ علم بفكرة الاضراب فانطلق يشرح لعلي أن الاضراب وسيلة للدفاع عن حقوق العمال ومصالحهم ، وانها وسيلة مشروعـة يبيحها القانون المعمول به في المعامل ، وأن العمال الأجانب ألفوا أن يقومـــوا بالاضراب كلما استعصى عليهم أن يحققوا مطالبهم بالمفاوضة .

كان درساً طويلاً تلقاه علي في وعي وهو يسير خـافض الرأس في انتباه كامل إلى ما يقول الحياني ، وكان يسمع هذه

المعلومات لأول مرة دون أن يتيح لنفسه التفكير فيها ، حتى كانا أمام مائدة مستديرة صغيرة حطت عليهـــا أم الحياني صُبَيْبَة كسكسي يعلو فواره وتداعب رائحته الذكية ـ بتوابله وخضره ولحمه ـ أنف علي فتزيد في شهيته والاحتفاء بأكله . وبجانبه صحن زيتون أسود وآخر يضم خليطاً من برتقال وخص يعوم في عصير ليمون بالقرفة والسكر .

بدا للحياني ان علياً على غير استعداد للحديث في الاضراب وقد اختليا بطابق الكسكسي ، فانصرف هو الآخر يتحدث عن أخبار كرة القدم . وجد استجابة قليلة من علي ، ولكنه مـــع ذلك كان سعيداً بطابق الكسكسي . وكان يعبر عن سعادته من حين لآخر وهو يخاطب أم الحياني متلذذاً :

ـ الله يعطيك الصحة آللا شامة .

ومع براد الشاي الذي وضعته الأم بين الشابين في غبطة أصبح عليّ على استعداد للحديث في الموضوع الذي كان يهم الحياني ، وبادره قائلاً كما لو كان الحديث موصولاً بينهما :

ـ أي نعم .. أكمل حديثك عن الإضراب .

وفكر الحياني قليلاً وهو مُطرق كأنما يربط خيط تفكيره :

ـ العمال الأجانب يفكرون الآن في الإضراب للمطالبة برفع الأجور وإنقاص ساعة من العمل كما هو الأمر عند زملائهم بفرنسا . ونحن ما موقفنا ؟

سؤال كان عبئـــاً ثقيلاً على علي ، فقد واجه كثيراً من المشاكل مع المعلمين والصناع،ولكن مشكلة كهذه لم تعرض له. وهو مدعو أن يعطي الرأي أو يفكر على الأقل مع الحيـاني للاهتداء إلى رأي . ظل صامتاً فأضاف الحياني :

ـ هم يستطيعون أن يقوموا بالإضراب لأن نقابتهم تدافع عنهم .. أما نحن ..؟

وتداعت إلى ذاكرة علي أحاديثهما السابقة عن النقـابة . واستمر في تفكيره كأنمـا يبحث في أعماق ذاكرته عن شيء حتى اهتدى .. واستنار فكره وبدت الابتسامة على شفتيه وهو يقول :

ـ لنبحث عنه .. فقد كان صاحب فكرة النقـــابة ، والحل عنده ..

واستغرب الحياني حديث علي ، وتساءل في سره قبل أن يجهر :

ـ نبحث عن من ..؟ عن من تتحدث ..؟

ـ عنه .. عن عبد العزيز .. ألا تذكر .؟ لقد كان يوصينا بتكوين نقابة .. أرأيت ..؟ وقفنا على وصيته .

استنار فكر الحيـــاني وارتسمت على شفتيه هو الآخر ابتسامة عريضة كأنما وجد سنداً يضع عليه كل أعبائه .

لم يتردد علي فقد نهض وهو يقول :

ـ تعال .. قم ..

كانت تصرفات علي تثير الاستغراب في الحيــاني فما زال يلحظ انه عصبي ، وانه يتحرك أكثر مما يفكر ، وانه سريـع الانفعال .. ولكنه هذه المرة حمد فيه هذا « الطيش » وكأنما كان ينقصه ليخرجه من « رزانة » اتسم بها ، ولكنها لا تنفع في وقت يتحرك فيه الزمن بأكثر مما يفكر هو . ووقفالحياني وكأنه يضع زمامه في يد علي فقد انتصر علي بطيشه علىرزانة الحياني .. وقف قبل أن يسـأل إلى أين ؟

وفي شارع جامع الأندلس كانا يسيران في صمت وقد بدأ الشارع يخلو من رواده إلا بقية من رجال ونساء يسيرون في تـكاسل كأنهم أشباح ليل ، يتحركون ببطء تحت أشعة أنوار خافتة ترسلها مصابيح معلقة باهتة . ولم يبق من تجار الشارع إلا سيدات يبعن خبز الشعير والقمح على طاولات شبه منهارة وأطفال ينادون بائعين « شمع الطناش » والوقيد .

وفي هدوء الشارعقال علي وكأنه انتهىمن تفكيره العميق:

ـ سنسأل عنه الصانع التباع ، فهو يعرف مكان سكناه ويستطيـع أن يدلنا .

واغتبط الحيــاني للفكرة وهو يعبر عن اغتباطه في هذا السؤال :

ـ أوما تزال تذكر منزل التباع ..؟

أجاب علي وهو يضحك :

ـ لقد ذرعت الطريق إليه آلاف المرات .. كنت أحمل إليه «القفة» كلما وجد فرصة عدم وجود المعلم في دار الدبغ ..

وبدت للحيـاني فكرة البحث عن عبد العزيز عند التباع فكرة نيرة ، فهو يعرف التباع وما يزال يذكر انه كان يرشده ويوجهه ، وانه تعلم على يد عبد العزيز – مع التباع – الاعتماد على شخصيته . واهتدى على يده إلى فكرة النقابة .

فوجىء التباع أمام الشابين اللذين عرفهما طفلين يتعلمان في دار الدبـغ . وبدا عليه الاضطراب والقلق وهو يستقبلهما على باب منزله فلم يكن يتوقع قط أن يبحث عنه أحد في هـــذه الساعة من الليـــل ، ولم يكن يتوقع أن يبحث عنه بالذات الحياني وعلي . حاول أن يرحب بهما ولكن اضطرابه تغلب على ترحيبه . وبادر علي فاختصر الموقف الحَرِج :

ـ جئنا نسألك: إذا ما كنت تعرف منزل السي عبدالعزيز.

لاحظ الحياني أن التباع ازداد اضطراباً وهو يسمع اسم عبد العزيز. ولم يخف هذا الاضطراب المتزايد فقد نطق التباع:

ـ ولكن من قال لكما ..؟ وماذا تريدان من السي عبد العزيز ..؟

وارتبك الشابان وفكر الحياني :

ـ لعلنـا غامرنا بهذه الزيارة المفاجئة .. كيف نستطيع التخلص ..

وبادر علي بمواجهته بالحقيقة :

ـ وقعنا في مشكلة بعمل الصابون والغزل.. العمال الأجانب سيضربون . ونحن ما موقفنا !؟

وأضاف الحياني :

ـ أنت تعرف ان السي عبد العزيز كان يحدثنا عن النقابة ونحن نبحث عنه لنهتدي برأيه .

بدا على التباع الاطمئنان ، وزال عنه خوفه ، وبادر إلى القول :

ـ انتظرا .. انتظرا قليلاً ..

غاب التباع مدة كان الحياني وعلي يتبادلان فيها التساؤل صامتين ، فقد بدا أنهما في حيرة من الارتباك الذي استولى على التباع . ولم ينقذهما من حيرتهما إلا باب المنزل الذي انفتح عن وجه ضاحك يدعوهما إلى الدخول .

اختلى بهما عبد العزيز في غرفة منزوية في الدرج المفضي إلى الدور « الفوقي » . كان مستبشراً بلقائهما وكأنه ينتظر هذا اللقاء . وكان وهو يستمع إلى حديثهما يبتسم في بشر فتشرق من عينيه لمعة ذكاء كأنهـا تحدث عن انتصار . سكتا طويلاً وهمـا يتهيبان الحديث إلى الرجل الذي عرفا فيه الرّيادة الفكرية ، وكانا يشعران نحوه باحترام عقد لسانهما عن الحديث ، ولكنه هو الآخر لم يتحدث ، وإنما جلس ينظر إليهما وكأنه اكتشف سراً من أسرار رسالته ، وفكر :

ـ عن هؤلاء الشباب كنت أبحث ، عن الذين يشقون في أكل خبزهم ، ثم هم ينصبون أنفسهم لخدمة بلادهم عن طريق العمل ..

واتسعت الابتسامة في وجهه وخيال الشابين يتعاظم أمام ناظريه فيبدوان عِملاقين بسواعد مفتولة يحطمان هيكلاً هشاً متداعياً، ثم يبدوان وهما يبنيان بناء شامخاً . وتنمحي الصورة من عينيه لتظهر مكانها صورة شابين أجنبيين يعملان أمام آلة ضخمة، ولكنها سرعان ما تختفي ليظهر مكانها الحياني وعلي. وامتلأت عيناه بالدموع فقد رأى في شبابهما صدق ما ظل يحلم به سنوات .

انتفض عبد العزيز كمن عاد من رحلة بعيدة ، بعيدة ، ليجد نفسه أمام الشابين وجهاً لوجه :

ـ حدثني التباع عنكما طويلاً منذ كنتما في دار الدبغ .

وتلفت إلى الحياني :

ـ أعرفك جيداً ولكنك غبت عني زمناً طويلاً . أتراك وجدت عملاً أجدى عليك من دار الدبغ ؟

واضطرب الحياني فهو يقف موقفه هذا لأول مرة أمام رائد عرف فيه كثيراً من صفات الريادة . ولكن علياً كان أكثر جرأة فقال وكأنه يخاطب صديقاً يعرفه من زمن طويل:

ـ نحن معاً تركنا دار الدبغ ، الحياني يعمل في معمل صابون وأنا أعمل في معمل الغزل .

ابتسم عبد العزيز فقد أدرك انه يمكن أن يحقق بهما هدفين. وحاول أن يمحو أي أثر للتردد من نفس علي فقال يشجعه :

ـ ولعلكما الآن أمام مشكلة ..؟

كان الحياني في حاجة إلى من يخرجه من تردده . وكان السؤال الذي ألقاه عبد العزيز منطلقاً انفتحت نفسه أمامه فتحدث طويلاً عن مشكلة الإضراب الذي ينوي العمال الأجانب أن يشنوه عن طريق النقابة .

وفسح عبد العزيز المجال للشابين أن يتحدثا ، فهو يرغب في أن يكتشفا مشكلتهما بانفسهما، وأن يهتديا إلى حل يساعدهما في الاهتداء إليه . ولكنه اكتشف ان المشكلة التي يواجهها الشابان أكبر من أن يصلا فيها إلى حل . فهما ، والكثرة الكثيرة من أمثالهما ، عمال من الدرجة الثانية لا يعترف لهما قانون العمل بأي حق .. والإضراب سيرمي بهما إلى الشوارع. ولكن لا قيمة لمعارضتهما الإضراب ، بل سيكونان ضحية العمال المضربين إن هما خالفا أوامر النقابة .

أدرك عبد العزيز انهما يشعران بالمشكلة ولكنهما لا يجسمانها. صاح في وجهيهما وقد اكتسى صوته طابع الجد كما لو كانت المأساة ستنصب على رأسه :

ـ قلت لكم منذ مدة : كونوا النقابات ..

والتفت إلى الحياني :

ـ ألا تذكر ..؟

وهز الحياني رأسه إيجاباً ، وتردد قبل أن يقول :

ـ ولكن ..

ـ لا أحب أن أسمع كلمة « لكن » .. أنتم شباب .. و «لكن» هذه إنما تعني : لا أريد ..

كانت كلمات عبد العزيز صارمة ، ولأول مرة يسمعان كلمات صارمة لا تصدر عن «المعلم» أو عن صاحب المعمل . كانت صرامة الكلمات تعني بالنسبة إليهما الأمر والاستعلاء والاحتقار، وهما الآن يواجهان الكلمات الصارمة بمعاني أخرى تشعرهما بشبابهما وإنسانيتهما وكرامتهما . اغرورقت عيناهما بالدموع وبدا لهما عبد العزيز من خلال دموعهما الباردة كضمير اختفى منه الجسد وتضاءل منه الصوت الذي يقرع الأذن . احتواهما بقوة غيبية ودوى في داخلهما هدير منه لم يكن صوتاً ، ولكنه كان هداية . واقشعر بدناهما كما لو كانت حمى لاهبة قد احتوتهما . وساد الغرفة صمت رهيب لا يدري أحدٌ كم طال إلى أن قطعته فتاة صغيرة دقت الباب واقتحمته وهي تحمل بين يديها صينية وبرّاد شاي .

-٢١

عمت الدعوة إلى الإضراب مختلف المعامل التي يسيرها الأجانب في المدينة التي لم تعرف الإضراب من قبل في معاملها العتيقة التي يسيرها المواطنون . كانت هذه المعامل تسير بروح التعاون وروح تقدير الصغار للكبار وتقدير المتعلمين للمعلمين . المتعلمون فيها يشتغلون ليتعلموا لا ليأخذوا أجراً، فهم يدفعون من جهدهم ونشاطهم وحيويتهم راضين مغتبطين ليتقنوا الصنعة . والأجر إنما هو صدقة أو هبة تشجيع يمنحها المعلم في أسبوع ما

كلما بدا له ان مكسبه يتحملها ، وكان المتعلمون يقبلون هذه المواضعة لأنهم يؤمنون بأن الصنعة رأسمال كبير . هم يوفرون من يومهم لغدهم ، أجر عملهم اليوم يدخرونه ليتضخم فيُصبح رأس المال .

كذلك فَهِم آباؤهم وأمهاتهم حينما ألحقوهم بالصنعة ، وكذلك فهمت فاطمة أم علي وشامة أم الحياني حينما توسط للأولى سيدي التهامي زوج للا خدوج ليلحق ابنها متعلماً في دار الدبغ مع المعلم عبد القادر ، وحينما ألحقته بنفسها مع المعلم التدلاوي في المطحنة ، وحينما قدمت الثانية ابنها بنفسها للمعلم فضول . وما تزال أم الحياني تذكر الكلمة التي سمعتها من المعلم فضول وتكررها لابنها في كل مناسبة ربما لتستقر في ذهنه حينما يصبح معلماً :

– ابوا يا سيدي المعلم بعض ما أجراه الله على يدك ..
– كيف ..؟ أنت التي يجب أن تدفعي . ألا يكفيك انه سيتعلم ..؟

كان جواب المعلم فضول – ولعله الجواب الذي سمعته كل أم قدمت ابنها ليكون متعلماً – تَحَلـُّلاً من الالتزام بأي أجر يدفعه للعامل . وهو تحلل كان يُغني المتعلمين عن أن يطالبوا بأجر أو يتطلعوا إلى أن يكون أجراً محدداً ، يطالبون بتنميته .

ولم تكن للمتعلمين أوقات عمل محددة في الساعات . وإنما

هم يعملون منذ أن يفتح المعلم باب معمله مع إشراقة الشمس وينتهون مع الغروب ، وقد يتعطلون عن العمل أياماً لكساد السوق أو قلة المواد الأولية ، وفي أسابيع الأعياد وأيام المواسم . وهم في غير حاجة إلى أن يتطلعوا إلى حقوق أخرى كان الحياني وعلي يتسمعان إلى حديث عنها بين العمال الأجانب في معمل الصابون ومعمل الغزل ، فلأول مرة سمعا عن تعويضات إصابات العمل أو عن الضمان الجماعي أو حقوق التقاعد . سمعا عن كل ذلك فلم يفهما ولم يدركا منه إلا انه شيء متعارف عليه بين الادارة الأجنبية وموظفيها الأجانب . وما يزال الحياني يفكر أنه سأل مرة السّايسِي العامل القديم في معمل الصابون عما تعنيه تعويضات إصابات العمل ؟ فأجاب السايسي بلهجة الخبير :

ـ هؤلاء النصارى مخهم فارغ .. عندهم كثير من القيل والقال ، وليس هناك شيء مهم تضع عليه يدك .

لم تكن بهم حاجة إذن إلى إضراب عندما كانوا في معاملهم الصغيرة يعملون ويؤجرون أو لا يؤجرون. المهم انهم يتعلمون. وحينما فاجأتهم الدعوة إلى الإضراب هزت كيانهم .

ـ ونحن ؟ لماذا لا نضرب ونطالب أيضاً برفع أجورنا وتسويتنا بالآخرين ..؟

وفكر الجمع الصغير من عمّال معمل الصابون في الصيحة التي أطلقها الحياني ، وعمّتهم الدوّامة . فهم أمام مفهوم

جديد للعمل . وهم أمام دعوة جديدة لتفسير الاضراب الذي يساقون إليه ، وانطلق السايسي وهو عميد العمال من الدرجة الثانية يقول :

ـ هل جُنِنت ..؟ أنحن الذين نحدد الأجور حتى نطالب برفعها ..؟

واحتد القرطبي وكان شاباً قوياً منفعلاً :

ـ ..وهل أولئك الذين يشنون الاضراب يحددون أجورهم بأنفسهم ؟ نحن نعمل مثلهم ونشقى أكثر منهم ويؤجرون أكثر منا ، ثم يضربون للمطالبة بزيادة الأجور ..

وفكر حمّاد مطرقاً ، ثم رفع رأسه كما لو اهتدى :

ـ كنت أريد أن أقول هذا : نحن الذين نكتوي بنار الفرن وحرارة « الطنجير » ونحمل قوالب الصابون حارة ملتهبة ، من حقنا أن نضرب ..

وسكت كما لو كان في حاجة إلى شيء من تفكير :

ـ .. بل من حقنا أن نطالب بأن يقوم الآخرون بنفس العمل الذي نقوم به و ..

قاطعه السايسي :

ـ تعني أن مسيو أندري يجب أن يقف بجانب الفرن ومسيو ماتيو يجب أن يحمل معنا قوالب الصابون ..؟

ـ نعم ولم لا ..؟

أشار السايسي بسبابته يحيلها في صدغه كمن يشير بأن محدثه قد جن :

خشي الحياني أن يتطور الخلاف بين العمال إلى تمزيق الشعور الذي أخذ يزاولهم ، فأشار إليهم بكفيه المقلوبتين أن اهدأوا.. كانوا في حاجة إلى من يحمل عنهم عبء التفكير والقول ، فهم يواجهون موقفاً يبدو لهم مرتبكاً ، فأنصتوا وكلهم تطلع إلى الحياني :

ـ نحن عمال في هذا المعمل ولنا مثل الحقوق التي ينبغي أن تكون لكل العمال ..

وقاطعه السايسي :

ـ ولكن أتعرف أنت ما يعرفه مسيو ..

نهره الآخرون وكادوا يسكتونه بأيديهم ، فتطامن الحياني وهو يشير إليهم بالهدوء :

ـ قد يأخذ مسيو ماتيو مثلاً أجراً أكثر من واحد منا لأنه خبير ، ولكن الأجور تختلف والحقوق لا تختلف .

وتساءل القرطبي :

ـ وما هي الحقوق الأخرى غير الأجور ؟

وكان السؤال انفتاحاً للحياني على أفكار تجول في ذهنه لم يهتد للحديث عنها ، فأجاب :

ـ حقوق الضمان الجماعي وحقوق .. أ .. أ .. تعويضات

حوادث الشغل .. وحقوق .. أ .. أ .. الاضراب وحقوق النقابة ..

وفغر العمال أفواههم كما لو اكتشفوا شيئاً جديداً ، وهتف القرطبي :

ـ ايه .. لماذا لا تكون عندنا نقابة ..؟

وقاطعه حماد دون أن يسمع ما قال :

ـ أي نعم لماذا لا نكون معهم في النقابة التي تطالب لنا بحقوقنا وتقرر الإضراب ..؟

وانتفض العمال كما لو كان شيء ما يغيب عن أذهانهم فلم يفكروا فيه من قبل . وقال التجاني – وكان من المجموعة التي لم تشارك بعد في الحديث – :

ـ يجب ألا يمتازوا عنا بشيء ، نحن أيضاً يجب أن نكون في النقابة ..

فقال الزرهوني :

ومن أعطاك العيد تفرح به .. هل سيقبلونك في نقابتهم لتصبح بعد أيام نِدّاً لهم ..؟

ضحك السايسي فقد وجد في كلام الزرهوني مِصداقاً لما يفكر فيه . ولكن العمال لم ينتبهوا إلى ضحكته الساخرة ، فقد اتجهوا بتفكيرهم وعيونهم إلى أحمد الجنّان وكان معروفاً بهدوئه ورزانته حتى اكتسب الاحترام بين زملائه . وقد رفع يده قبل أن يتحدث كأنه يطلب الكلمة :

ـ نحن الآن نواجه مشكلة فلا ينبغي أن نخلق مشكلة أخرى ..

وبدا انه غير واضح فأردف :

ـ .. نريد أن نطالب بحقوقنا كالآخرين ، فنحن نتجه إلى إدارة المعمل ، ولكنا بدأنا في مناقشتنا نتحدث عن أشياء تثير العمال الآخرين .

وسكت قليلاً ولكن بدا انه ما زال يفكر ، وكانت فرصة لزملائه أن يتدبروا هذا الذي قال ، ثم استمر دون استئذان :

ـ ..لو جمعنا خصومة الادارة والعمال لكنا نحن الخاسرين..

كان الحياني يستفيد من هذه المناقشة وكأنما كانت انطلاقاً لأفكار رسبت في شعوره طويلاً لم يستطع وهو يفكر وحده أن يكشفها . وانصرف بفكره عن المناقشة التي استمرت تهتدي وتضل فقد كان يعيش مع كلمات استبدت بفكره : نقابة لنا – نقابتهم – خصومة العمال الآخرين – خصومة الادارة .. بدا له الموقف أكبر مما كان يظن واستغرقه التفكير حتى انتبه أحد العمال إلى أن الوقت قد حان للعودة إلى المعمل ، فقد كانوا يجتمعون في الحديقة العامة وقت غدائهم .

تواعدوا على الاجتماع في غدهم وامتطى كل منهم دراجته ليعود إلى المعمل .

وجد الحياني على باب المعمل أندري وماتيو . تقدما إليه – فقد كانا في انتظاره – لأول مرة كانا هما اللذان يرغبان في الحديث إليه . ولم يكن ينقصهما البِشْر ، فقد علت وجهيهما ابتسامة لا تحتـــاج إلى كبير عناء لتُدْرِك أنهما اقتسراها اقتــاراً من خلال المتاعب التي يعانيانها وهما يقودان حملة الاضراب . بادر الحياني إلى تحيتهما بمثل الاحترام الذي ألف أن يحييهما به ، ولكنه فوجىء بأنهما يتحدثان بكثير من الاحترام ، ولأول مرة يسمع منهما ضمير الجمع « فو » وهمـا يخاطبـــانه . أدرك من الكلمات الأولى في حديثهما المزيج من الفرنسية –لهجة ماتيو ما زالت ذات لكنة اسبانية– والعربية المكسرة انهما يعانيان مشكلاً لا يقل عن المشكل الذي يعانيه العمال المغـــاربة وأن العمال الأجانب يقدمون على مغامرة ، ولكنهم يؤكدون لأنفسهم انهم سينجحون، وَصَلا سريعاً إلى الهدف من هذه المقابلة :

ـ أنتم أيضاً يجب أن تضربوا ..

وفكر الحياني طويلاً فهو لا يملك أن يَعِدَ ، ولا يملك أن يقول : لا . وفجأة وضع على نفسه السؤال :

ـ إذا لم نضرب ، هل كنا نستطيع أن نُسَيِّر المعمل ؟

ما زال السؤال الذي تداعى إلى ذهنه وهو ينظر في وجه أندريه يرسب في أعماقه حتى ظفر بالجواب على لسان ماتيو :

ـ إدارة المعمل تعرف أنكم لن تُسَيِّروا المعمل ، ولكنها فقط تريد أن تكسر الاضراب بكم ..

وحرك الحياني رأسه يريـد أن يقول : فهمت ، أكد للرفيقين أنه سيتحدث إلى زملائه في الموضوع ودخل المعمل وهو يفكر :

ـ إدارة المعمل تريد أن تستغلنا لتكسر الاضراب .. والعمال الأجانب يريدون أن يستغلونا ليكون الاضراب ناجحاً، ونحن ؟ ماذا نستفيد لو نجح ؟ ماذا نخسر لو فشل ؟

ظلت الأسئلة تُدَوّي في أعماقه ، وهو يسير في عمله دون وعي ، تحمل مسؤولية الجواب عنهـا ولن يعفيه زملاؤه من الجواب بعد أن تبين أنهم ينتظرون منه الرأي فيما يُوَاجهُونه من حرج ؟

* * *

كان الحياني ينتظر أن يقابل عَليّـا بعد انتهاء فترة المساء ، وفي الساحة التي يفضي إليها باب معمل الصابون وقف ينتظر قدومعلي. كان هناك أطفال يلعبون، في مثل طهارة الملائكة ، ثيابهم نظيفة ، ومن وجوههم تنبض حيوية نابعة من صحـة وعافية ويقظة حس . انتقلت المخيلة بالحياني إلى ساحة باب الخوخة ودرب الأقواس، هناك أيضاً أطفال يلعبون لا يعرفون الدراجة بعد ، تلك التي يسابق بها الريح هذا الطفل الأشقر

الجميل، ثيابهم مثل ثيابي تلك التي كنت أرتديها في مثل سنهم.

وضحك من ثيابه تلك فهو يذكر أنها كانت أسمالاً مرقعة لا ثياباً ، ومع ذلك هؤلاء وأولئك سعداء في لعبهم ، لم يصطدموا بعد بواقع الحياة : لا اضراب ولا ميز في الأجور والعمل والحقوق والمصالح .. من يدري فقد يكون أحد هؤلاء معلماً لأحد من أولئك ..! قد يكون ابنُ ماتيو معلماً لابن الحياني ..! وقد يطلب إليه أن يضرب هو الآخر حتى يكون الاضراب ناجحاً .. وقد يكون أحد هؤلاء صاحبَ معمل يشتغل فيه أحد أولئك كعامل من الدرجة الثانية أو الثالثة .

وابتسم ساخراً من أفكاره ، ولكنها ألحت عليه في تحد :

ـ قد يكون أحد هؤلاء جنرال المدينة أو « مجادة المقيم العام » فيما نستقبل من أيام ..!؟

أحس بمرارة في َفمِه فبصق على الأرض المتربة كأنما يحاول أن يطرد فكرةً َمرِيرَةً .. ولكن الوجوه البريئة الجميلة لم تختف من عينيه والأطفال يقفزون على الحبل ، أو يسارع بعضهم بعضاً على الدراجات ، أو يتغالبون في الجري والإفلاَت . وأنقذه علي من أفكاره وهو يكبح ِجمَاح عجلته بجانبه :

ـ أرجو ألا أكون قد تأخرت .

ـ مهما يكن فقد شغلت نفسي باللّعِب مع هؤلاء .

أشار إلى الأطفـال فضحك علي ملء فيـه وهو يداعب الحياني :

ـ آغو .. مومو .. غلبوك أو غلبتهم ..؟

ـ ما زالوا يغالبونني حتى غلبتهم ..

قالها وهو يضحك من أعماقه ، فقد مَلَّ التفكير في الجد، لكن علياً قدمَ وكأنه يحمل عبئاً ثقيلاً يحـاول أن يلقيه على عاتق الحياني :

ـ أعلمت ..؟ طَلَبَ اليوم انطونيو ومـدام باوليني مني أن نتضامن معهم في الإضراب ..

واستقبل الحياني الخبرَ كما لو كان يعرفه ، ولكن سؤالاً طَفِرَ إلى فكره :

ـ أترى هؤلاء العمال متفقين على أن يسعوا لدى عمـال الدرجة الثانية ليكونوا في صف عمال الدرجة الأولى ؟ لأول مرة يسعون إلى هذه التسوية .. وكان الجواب سريعاً لم يلبث أن أفضى به إلى علي :

ـ إنها النقابة تنظم هذا الاتصال بالطبقة الثانية من العمال.

ولم يترك علياً يؤكد أو يعترض ، ولكنه أضاف :

ـ وبمَ أجبتهم ...؟

ـ اجتمعنا نحن المغاربة ظهراً، وارتأى بعضُنا أن نُضْرِب وخشي الآخرون أن يكون الاضراب كارِثةً عَلَيْنَا .

ـ المهم : هل اتفقتم ؟

– الحياني .. مالك تستعجل الأشياء .. وهل يمكن أن نتفق دون أن يكون رأينا – أنت وأنا – متفقاً .

وحدّث الحياني علياً بأخبار معمل الصابون واجتماع الظهر وانتهى بالحديث إلى القول :

– يخيل إلي أننا سنقف عزلاً في المعركة : العمال الأجانب يريدون أن ننضمّ اليهم لينجح الإضراب وأصحاب المعامل سَيَرْغبون في أن يكسروا الإضراب بنا .

وبادر علي فكأنه كان مع فكر الحياني على موعد :

– لو كنا مسلحين بالنقابة لتحملت مسؤولية القيادة ..

فأضاف الحياني :

– .. ودافعت عنا إذا أضربنا أو امتنعنا ..

ولفّت الدّوّامة الشابين كما لو اندفعا في سباحة حتى وسط اليم ، ثم طفت الأمواج من حولهما فلم يَهْتديا بعد إلى شاطىء.

أخذا يفكران صامتين وقد أوغلا في السير يَجُرّان عجلتيهما. وبدأ الظلام يخيم على المدينة وهما يسيران بين الحقول والجِنان في الطريق الطويلة التي تفصل المدينة الجديدة عن باب الفتوح . خلت الطريق من المارة إلا من سيارات تمرق من حين لآخر تحت ضوء باهت لا تكاد تستبين به طريقها . وصفا الجو فقد أخذ الربيع يُطِلّ على المدينة العتيقة ، وبدأت الضفادع تردد أناشيدها من ساقيات الجنان الممتدة على الطريق الطويلة .

ذهب التفكير بالشابين كل مذهب حتى نطق الحياني أخيراً :

– ما رأيك ..؟

وتردد قبل أن يستطيع بَلْوَرة ما ارتجف به فكره فاستحثه علي وكأنه رأى أمامه حبلاً ينقذه من غرق. وأضاف الحياني :

– نتضامن مع المضربين على شرط أن ندخل النقابة .

كانت الفكرة أكبر من أن يجيب عنها علي بالسرعة المطلوبة ، فاستمر يفكر وكأنه لم يسمع شيئاً ، ولم يستعجله الحياني، فقد كان هو الآخر كمن ألقيت اليه الفكرة من خارج، فاستمر يفكر وقد انتقل فكره من منطقة إلى منطقة ، وترددت في الفكرين الصغيرين مجموعة من الأسئلة :

– يقبلوننا في النقابة ..؟ يطردوننا من العمل ..؟ نضمن اتفاق العمال جميعهم ..؟ لم لا نطالب بتكوين نقابة منفصلة عن نقابتهم ..؟

وكان علي أسرع بالتفكير جهراً فنطق :

– لم لا نُكوّن نقابة مستقلة عن نقابتهم ؟

سؤال لم يهد الحياني ولكنه زاد من عنف الدوامة التي تلفه ، فاستمر يفكر حتى نطق أخيراً :

– لا أعتقد أننا سننجح .

وركبا دراجتيهما ليستعينا بهما على قطع المسافة البعيدة وهما يسيران مُتقاطِرَين غارقين في تفكير عميق حتى واجهتهما أضواء باب الفتوح وقد أظلمت السماء وبانت نجومها . ترجل علي واتجه مفتر الثغر نحو الحياني وهو يقول :

– وجدتها ..

ودون أن ينتظر سؤال الحياني الذي طفر على وجهه ، أضاف :

– عبد العزيز .. أنسيت حرصه على ألا نقوم بعمل دون مشورته .

وانفرجت أسارير الحياني فقد أنسته الدوامة أن يبحث عن كل طرق النجاة .

- ٢٢ -

كان مسجد الأندلس على مقربة منها ، واستطاعا بسهولة أن يهتديا إلى منزل عبد العزيز . لم يصدّهما عن انتظاره انه لم يكن موجوداً ، فقد كان ما بينهما من حديث يستغرق كل وقتهما ويتطلبان المزيد . لم يكن في وسعهما أن يلقيا كل أعباء المشكل على عبد العزيز ، فهما يعرفان انه سينير لهما الطريق ولكنهما يعرفان من حديثه – وما زالا يذكران – الجملة التي رددها وعيناه الزرقاوان تنفذان إلى أعماق ضميرهما :

ـ اعتمدا على نفسيكما وعلى زملائكما في العمل .. لستم صفاراً .. تحملوا مسؤولياتكم ..

كان علي ، وهو يفكر في انتظار ، يلحظ صراع أطفال حول السقاية التي تقبع بالقرب من باب المسجد (الماء والصلاة)، طفلات تحاول كل منهن أن تملأ سطْلَها . وتدفع كل منهن الأخرى :

ـ أنا قبلك .. ـ لا أنا قبلك .. ـ اتركيني الله يرحم والديك معلمي ستقطع رقبتي لو تأخرت .. ـ أوف .. هذا الازدحام كله .. سأعود إليها بالسطل فارغاً .. الماء مقطوع ..

وضحك علي لحديث الطفلة الصغيرة وأشار للحياني :

ـ أنظر .. واسمع .. هذه الطفلة ستضرب عن العمل .. ستعود وسطلها فارغ .. لم تحْتَج لنقابة ولا لقرار إجماعي أو تضامني .

وضحك الحياني :

ـ ملأ عليك الإضراب تفكيرك ..!

ضحكا معاً .. وانطلق علي يفكر :

ـ طفلات في عمر الورد يخرجن في هذه الساعة المتأخرة ليملأن الجِرَار ـ لو كن في الريف لفعلن ذلك ـ الأسطُل بالماء ..؟ نصيبهن من ضريبة الحياة : العمل .. أنا أعمل في

المعمل .. أمي تغسل ثياب الناس .. كنزة أو الجيلالي لا شك ان أحدهما الآن يملأ سطلاً أو بقرجاً[1] بالماء ..

وصاح المؤذن من منارة فوق رأسيهما :

– الله أكبر ..

وهتف الحياني بعلي :

– أذان العشاء ولم يحضر بعد .

وأجاب علي :

– الأذان بشرى بالعودة إلّا أن يكون في منزل التبّاع يسير الجماعة الوطنية .

وعادت الذاكرة بالحياني إلى الليلة التي اكتشفا فيها عبد العزيز في منزل التباع ، واختلى بهما في غرفة منعزلة في الدرج . وفكر :

– لا شك أنه كان في غرفة أخرى مع جماعة أخرى ..؟

وأجاب الحياني على السؤال الذي تردد في فكره :

– حقاً ، لقد كان في دار الدبغ يكون الجماعة الوطنية ، وهمّ أن يلحقنا بها بعد أن اجتمع بنا ، التباع وأنا ، غير أني تركت دار الدبغ ..

أنقذتهما من تفكيرهما طرقات قوية من بلغ تنزل بعنف على عتبة باب المسجد . فقد انتهى المصلون من صلاتهم ، وأخذوا

---

(١) ما يغلى فيه الماء للشاي .

يخرجون في شبه تسابق كأنما ليدركوا بائعي الشاي والسكر وبائعي النعناع قبل أن يقفلوا دكاكينهم. وكان كل منهم يخبط البلغة وهو واقف ولا يتدنى لينزلها برفق على العتبة التي انحنى ظهرها من كثرة ما طرقتها البلغ .

وانفرج الزحام عن وجه بشر ما يزال يتمتم بمعقبات صلاته.

رحب بهما عبد العزيز ، ولم يظهر استغراباً عند رؤيتهما ، فقد كان يعرف أنهما سيعودان ، وإنما بادرهما بالحديث وكأنه من المشكل على خبرة :

– أي نعم .. تمَّ الاضراب أم لم يتم بعد ..؟

ونظر أحدهما للآخر في شبه استغراب، فابتسم عبد العزيز وهو يضيف :

– أتظنان ألَّا علم لنا بشيء ؟ الحزب درس الموضوع وهو في عضدكم .

زادَ استغرابهما فزادت ابتسامته اتساعاً ولمعت عيناه :

– ستعرفان الكثير مما تستغربان منه . ولكن تأكدا منذ الآن أنكم لستم وحدكم .. والمعركة ليست معرككتم فحسب ، وإنما هي معركة الشعب بأسره .

عَظُم الأمر في عيني الشابين ولفتهما الدوامة من جديد ، وقد تركهما عبد العزيز لحظات وحدهما في الغرفة الصغيرة القريبة من الباب . أخذ أحدهما يختلس النظر إلى الآخر كأنما

ليطّلع على ما ارتسم في نفسه من حديث عبد العزيز . ونطق الحياني في همس :

– كم كنتَ موفّقاً حينما اقترحتَ أن تتجه إليه . فإني لأشعر أننا لم نعد وحدَنا .

وأجاب علي :

– .. وإني لأشعر بأن المُشكلة ليست مشكلتنا وحدَنا..

وتداعى إلى فكرهما الصغير سؤال ملح :

– ولكنها مشكلة من ..؟

ارتسم السؤال كدائرةٍ صغيرةٍ أخذت تَندَاح لتكون مجموعة دوائر في الفكرين الصغيرين ولتزيد الدوامة اتساعاً وهي تلف الحياني وعلياً .

ودخل عبد العزيز ضاحكاً كعادته وهو يقول :

– المعذرة فقد كنت مع شابين آخرين لهما مشكلة مماثلة .

وأحس بأنه في حاجة إلى مزيد من الاعتذار فأضاف :

– ينبغي أن تصبرا معي ، ففي هذا الوقت بالذات يرد عليّ عشرات من أصحاب المشاكل .

ثم ضحك أكثر كأنما ليخفف من كلمة « المشاكل » وأردف :

– .. أو من الذين نصنع لهم المشاكل ونبعث بهم ليحلوها.. الحقيقة ليست هناك مشكلة ، وإنما هناك إيمان ينتصر على كل

المواقف التي يضعنا فيها هؤلاء المستعمِرون .. من شرف حظنا أن نقاومهم .

وصمت قليلاً وأحس وهو يفكر انه يجب أن يدفع بهما إلى الحديث ، فقال وهو يحدق في وجهيهما :

– ايه .. أين وصلت قضية الإضراب ؟

نطقا معاً .. ثم تراجع علي ليترك المجال للحياني :

– اجتمعنا – كل في معمله – ولم نهتد إلى حل :

وقال علي كأنه يستدرك :

– العمال الأجانب يطالبوننا بأن نؤيدهم ..

فقال عبد العزيز :

– وأرباب المعامل لا يريدونكم أن تشاركوا في الاضراب! أليس كذلك ؟

وحرّك الحياني وعلي رأسيهما إيجاباً، فأضاف عبد العزيز :

– نجحنا .. تأكدا أننا نجحنا ..

ابتسم وهو يلحظ علامات استغراب على وجهي الشابين ولمعت عيناه وأخذ يشرح :

– أصبحنا نحن المغاربة سادة الموقف.. كانوا يستهينون بنا فأصبحوا الآن يخطبون ودنا .. عمال وأصحاب عمل .

انفجرت أسارير علي والحيـــاني . أدركا لأول مرة انهما لا يفهمان الكثير مما يحيط بهما . ونطق علي :

– ولكن المشكلة .. أ .. أ ..

لم يستطع أن يُبيِن ، فتلقف عبد العزيز الكلمة وعبّر عما يجول في ذهنيهما :

– المشكلة انكم بين المطرقة والسندان ..؟ تلك نتيجة تفرق العمال وضعف النضج النقابي .

وقال علي وكأنه يستعجل :

– فكرنا في النقابة ، ولكن هل نكون في نقابتهم أو نؤسس نقابة منفردة ؟

وأجاب عبد العزيز :

– مهم .. مهم جداً أن تواجهوا المشكلة ، ولو ان وقت الاختيار لم يحن بعد ..

وانتبه الحياني فقال :

– لعل الأكثر استعجالاً الآن هو: هل نضرب مع المضربين أم نعاكس الإضراب ..؟

– مرة أخرى : مهم .. مهم جداً أن تواجهوا الاختيار. نحن في الحزب نعيش معكم .. الموضوع الذي أخذ من الدراسة أطول وقت .

وتطلع الشابان إلى عبد العزيز ، ولكنه لم يُفصِح ، وإنما اتجه إليهما بالسؤال :

– وعلى أي شيء قر رأيكم ؟

ونظر كل منهما للآخر مستنجداً، وغم عليهما فعادا للصمت

يطبق على الحجرة الصغيرة إلا ان عينين ذكيتين لامعتين كانتا تتحدثان .. وكأنهما تبحثان عن القرار في ضميري الشابين .

وقعت عيونهما في عيني عبد العزيز وكأنهما تستجدي الحل فقال :

– ما أحب أن أملي عليكم قراراً ، ولكني أحب أن تهتدوا إليه .

أجاب علي في استسلام :

– وإذا كنا لم نهتد ..؟

فانتفض عبد العزيز كأنه يخاصم :

– لا شيء يمنعكم من الاهتداء .. أنتم شباب وتعيشون مشاكِلكُم يومياً .. اهتديتم إلى ضرورة النقابة وبقي أن تهتدوا إلى الباقي .

وبدا على الشابين الإرهاق الفكري فلجآ إلى الصمت ، وأدرك عبد العزيز فحوى الموضوع متجهاً إلى علي :

– ماذا ستعملون بالنقابة ..؟

فتح علي عينيه استغراباً وحلق في عيني عبد العزيز يستطلعهما: أجاد هو أم هازل؟ ولكن ابتسامة طيبة ارتسمت على العينين الذكيتين كأنها تحاول تشجيع علي على الكلام . فابتسم هو الآخر وكاد يقول :

– سنعمل بها .. نقابة ..

ولكنه اكتشف أنه سيكون مضحكاً ، والتجأ إلى الحياني

بعينين شبه ضارعتين ، فابتسم هو الآخر في حيرة حتى قال عبد العزيز في شبه جفاف :

– يجب أن نكون خَلِية أو خلايا من البارزين عندكم في المعامل .. الخلية تعلمكم كل هذا ، وتحل معكم كل المشاكل . أنتم بعد شباب ، ولكنكم تواجهون المشاكل الأساسية مباشرة في وسط المعركة.. وفي الميدان الذي يختاره الخصم للانتصار.. ألا تعرفون هذا ..؟ المعامل عماد الاقتصاد وهي في حاجة اليكم ، ولكنها مؤسسة على أساس استغلالكم .. مصلحتها في ضياع مصالحكم .

وفتح الشابان عيونهما فأدرك عبد العزيز أنه يخاطب ضمائرَ لا آذاناً . وشجعه ذلك ، فقد أحس كما لو كان خطيباً ينفذ إلى عقول جماهير . واستأنف :

– الآن أنتم أمام مشكلة طارئة ستحل بطريقة ما ، ولكن ..

وسكت فازداد تطلع الشابين . وود عبد العزيز أن يُكمِلا هما الحديث . ولكن عيونهما تعلقت بشفتيه فأضاف :

– المهم هو أن تنظموا أنفسكم للمعركة الطويلة.. المواطنون كلهم يخوضون معركة التحرر ، ولكنكم مفتاح هذه المعركة ، لأنكم مفتاح الاقتصاد. والمعركة في نظر الخصم معركة اقتصاد..

حرّك الحياني رأسه إيجاباً كما لو أنه بدأ يدرك ، فسر عبد العزيز لهذه الحركة وشجعه على أن يترجمها كلاماً :

ـ أراك تحرك رأسك .. تكلم ..

أجاب الحياني :

ـ لقد فهمت ، إنهم يعيشون في المعامل بروح غير التي كنا نشهدها في دار الدبغ .

وأضاف علي :

ـ ولا الروح التي عرفتها أنا في المطحنة أو في الدراز .. يصارعون بالليل والنهار لزيادة الانتاج وزيادة الربح ..

وسكت فأضاف عبد العزيز :

ـ ولكن على حسابكم.. ومقاومة ذلك هي مهمة النقابة.. أفهمتما ؟

لم ينطقا ولكنهما حركا رأسيهما في حيرة . فأضاف عبد العزيز :

ـ مهمة النقابة الدفاع عن مصالح العمال .. هكذا يفهمها زملاؤكم الأجانب ، ولكنها عندكم رسالة لإنقاذ إنسانية الانسان فيكم .

بَدَا غامِضاً فابتسم . وقد كانت ابتسامته تفتح المنغلق من حديثه . وأجاب عن علامة الاستفهام التي ارتسمت على محياهما :

ـ الاستغلال الذي يحاول العمال الأجانب أن يستغلوكم وتحاول إدارة المعمل أن تمارسه فيكم سيفرض عليكم ما لم تكن عندكم نقابة تحرركم منه .. أفهمتما ؟

حركا رأسيهما إيجاباً وتسمرت عيونهما في شفتي عبد العزيز فأضاف :

– حقوقكم الضائعة يتمتع بمثيلها العمال الأجانب ، لأن النقابة تضمنها لهم. ضياعكم في هذه الحقوق ليس ضياع مصالح، ولكنه ضياع الانسان فيكم . زميل لك يتمتع بحق فإذا لم تتمتع به أنت أيضاً فقد نزلت إنسانيتك درجة أو درجات .

وهتف علي وقد شعر بأنه أدرك ، ولكنه أرهق أكثر مما ينبغي :

– النقابة إذن ضرورية . ولكن هل نندمج معهم أو نكون نقابة خاصة ؟

وألقى عبد العزيز السؤال الآتي وهو يعرف الجواب عنه .

– وهل تعرفون كيف تُسَيِّرون النقابة ؟

سؤال كان راسباً في أعماقهما ، ولكنه لم يَطْفُ إلا على لسان عبد العزيز . بادر علي يحرك رأسه سلباً . فقال عبد العزيز :

– إذن لم تسألان ..؟ أنتم الآن في طور التعلم ، ولكن المهم أن تتعلموا بسرعة ، فإن خصمكم لن يتيح لكم الفرصة الطويلة لكي تتعلموا .

وانفتحت أسارير الشابين فقد اهتديا إلى جواب عن سؤال أرْهَقَهُما التفكير فيه. وخشي عبدالعزيز أن يستسلما فأضاف:

– مستقبل النقابات يجب أن يكون بين أيديكم فلا مجال لنقابات أجنبية في بلادنا . أفهمتما لماذا ..؟

وكان صمتهما المطبق جواباً واضحاً فقال :

– لأنها نقابات مرتبطة بأم لهـــا في البلد المستعمِر . ومُهِمّتُكم أن تحطموا هذا الارتباط ..

ارتسم على وجهيهما أنه يبالغ فأضاف :

– المستقبل لكم . لن يبقى على وجه هـذا الوطن عامل أجنبي لأن الاستقلال سيتحقق وسنصبح سادة بـلادنا : يسود الفلاح في الأرض ، ويسود الشعب في الحكم ، ويسود التاجر في الدكان ، ويسود العـامل في المعمل . ويومئذ تحتاجون إلى نقابات مكونة منظمة لتواجهوا بها واقعكم .

فكر عبد العزيز في أنه خطب أكثر من الـلازم وأرهقهما أكثر مما يتحملان ، ولكنـه تعمد أن يَصْدِمَهُما بالكثير ، فقد كان يحس وهو يتحدث إليهما أنهما يتعلقان بحديثه . وقد تعلم من كثرة ما تحدث إلى الخلايا أن ينتهز فرصـة الاستجابة الذهنية . ووقف إيذاناً بنهاية الحديث وهو يقول :

– يكفي اليوم هذا الدرس .

وابتسم وهو يضيف :

– أتراه صعب الإدراك .. ؟

فابتسما وهما يجيبان نفيـاً . كانا يقفان في تردد وهما يهمان

بتوديع عبد العزيز . وظلت يد الحياني عالقة بيده كأنما لتؤكد ان سؤالاً ما يزال معلقاً . وأفصح علي :

– ولكن لم نأخذ بعد الرأي فيما يخص الاضراب ..؟

وابتسم عبد العزيز ابتسامته المحببة التي يحملها كل ضميره وأجاب :

– الاضراب . ؟ كلما كان الاضراب فأنتم في صفه ، لأن الانسان المغتصَب فيكم هو سجين أرباب المعامل .. حقوقكم.. مصالحكم بين أيديهم . الاضراب وسيلة للدفاع عن هذا الانسان السجين .

وقال الحياني وكأنه يتنفس الصعداء :

– إذن نقنع الإخوان بوجوب الاضراب ونتفق مع أندري وماتيو .

وأضاف علي :

– .. ومع انطونيو ومدام باوليني..

فاستدرك الحياني :

– ولكنهم سيستغلون موقفنا.

أكد عبد العزيز :

– هنا مهارتكم . إضرابكم مشروط بأن يدافعوا عن مصالحكم أيضاً.. لا تستسلموا إلا في آخر لحظة . مع السلامة، وليكن الله في عونكم .

بهذه الكلمات المشجعة ودع عبد العزيز الشابين على باب

منزله . عـاد وهو يشعر كما لو كان أستاذاً ألقى درسـاً صعباً من الدروس المرهقة ، ولكنه ظل يفكر في البحر اللـُّجّي الذي أرسلها فيه . فقـــد بدأت طبقة متحركة من طبقات الشعب معركتها في جبهتين . وذكر وهو يفكر في الجبهتين الفكرة التي تدارسها الحزب والتي تؤكد أن الاستقلال لن يتحقق ما لم يمس الشعب مصالح المستفيدين : أصحاب المـال والعمل والأرض . وقال لنفسه :

– هذه بداية الطريق للمساس بمصالح أصحاب المـــال والعمل .. وبقي مغتصبو الأرض ..

وانطلق تفكيره يسبح :

– كم اجتمعنا بهم – الفلاحين – وكم وجهناهم ليبدأوا ثورتهم .. ولكنهم في المؤخرة.. يرغبون في استرجاع أرضهم، ولكن يطالبون معها بمن يسترجعها لهم ..

وابتسم فقد كانت سخرية غير مقصودة .

وعاد من ابتسامته ليفكر : ما يزال يرن في أذنه السؤال الذي ألقاه شعيب :

– لنستفت التاريخ أكانت المدينــة تحرر القرية أم القرية تحرر المدينة ..؟

وما يزال يرن في أذنه الجواب الذي هتف به محسن :

– ليحدث التـاريخ نفسه .. فلكل عصر تاريخه : القوم المنظمون الواعون المتجمعون يحررون ناقصي التنظيم والتكوين والوعي ..

ذهب عبد العزيز إلى عشائه وشريط من الأحداث المقبلة يجول أمام ناظريه .

خرج الحياني وعلي من دار عبد العزيز كما لو كانا تلميذين خرجا من المدرسة مرهقي الفكر بالدرس الذي تلقياه . نظر الحياني في وجه علي على ضوء مصباح ينفث نوره على استحياء فوجده اكتسى طابع الجد والصرامة والمسؤولية . وانتظر كل منهما الآخر أن ينطق حتى قال الحياني بعد صمت مرهق :

– مسؤوليتنا أكبر من أن نصنع الصابون ونغزل القطن.. أمامنا آلاف العمال يعيشون حياة من الدرجة الثانية ..

وقاطعه علي :

– قل من الدرجة الثالثة أو الرابعة ..

واستمر الحياني :

– .. لم نعد أطفالاً نفكر لأنفسنا فنحن أمام جهاز ضخم، إما أن نتغلب عليه أو يسحقنا ..

وتكلم علي :

– المهم أن ننظم الآن جميع العمال في كل المعامل، وقضية الإضراب فرصتنا .

سار كل منهما في طريقه صامتاً وهو يحمل شخصية أخرى غير الشخصية التي كان يحملها منذ ساعات .

وفي مفترق طريق تواد َعا إلى لقاء .

- ٢٣ -

كان الجنرال حاكم المدينـــة يذرع أرض مكتبه الواسع بخطوات عريضة ثابتة يهتز لها جسمه الضخم وكرشه المكورة، تعلو وجهه المدور حمرةٌ لامعةٌ ، وتتطاير من عينيه الزرقاوين شرارات لاهبة ، يزوي بين حاجبيه ، وهو ينظر إلى مدعويه في كثير من التعالي، فلا تزيد عيناه اضطراماً بمقدار ما تزيدان جمالاً . تقبع وسط الوجه المدور دخينة ـ كانت من نوع مـا تلفه أصابعه ـ خَبَتْ نارُها وابتل عَقِبُها بلعابه وهو يداعبها

بلسانه كأنه يمضغ بعض شعراتها المسودة . كان يرتدي بذلته العسكرية تتربع صدره أوسمتها وشرائطها ، لا ينقص منهـا وسام ولا شريط . ويضع على رأسه قبعته العسكرية المزينة بضفائر الذهب كما لو كان رئيس جيش احتلال المدينة في حاجة إلى ذهب يعلو رأسه ليزكي منصبه، وكان يعلق يديه من إبهاميه في حزامه العريض يحاني بطنه فيزيد جسمه تضخماً وكأنه يستعين بهما على تدعيم خطواته القوية .

نفخ الجنرال من عقب دخينته وقد توقف عن الخطو فجأة، وبقيت إحدى قائمتيه مبتعدة عن الأخرى كما لو كان صورة سينمائية توقف بها الشريط في لحظة الخطو . نظر إلى مدعويه مصطنعاً الغضب وأنشأ يقول :

– أنا .. أنا لا أقبل أن تتركوا هؤلاء الطغـام يقومون بالإضراب . أسمعتم ..؟

واحتدت أعصاب مسيو روز ، أحد مديري المعـامل وقد كانوا جميعاً يتحلقون حول مائدة الاجتماعات في مكتب الجنرال – فأخذ يقول وقد أحاطت به عيون زملائه في تطلع:

– يا جنرالي إذا كنتم تسمحون لعمالنا أن يقوموا بالاضراب فيعرقلوا السير في معاملنا فسيتعلم منهم هؤلاء الأهلون ليقوموا هم أيضاً بالإضراب .

وخطا الجنرال خطوته المتوقفة وصفع روز بنظرة حادة وهو يفكر في كلامه . وطامَن من نظرته وقد أحس بأنه على

صواب .. ثم عاد فاضطربت أعصابه وهي تداعب حزامه الجلدي العريض ، أجاب وهو يخشى أن تقع الدخينة من بين شفتيه فلم يكن يُبين :

– معك حق ، لا شيء يثير هؤلاء المغاربة مثل الحرية المطلقة التي نبيحها للمواطنين ..

وسكت قليلاً ثم لمعت عيناه بابتسامة لم تكشف نفسها وأضاف :

– لو كنت « مقيماً عاماً » لألغيت حق الإضراب .

وتحرك « سافاري » من مكانه مشدوهاً ورفع اصبعه كما لو كان تلميذاً يستأذن المعلم ليسأل :

– إذا كان من حق « الاقامة العامة » ذلك فلم لا نطالب بالغائه ؟

وبدا على الجنرال أنه اشتط في موضوع المناقشة فأراد أن يكبحها لولا أن إصبعاً كانت مرتفعة وسط المائدة تطلب الكلمة بإلحاح ، فأذن . قال ريمون :

– يا جنرالي يخيل إلي أن الأمر أكبر مما نظن . الاضراب حق للمواطنين بقانون الجمهورية . والنقابات هنا فرع من النقابات هناك . لو منعتم الاضراب لتضامن عمال فرنسا ولسببنا مشكلة .

أوقفه الجنرال بإشارة من يده وكأنما عز عليه أن يفتح

أحد هؤلاء عينيه على حقيقة كان في غفلة عنها ، وقال وهو يطرد عقب الدخينة بلسانه ويسحقه بحذائه الضخم :

– لم أجمعكم لنتحدث في القوانين ، ولكن لأسألكم : لمَ تركتُم هؤلاء المغاربة يُضربون ؟

بقي السؤال حائراً في جو الغرفة المشحون بالقلق ، وكان كل من الحاضرين يحدث نفسه :

– تركناهم يضربون ؟ وهل كانت الشرطة معنا لتلحقهم بعملهم بالقوة ؟

وصرخت حقيقة في ضمير « ماركو » كاد يفضي بها لولا أن صدّه جو القلق البادي في الحجرة :

– ماذا كنا نصنع بهؤلاء لو لم يضربوا ؟ ليس فيهم رجل يعرف كيف يدير آلة أو يحرك دولاباً ..

وظلت الحقيقة تطوف برأسه في الوقت الذي كان «مولي» يفكر :

– لو أرغمناهم على العمل لهاجم المضربون المعامل، وكانت معركة نحن فيها الخاسرون .

وضاق الجنرال بمناقشة كانت تنتهي إلى العجز عن تلمّس السبيل للخروج من المأزق ، وبدا له أن أصحاب المعامل لم يفهموه، فجلس في مكان الرئاسة وبسط يديه جميعاً على الفراش الأخضر كما لو كان يريد أن يتحدث بلطف كرئيس اجتماع . ثم راجع نفسه ورفع سبابته وانتفخت أوداجه وقطب ما بين

حـــاجبيه ، وسرى في المكتب جو من التوتر ، فقد شعر الحاضرون جميعاً بأن فكرةً ما غيرت الجنرال . ولم يلبث أن أفصح عن هذه الفكرة فقال :

ـ أيها السادة : تعرفون أني رجل عسكري ، لا أقبل ما تحدثتم به إليّ عن أعمالكم في ضبط معاملكم .. لا أقبل أن أجد شباباً «أهليين» يتعلمون في معاملكم شيئاً اسمه الاضراب. أفهمتم ..؟

ونظر أحدهم للآخر في تطلع كأنما كل منهم يريد أن يعرف أثر كلام الجنرال في وجه زميله . ثم عـــادت بهم إلى مكان الجنرال ضربة قوية من كف هوى بها على المـــائدة ، وأضاف :

ـ الحل الآن هو أن تطردوا كل الأهلين من العمـــل في معاملكم .. أفهمتم ..؟

وتحرك الحاضرون في أماكنهم وكل منهم ينظر إلى زميله، وسرى همس كأنه استنكار غير واضح ، ورفع ريمون سبابته مرة أخرى :

ـ يا جنرالي ، في كثير من المعـامل جوانب من العمل لا يقوم بها إلا الأهلون ، لا نستطيع أن نجد مواطناً يقوم بها ، وإن وجدناه فسعره يضاعف سعر الأهلي . نحن مضطرون إلى استخدام الأهلي اقتصادياً و « فنياً » .

وكان الهمس الذي سرى بين الحاضرين يعني تأييد كلام ريمون .

كاد الغضب يستبد بالجنرال لولا أن أنقذه من مواجهة الاعتراض رنين الهاتف . وكان حديث لا صلة له بالعمل الذي يستبد بأعصاب الجنرال . فقد استلقى على كرسيه اللولبي في انشراح، كان يضحك بملء فيه وهو يتحدث إلى صوت أنثوي ويرفع من حين لآخر قبعته المذهبة بسبابته وإبهامه ليحك صلعته اللامعة بخنصره وبنصره . وامتدت أصابعه إلى جبينه لتلتقط دخينة وضعها بين شفتيه فأسرع أحد الحاضرين يوقدها في احترام .

عاد الجنرال بعد رحلة بعيدة في آفاق انتقل اليها عبر خط الهاتف . وبذل جهداً ليعود بفكره إلى اجتماع مديري المعامل وهو يقول :

– من منكم كان يتحدث ..؟

وأدرك ريمون أن الجو قد تغير وأن الظروف أصبحت أكثر ملاءمة فرفع سبابته مرة أخرى وهو يقول :

ـ أظن أن الزملاء جميعهم متفقون معي على أن الاستغناء عن جميع الأهلين في غير صالح الصناعة ..

فأضاف ماركو :

ـ وليس شيئاً عملياً .

وأحس الجنرال أنهم يريدون أن يقولوا شيئاً كان من الطبيعي أن يقوله هو ، فنطق :

ـ عندي فكرة ستخرج بنا من المشكل .

وتطلعوا جميعاً إلى وجهه في فضول ، فقد ضاقوا ذرعاً بجو التوتر الذي سيطر على الجلسة فأصبحوا يترقبون بأعصاب مرهفة كل فكرة تخرج بهم من أزمة الاضرابات التي تفجرت في المعامل ونكبتهم بخسائر من توقف الانتاج والبيع. ونطق الجنرال :

ـ لا زيادة في أجور العمال « الأهليين » مهما يكن الاتفاق الذي ستسفر عنه محادثاتكم مع النقابات .

سكت قليلاً ثم أضاف :

ـ وسأخبر الكولونيل « ميشيل » بهذا القرار ليكون على بينة منه وهو يعالج المشكلة بينكم وبين النقابات .

تلقى المديرون قرار الجنرال بكامل الارتياح . وأعرب « ماركو » عن هذا الارتياح بالنيابة عن زملائه فقال :

ـ رأي سديد سيدي الجنرال يجب أن يقتنع بـــه ممثلو النقابات .. شكراً لكم ..

سُرّ الجنرال لارتياح المديرين فرفع سبابته بمحـــاذاة فمه وهو يشير بها كأنه يتوعد قائلاً :

ـ لم أتخـل عن فكرة الطرد .. المتزعمون للاضراب بين « الأهلين » يجب أن يطردوا..

قالها ووقف لينهي الجلسة ، فلم يعد في وسعه أن يقول أكثر مما قال .

أسفرت المفاوضات بين ممثلي النقابات ومديري المعامل ومندوب الادارة عن تلبية مطالب النقابات بالزيادة في الأجور وزيادة مساهمة المعامل في الضمان الجماعي . وعاد العمال إلى عملهم إلا جماعة من « الأهلين » كان في مقدمتهم الحياني وعلي . ولم يستفد الذين عادوا إلى العمل من الأهلين زيادة في الأجر ولا حقاً في الضمان .

* * *

بحث عمال معمل الغزل وزملاؤهم من عمال المعامل الذين كانوا يجتمعون في « ساحة لافياط » عن علي فلم يجدوه ، وبحث عمال معمل الصابون عن الحياني فلم يجدوه . وتنقل السؤال من فم لأذن وارتسمت علامة استفهام على الوجوه المرعوبة . وتطلعت العيون الفضولية إلى رؤساء المعامل والمشرفين على العمال فزادت في رعبها نظرات شزراء وتحد بالغ وكلمات بذيئة تقرع الآذان . وتحمل العمال فإن الأفواه لتتحدث بأن الاضراب سيسبب الكثير من المتاعب ، وإن كل عامل يتضجر ستعرف باب المعمل قفاه .

تطلعت عيون العمال « الأهلين » إلى زملائهم « المواطنين » فلم يتعرف هؤلاء على أولئك ..

تساءل أحدهم ـ وكان أكثر شجاعة ـ :

أين علي .؟

وتساءل آخر ـ وكان أكثر جرأة ـ :

ـ أين الحياني ..؟

وارتفعت سبابة تعترض شفتين مزمومتين :

ـ أس .. س .. أسـ .. سكت ..

وغضت أعين وتغافلت آذان .. وبقي السؤال :

ـ أين علي ..؟ أين الحياني ..؟

وانتقل السؤال ـ رغم الرعب ـ من فم إلى أذن حتى طرق آذان مدام باوليني ومسيو أندري وماتيو وغضوا جميعاً الطرف فإن آذانهم لم تستمع ، وابتلع ضجيج الآلات همس الأسئلة .. وعرف « الأهلون » أخيراً أن الحياني وعلياً يأويان في دار « بعَيْن قادوس » تدعى السجن . وكانت التهمة التي أوحى بها الكولونيل ميشيل إلى « الباشا » أنهما قاما بما من شأنه أن يخل بالأمن العـام ويمس بالاحترام الواجب للسلطة . وكان الحكم ببساطة : السجن سنتين .

تتبع عبد العزيز المعركة عن كثب ، فقد كان يعرف مصير الشابين وهو يوقظ في ضميرهما الثورة على أخطر حصن وهو المعامل . كان يعرف ان البحث عن النقابة معناه السير في طريق « عين قادوس » ولذلك لم تفاجئه النتيجة ، ولكن

عينيه الزرقاوين لمعتـــا بابتسامة النصر في وجه الجامعي وهو يحدثه :

ـ .. وحكم عليهما بالسجن عامين ..

ارتطم إحساس الجامعي بالابتسامة الذكية تلمع من العينين الزرقاوين ، وانطلقت الكلمات متدافعة تزيل أثر الاستغراب من نفس الجامعي :

ـ .. وماذا كنت تظن..؟ ألا تعرف انهما نفذا إلى حصن قوي من الحصون التي يعسر اقتحامها ..؟

وازداد الاستغراب في عيني الجامعي ، فهو لم يسمع قط أن السجن باب النفاذ إلى حصن ما .. وكلمة السجن ما تزال تثير فيه الرعب والإشفاق . ولم يكن عبد العزيز يحاول أن ينتزع من قلبه الرعب والإشفاق عن طريق الأسى والأسف ، ولكن عن طريق مواجهة الحقيقة :

ـ أتريد أن تعرف الحقيقة ..؟

وانفتحت عينـــا الجامعي على كل أبعادهما وكادت أذناه تستطيلان . لم يمهله عبد العزيز ليزداد شوقه إلى الحقيقة :

ـ كنت أرجو من صميم قلبي أن يدخلا السجن ..

قالها وهو يبتسم ابتسامة لم يستطع الجامعي أن يعرف ما إذا كانت ابتسامة سخرية أو شماتة . ولكن صمت عبد العزيز والابتسامة ما تزال تطبع شفتيه دفع به إلى دوامة لم يستبن

معها طريق المعرفة . واتسعت ابتسامة عبد العزيز والدوامة تلف الجامعي، وأعادته الابتسامة إلى واقعه فوجد انه ما يزال يبحث عن سبيل لمعرفة الحصن الذي اقتحمه زميلاه عن طريق « عين قادوس » .

وكان عبد العزيز قد بلغ الهدف من نفس الجامعي فطامن من صوته ، واكتسى وجهه طابع الجد ، وقال وهو يبحث برفق عن الكلمات :

ـ سجنهما يجعل للقضية التي تناضلون من أجلها ضحايا . والتضحية طريق النصر في أية معركة نخوضها .. بها نستطيع أن نتغلب على الخصم .

خفض الجامعي رأسه وغرقت عيناه في الحَصِير – وقد كانا يتحدثان في المسجد – وأدرك انه لم يفهم ، ولكنه كان خجلاً أن يسأل . لم تخف وضعيته النفسية على عبد العزيز فقال وهو يحاول أن يكشف عنه غمته :

ـ اننا نستفيد من أخطاء خصومنا فنخطو خطوات سريعة بقضايانا التحررية ، ولو لم يخطئوا لظللنا نحبو .. أفهمت ؟

حرك الجامعي رأسه نفياً وهو يرجو أن يزيد عبد العزيز في توضيح فكرته . وعبر عن رجائه بعينين مفتوحتين على كل أبعادهما فأضاف عبد العزيز :

— .. قضية الاستقلال أو قضية تحرر العمال ، والفلاحين والصناع والطلبة والتجار في حاجة إلى صراع ، لأن الاقناع النظري لا يلقى أذناً صاغية من خصم . والصراع معناه التضحية حتى لو كان سلاحك يوازي سلاح الخصم . وإذا كان يتغلب عليك بالسلاح فأحسن طريق لغلبته هو التضحية ..

وبدا على الجامعي أنه أخذ يفهم فقاطع معترضاً :

— ولكنهما دخلا السجن وحدهما فمن يقدر هذه التضحية أو يشعر بها ؟

وابتسم عبد العزيز وهو يقول :

— لا تكن مستعجلاً .. أنا أعرف ما فيه تفكر : جميع العمال انصرفوا عنهما ولم يسألوا عنهما .. أليس كذلك ؟

حرك الجامعي رأسه ايجاباً .

وكاد الصمت يبتلعه مرة أخرى لولا أنه عاد بذاكرته إلى المعامل التي كانت تضج بالاضراب قبل أسبوع فأصبحت تضج بالعمل . وبحث بذاكرته عن الحياني وعلي فلم يجدهما في مكانهما من معمليهما ، وإنما وجد العمال يعملون في صمت خافضي رؤوسهم يعيشون في رعب من المصير الذي أدرك زميليهما . لا يستطيع أي منهم أن يفكر في الحياني أو علي، وإنما يفكر في نفسه ومستقبله ولقمة الخبز التي يكسبها في آخر الأسبوع . وكاد اليأس يغمره فلم يعد يرى أمامه عبد العزيز ، وإنما يرى

زميلين قديمين يعرفهما متحركين منفعلين ، يراهما في ظـــلام زنزانة موحشة « بعين قادوس ». واغرورقت عيناه بالدموع. ولكن صوتاً قوياً استعاده إلى الواقع في شبه مواساة :

– لا تكن طفلاً .. إنهما يعيشان في ضمير كل عامل ، ولو لم يتحرك للدفاع عنهما .. الحياني وعلي خطـّا الطريق ، وأنتم الآن ستسلكونها بالرغم عنكم ، لأنها السبيل الوحيد للاحتفاظ بعملكم واسترجاع انسانيتكم .

انفرجت أسارير الجامعي واختفت الدمعتان من عينه فقد أشرق نور أمل قوي أمام ناظريه وارتسمت على فمه ابتسامة وعبد العزيز يضيف :

–.. ويوم يخرجان من السجن ستكون النقابات في طريق التكوين ..

قام عبد العزيز يودع الجامعي وركز عينيه الذكيتين في عينيه وهو يودعه قائلاً :

– المهم أن تواصل العمل .

-٢٤-

لم يعد أحد في معمل الصابون يذكر الحيـــاني ، ولم يعد أحد يذكر عليـــاً في معمل الغزل ، فقد انصرف العمال إلى عملهم ، مطمئن بعضهم إلى ما كسَب بعد الاضراب من زيادة أجر وضمـــان مستقبل ، ومطمئن آخرون إلى أن عاصفة الاضراب لم تقتلعهم من جذور العمل الذي كانوا يقومون به .

ولكن شخصاً واحداً لم ينس الحياني وعلياً هو عبدالعزيز، فقد كان يترصّد عمال المعامـــل في كل مكان ليكمل رسالة

الحياني وعلي . وكان يزور فاطمة أم علي وشامة أم الحياني حتى أشعرهما بأن ابنيهما لم يتغيبا ، وربط الصلة بينهما فكانتا تزوران « عين قادوس » كل جمعة لتحملا للشابين أكلاً وتحية وابتسامة وأملاً في المستقبل . لم يجد السجينان في حياة السجن ذُلاً ، وإنما شعرا بغبطة لم يكونا يتوقعانها وهما يضحيان من أجل فكرة ، من أجل عمل ، من أجل طبقة تعيش حياتها باحثة عن لقمة خبز نظيفة .

كان السجن ملتقى آخر لهذه الطبقة تستقبل بوابته الكبيرة كل يوم عمّالاً من سوق أو حرفة أو معمل . وكان كل منهما بحكم الأقدمية عريفاً في عنبر ، فلم يتخذ أي منهما العرافة سبيلاً لاضطهاد المسجونين واستغلالهم كما كان يتحدث سجناء العنابر الأخرى ، وإنما كانا يحاولان تكوين المسجونين تكويناً خلقياً وتربيتهم على روح النظام والامتثال والعمل ، ويختار كل منهما العمال ليُكوّن خليّة وطنية عمالية تستعد في السجن لتخرُج إلى الحياة شاعرة بإنسانيتها عاملة على تحرير الإنسان في الآخرين .

واستقبلت باب العنبر شاباً ضعيف البنية ساذج التكوين رغم ذكائه ، شاعراً بكرامته رغم فقره . دخل البوابة فاغراً فاه محملق العينين مرعوب الروح لا يدري أي عالم زج به فيه ، كان أصفر الوجه يرتعش ، لا من بَرْد ، ولكن من خوف . دخل العنبر وقد اجتاز بوابة السجن بكل ما تحمل

من إهانات . صفع حارس البوابة قفاه ليحني هامتــه فيذل ، وقذف الحارس العام أذنيه بكلمات نابيات وهو يُسّجل اسمه ، وتف في وجهه الحارس من الدرجة الثانية « كاردیان » ، وهو يفتش جيوبه قبل أن يسلمه إلى العنبر . واستقبله السجناء في العنبر بكثير من السخرية :

– أهلاً بالخُضْرة الجديدة ..؟

– مالك مرعوباً كأنما دخلت إلى جحيم ؟

– اتركوه فهو غشيم .

– ستألف السجن فهذه دارك منذ اليوم .

وتطير من حديث الزملاء الجدد وكل منهم يقذفه بكلمة تزيد في اضطرابه وخوفه. نهض علي من مكانه ليستقبل الضيف الجديد باعتباره عريف العنبر . وصاح في السجناء الذين يضيق بهم العنبر :

– كل واحد يلزم مكانه .. قلت لكم : استقبلوا زملاءكم بأدب ..

وعَمّ العنبر صمت مطبق ، فقد كانت للعريف كلمة مسموعة ، لأنه يملك أن يعاقب ويملك أن يقدم تقريراً لرئيس السجن في غير صالح السجين .

– تعال أيها الأخ .. ستأخذ مكانك بين هذين .

تفتحت نفس الصفريوي – وهذا هو اسم السجين الجديد – لكلمة الأخ ، وهدأ روعه فحيّا علياً بانحناءة واضحة رافعاً

طاقيته عن رأسه ، فقد كان ذلك هـــو الدرس الأول الذي تلقاه في البوابة . وأحس علي بأثر الكلمة الطيبة في نفسه ، فأضاف :

– لا تضطرب فالسجن أسٌّ للرجال ، وقد تكون كأكثر الذين تراهم هنا مظلوماً .

انحلت عقدة لسانه فقال كأنما ليدفع تهمة :

– والله آسيدي مظلوم .. ولكن المكتوب يتصرف ..

قال علي وقد أشمرته كلمات الصفريوي بصدق طويته :

– كلنا مظلومين ، ولكنا نتقبل الظلم بقلب مليء بالأمل ، ومن الخير لك ألا تغتم فتفقد الأمل فستضاعف من مدة سجنك من حيث لا تشعر .

اطمأن الصفريوي إلى علي . وزاد اطمئنانه حينما علم انه عريف العنبر ، وانه أكبر سلطة في عنبره حينما تُقفل بابه ، ولم يكد يستقر به المقـام وتكف عنه نظرات التطلع ، التي أحاطت به وهو يدخل متردداً خائفـاً باب العنبر ، حتى ناداه علي :

– أخبرني إذن من أنت ولم أتيت ..؟

– أنا – آسيدي – عامل في معمل المشروبات.. لم أسرق ولم أضرب ، ولكن ..

واضطرب لسانه وهو يضيف :

– مكتوب الله ..

زاد اهتمام علي وهو يسمع أن محدثه عامل في معمـــل ، وارتسمت على وجهه ابتسامة ترحيب كما لو كان يستقبل زميلاً قديماً ، وحاول أن يخفف من ألم مأساته فقال :

– مشكلتك بسيطة .. سترى ، لن يطول بك المقام هنا.

انطبع أمل واضح في وجـــه الصفريوي فانطلق لسانه يكمل قصته :

– مسيو لوري الذي أعمل مساعداً له يهين العمال ويحتقرهم ويحرث على ظهرهم وقد تمردوا فاشتكوا للمعلم ..

قاطعه علي :

– .. فانتقم منك ..

– أي نعم ، ظن اني مثير التمرد ، فانتظر حتى مرت المشكلة ثم اتهمني لدى المعلم بأني أبشر بفكرة الاضراب.وكان أن أرسلني المعلم عند الباشا ، ومن عنده للسجن .

ابتهج علي لكلمة الاضراب واستنـار وجهه كما لو سَمِع بشرى سعيدة.فارتاب الصفريوي وهو يراقب وجه علي وتحدث إلى نفسه :

– لعله يسخر مني أو يشمت ..

وهم أن يكف عن الحديث لولا أن علياً سأل :

– أوما يزالون يتحدثون عن الاضراب في المعامل ؟

واضطرب الصفريوي فإن علياً يسأله سؤال الخبير، ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

– إن عمالنا يتحدثون اليوم عن الاضراب ويهددون به ، ولكنها تهمة قد ..

وقاطعه علي ضاحكاً وهو يشير بأصبعه إلى الأرض :

– .. تصل بالمتهم إلى السجن ..

سُرّي عن الصفريوي فضحك لأول مرة منذ أن استدعي إلى « محكمة » الباشا . ارتاح علي وهو يرقب ابتسامة تطفر على وجه الزميل الجديد، وكانت هي المفتاح إلى القلب المغلق، فقد اتخذ منه علي رسوله إلى السجن الكبير « عالم الحرية » .

لم يلبث الصفريوي في السجن غير شهر هو كل جزائه عن تهمة يعرف المعلم والباشا انه بريء منها ، ولكنه سجن يراد به تحذير الآخرين .

الإعلان عن العقاب لا يكفي فيه قانون يعلن ويلصق على جدران المعامل ، أو تحذير يؤكده صاحب المعمل ومراقب العمل، ولكن يعطى فيه المثل بعامل أو عمال يدخلون السجن ويطردون .

وكانت هي المعركة التي لم ينتصر فيها أصحاب العمل .

خرج الصفريوي من السجن يحمـــل توصية من علي إلى الجامعي ، وسرعان ما أصبح عاملاً في سكة الحديد وأصبح عضواً نشيطاً في خلية وطنية ، وكان مساعد الجامعي في إبلاغ التعليمات إلى عمال سكة الحديد .

ربت على كتفه وهو يبعث به في المهمة :

- إني أعتمد عليك . أبلغ رؤساء الخلايا جميعهم أن يجمعوا خلاياهم مساء السبت وستصلهم التعليمات قبل الاجتماع .

واستقبل الصفريوي التعليمات بيقظة وعيناه مركزتان في عيني الجامعي لتعيا نفس الحزم والصرامة اللتين تتصف بهما تعليماته ،وذهب نشيطاً قوياً وهو يقدر المسؤولية بكل تبعاتها، فقد يشي به زميل من الذين تبثهم الشرطة بين العمال لمقاومة الوعي النقابي وتخذيل العمال والوشاية بزعمائهم فيفقد عمله ، ولكنه لم يعد يعتبر الاحتفاظ بالعمل رسالته في الحياة .

تابعته عيناه وتعلق به قلبه وعادت به الذاكرة إلى كثير من العمال من أمثال الصفريوي الذين خلق النضال فيهم شخصيات جديدة انطلقت في عالم جديد . وعاد من رحلة الذاكرة إلى واقعه فوجد أمامه البرنوصي وقد تغيرت ملامح وجهه ، فأصبح ينطق بالصلابة والقوة والعزم ، اختفى التردد والخوف والواقعية من تفكيره وأصبح رجلاً هادئاً يفكر في المستقبل أكثر مما يفكر في الحاضر . وعادت الذاكرة بالجامعي إلى الماضي ، إلى سطح دار الدبغ ، إلى الصراع المحتد بين علي والحياني من جهة وبين البرنوصي الذي يفرض على تفكيره طاعة المعلم والرضى بواقع حياته .

وانتشله الصفريوي من تفكيره فتلفت إلى البرنوصي يعبر عن إعجابه :

- هذا الولد أصبح مؤمناً يعتمد عليه .

وأجاب البرنوصي وذهنه يعود إلى وراء :

– كان معي في معمل المشروبات فتى مرعوباً خائراً يسير كما لو كان أبله ، يثير السخرية والضحك بين العمال حتى اختفى يوم نصب له مسيو لوري فخاً ، أراد به أن يطوع العمال ..

وفكر الجامعي قليلاً ثم قال :

ـ السجن .. السجن أخرج منه رجلاً ..

ضحك البرنوصي وهو يقول :

ـ شهر واحد أخرج منه رجلاً ؟ لا بد أن علياً والحياني سيخرجان أسدين ..؟

ضحكا معاً ، وأضاف الجامعي

ـ لا تنس أن علياً كان يتعهده في السجن .

* * *

أشهر قليلة مرت لم يكن أرباب المعامل يلاحظون فيها النار المتقدة تحت الرماد ، فقد ضبطوا عمّالاً يتحدثون بما لا يرضي فطردوهم ، وضبطوا عمالاً « يقومون بما من شأنه أن يهدد الأمن العام » داخل المعامل فقدموهم للباشا ومن دار الباشا إلى السجن . وعدا ذلك فقد كانت الحياة طبيعية في المعامل التي اتسع نشاطها وتضاعف دخلها .. وكانت التقارير التي يحملها أرباب المعامل إلى الكولونيل « ميشيل » تؤكد أن « الأهلين » يتّسِمُون بالطاعة والانضباط ، وان خطة الجنرال في طرد النّزِقين ومحاكمة المتمردين كانت أروع خطة

في سد طريق الفوضى أمام هؤلاء الذين لا يردعهم إلا الخوف.

ولكن شيئاً واحداً كان يفرضه اتساع نشاط العمل وازدياد الدخل هو ارتفـاع نسبة العمال الأهلين . وكان الموضوع مثار جدل في جمعيـــة أرباب العمل فقد ارتفع صوت مسيو روز يؤكد :

– يجب أن نحذر من المستقبل . فالخطة التي نسير عليها ستجعلنا أمام واقع مر ..

وانتفض زملاؤه بآذان طويلة يستفسرون عن الواقع المر هذا الذي يتوقعـه مسيو روز . أحـاطت كفه بمرقد غليونه كأنما لتحمي ناره أن تخبو ، ثم أضاف :

– سنصبح يوماً بين أغلبية من العمال الأهلين . وربما ..

ورفع اصبعه محذراً :

– .. وربما أصبحنا أسراءَ مطالبهم .

فتح حديث مسيو روز هوة أمام أعين أعضاء الجمعية ، وظلوا يفكرون لحظة من زمان ساد فيها صمت مطبق افتضه مسيو « مولي » :

– لو كان الوعي كاملاً أمام المواطنين لقبلوا أن يعملوا في كل مجالات العمل، ولأراحونا من هؤلاء.. « الأهلين » الذين..

وتردد قليلاً كأنما يبحث عن الكلمـــة ، ولكنه اهتدى اليها بسرعة :

– .. لا يستحقون أن يكونوا عمالاً في معاملنا .

وأجاب مسيو « ماركو » :

ـ نحن أمام واقع، ولن نستطيع أن نغير عقلية الفرنسيين والاسبانيين في البلاد ..

فقال روز :

ـ أكثر من هذا أننا لا ينبغي أن نفرض على مواطنينا أعمالاً قذرة .. لا بد لنا إذن ممن يقوم بها ؟

ـ يقوم بها الأهلون لكن دون أن نترك لهم فرصة ليصلوا من ورائها إلى مطالب ..

أكد روز :

ـ أعتقد أن تضامننا مع عمالنا المواطنين ومع الادارة سيجعل منا حاجزاً ضد تسرب أية فكرة نقابية إلى صفوف الأهلين .

وانتهى اجتماع الجمعية بتوصية تهدف إلى حماية مؤسسات الانتاج من تسرب الأفكار الهدامة إلى صفوف العمال الأهلين . وأن تكون سبيل الوقاية هي الحرص على تجميد أجورهم ومصالحهم .

-٢٥-

كان صباحاً مشرقاً من هذه الأصباح النيرة التي تعرفها فاس في أيام ربيعها . والشمس في ربيع فاس لا تقبس حرارتها من الكوكب المنير فحسب ، ولكنها تستمد نعومتها من الأزهار والرياحين والأشجار والحشائش التي تحيط فاساً بحزام أخضر كان عوضاً لها عن زقاقاتها الضيقة ودروبها المقفلة .

وبوابة « عين قادوس » تنفتح على الساحة المزهرة، عرصة ما تزال أشجارها الباسقة تطل من علٍ على ساحة السجن كما

لو كانت هي الأخرى تشعر السجناء بأن عـــالم الحرية في انتظارهم . وكان النهر العريض الذي يسقي المدينة العتيقة بمائه العذب يثوي خلف البوابة العتيدة ليؤكد الحياة للذين ضاقت الحياة في وجوههم فحشروا خلف الأبواب السبعة .

وانفتحت البوابة في وجه علي والحياني ، ولم تكن طبيعة فاس النيرة تحتضنهما بذراعيهـــا الرحيمتين فحسب ، ولكن كانت فاطمة وكانت شامة تستقبلان الشابين بعيون تبللها دموع الفرح . وكان خلف الأمّين الوالهتين مجموعة من شباب ببذلاتهم الزرقاء وعبد العزيز بجلابيته البيضاء وابتسامته العذبة . وعرف علي والحياني الجـــامعي والبرنوصي والصفريوي ، ولكنهم لم يتعرفوا على الآخرين إلا من خلال البذلة الزرقـاء وابتسامـة الفرحة والقبلات الحرّى التي طبعوها على الشابين المتحررين وهم يحتضنونهما بأذرع قوية وعاطفة ملتهبة .

كان منزل الحياني مركزاً قصده مئات العمال يقدمون فيه التحية للأسيرين وقد تحرّرا من ربقة الأسر . رأى فيـه علي والحياني وجوهـــاً جديدة وسمعا أفكاراً جديدة ، وتطلعا بعيون مندهشة إلى شباب مناقشون بأسلوب جديـد وعقلية جديدة ومنطق جديد وبدا لهما أن السجن فصلهما عن عالمهما فلم يلحظا تطوره السريع . كانا قبل السجن يعيشان معه كما نعيش مع طفـــل لا نلحظ نموه التدريجي وحينما تغيبا عنه أدهشهما نموّه المفاجىء واتساع آفاقه وكثرة رجاله .

كانوا جميعاً يتحدثون ويناقشون ، ولكنهم كانوا ينصتون حينما يتحدث عبد العزيز ، فقد عرفوا فيه المرشد الذي وجههم فيما فيه يتحدثون .

ـ حركة العمال يجب أن تسير في اتجاه مواز لحركة الشعب كله ..

وأشعرتهم كلمات عبد العزيز بأنهم ليسوا وحدهم ، فنطق البرنوصي :

ـ وهل فئات الشعب الأخرى تشعر بنا وبحركتنا ..؟

وابتسم عبد العزيز ابتسامته التي لا تدري أسخرية هي أم إشفاق . ورفع سبابته كما لو كان يستعين بها على لفت الأنظار لما سيقول وأخذ يبحث عن الكلمات حتى اهتدى :

ـ أنتم تناضلون في ميدان العمل ..

وقاطعه الحياني :

ـ ونناضل في ميدان تحرر العمال ..

وابتسم عبد العزيز تشجيعاً فأضاف علي :

ـ .. وفي ميدان تحرير المعامل من سيطرة مسيو روز ومدام باوليني ..

وانفجروا جميعاً بضحكة عالية امتدت على أثرها أكف العمال بتصفيق حار . وهدأت القاعة على صوت عبد العزيز :

ـ هذا هو التفكير المستقيم . نضالكم لا ينبغي أن يتجه إلى المصلحة الذاتية ولكن إلى المصلحة العامة .

وتشجع الجامعي :

ـ لن نتحرر نحن مـا دامت السيطرة على المعامل في يد أرباب العمل والعمال الأجانب .

كلام جديد يسمعه العمال لأول مرة ، فانفتحت أفواههم من دهشة بعدما حسبوا أن كلمة علي كانت نكتة تثير الضحك أكثر مما هي حقيقة تتطلب التفكير . وانساق كل منهم يجتر أفكاره ويحلم :

يوم يتحرر المعمل من المعلم والصانع وهؤلاء العمال الذين ينظرون إلينا من عل كما لو كنا من طينة أخرى غير طينتهم .. ترى من يحتل مكتب مسيو دوبوا ؟ ومن يكون رئيساً على العمال مكان مسيو فريز ؟ ومن يدفع أجورنا آخر الأسبوع مكان مدام بوفاري ..؟

وجاء الرد من عبد العزيز ليقتلعهم من أحلامهم :
ـ شعب كله يناضل لتحقيق الاستقـــلال . ولن يتحقق الاستقلال سياسياً ما لم يتحقق اقتصادياً .

ولكن عبد العزيز كان غامضـاً فيما بدا للكثيرين منهم ، ولو أن الحياني وعلي كانا يحركان رأسيهما إيجابـاً . وتساءل البرنوصي :
ـ إننا لا نفهم .

ونظرت إليه عيون في استنكار ، فقال عبد العزيز :

ـ الله يرضى عنك .. ستفهم .. الاستقلال الذي يجب أن نناضل من أجله لا يعني فقط أن يكون الحكم بين أيدينا نحن الشعب فحسب ، ولكن يعني أيضاً أن تكون ثروة البلاد الفلاحية والصناعية والتجارية بين أيدي أبناء الشعب .

حرك البرنوصي رأسه ايجاباً دون أن يبدو عليه أنه فهم. وقال الجامعي :

ـ ولكن ..

وأخذ يتطلع بعد « لكن » إلى الحياني وعلي .. ثم شعر كما لو كان يسير في ظلهما فانطلق :

ـ .. كيف نستعيد ثروة البلاد الفلاحية والصناعية والتجارية ؟

وابتسم عبد العزيز وهو يأخذ سبيل الحوار لتعليم تلاميذه كما لو كان أفلاطون . قال :

ـ أنتم العمال ستصبح بين أيديكم ثروة البلاد الصناعية ..

وفتحوا جميعاً أعينهم على حقيقة لم يفكروا فيها من قبل . ونظر عبد العزيز إلى الحياني وعلي فوجدهما أيضاً مندهشين، فاستأنف :

ـ مالكم مندهشون ..؟ ليس عندكم مال ؟

وضحك وهو يشهد أحدهم ينظر في وجه الآخر متسائلاً ، ثم انطلق :

ـ العمل هو رأس مالكم.. حينما يتنظّم العمال ويصبحون قوة في المعامل يستطيعون أن يوجهوا العمل الصناعي ويدفعوا به إلى أمام ، وبذلك يسيطرون على القوة الصناعية في البلاد.

فقال الحيّاني وقد بدأ يفهم :

ـ وحينما نكون منظمين نستطيع أن نشل العمل الصناعي لو اتجه لغير صالح العمال .. الاضراب سبيلنا ..

أدرك عبد العزيز أنهم فهموا ، وكاد يقوم مودعاً لولا أن البرنوصي رفع اصبعه مستأذناً في السؤال كما لو كان تلميذاً في مدرسة :

ـ لم تقل لنا كيف نستعيد الثروة الفلاحية والتجارية ؟

أجاب عبد العزيز في جد :

ـ الفلاحون طبقة أخرى من الشعب يشرف على تنظيمها مجموعة أخرى من المناضلين لتعمل في ميدان تطوير الفلاحة واستخراج الأرض من المعمرين والاقطاعيين، والتجار والصناع والطلبة ، ليشرف على تنظيمهم مجموعة أخرى من المناضلين .

أضاف وهو يودعهم :

ـ أنتم الآن نجحتم في معركة .

وتطلعوا جميعاً يسألون عن المعركة التي نجحوا فيها بعيونهم فأضاف :

ـ المعركة التي نجحتم فيها أنكم بدأتم تدخلون السجن .

وحملق البرنوصي في الحيـــاني وعلي فلفت بحركته انتباه عبد العزيز وأضاف :

ـ السجن مرحلة نضال مع خصومكم : خصوم بـلادكم . وحينما يلجأون إلى اعتقال العمال يعترفون بالقضية التي تناضلون من أجلها وبعجزهم عن مواجهتكم بالمنطق .

وأضاف الحياني :

ـ ونجحنا أيضاً في تحطيم الخوف من السجن : أنا أو علي مثلاً سنعتقل مرة أخرى وثالثة ما دمنا في المعركة .

وقال علي :

ـ الصفريوي سيدخل هذه المرة السجن غير مرعوب ولا مضطرب .

وضحكوا جميعاً فأكد الصفريوي أنه لم يكن مرعوباً ولا مضطرباً وأكمل الحياني حديثه :

ـ السجن سبيلنا إلى تقوية صفوفنا وأداء رسالتنا .

خرجوا جميعاً من المنزل وفي قلب كل منهم أنهـــا معركة طويلة وشاقة .

- ٢٦ -

وجد أندري وماتيو الحياني وعلياً في انتظارهما بالقرب من معمل الصابون ، اقتحمتهما نظراتهما ، فمنذ طرد الحياني من المعمل ومنذ اعتقاله لم يعرفا عنه شيئاً ولم يكونا يرغبان في أن يعرفا عنه . انتهى من حياتهما يوم راوداه على أن يدعو العمال إلى الاضراب ففعل . حاول الحياني أن يبتسم في وجه ماتيو فبدا كأنه لم يعرفه واستمر يسير بخطواته الثابتة وبجانبه أندري ، وقد استأنف حديثاً يبدو أنه كان منهمكاً فيه مع زميله .

وتقدم علي بوجه صارم :

ـ مسيو ماتيو ألا تعرف الحياني ؟

ارتسمت علامة استفهام كاذبة على وجـــه ماتيو ، وقال أندري بصوت عصبي :

ـ ماتيو ، لم يعد في الوقت متسع .

تقدم إليه الحياني كأنما يريــد أن يحاصره كما حاصر علي ماتيو :

ـ مسيو أندري ، ما تزال في الوقت سَعَة وأريد أن أحدثك .

قالها وهو يمد يده مصافحاً ، فأذعنت يد أندري، والتحم الأربعة بعد أن فشلت خطة التجــاهل ، وقال ماتيو بصوت استغراب :

ـ الحياني ، أين انتهى بك المطـــاف ..؟ لم نعد نسمع عنك شيئاً ..

وأجاب الحياني بصوت محبب :

ـ كنت في مكان ينسى فيه الناس زملاءهم ..

أدرك أن كلماته لم تثر فيها فضولاً : فقــد تجاهلا أنه كان في السجن ، وأردف :

ـ ولكن الآن أعمل .. اشتغل ..

ـ طيب .. حظ سعيد .

قالها ماتيو وهو يحاول التخلص ، فقــال علي :

ـ لنا معكما حديث جد هـام .

حاول أندري أن يصرفهما :

ـ لنترك الحديث إلى وقت أوسع .

فقال الحياني وقد أدرك انهما فهما اتجاه الحديث :

ـ الموضوع ببساطة يتعلق بالنقابة .

انفتحت عينا أندري ، وكادت أعصاب ماتيو تفلت منه ، فقد أحس بأن شخصاً غريباً يتحدث عن موضوع لم يتحدث فيه أحد من غير المواطنين . وعادت الذاكرة بماتيو إلى سنتين ونيف مضتا . اختفت صورة الحياني الشاب ذي الملامح الصلبة والعينين الحادتين وبدت صورة الحيـــاني ذي العينين الطيبتين والملامح الساذجة وهو يركب دراجته في هدوء . ثم يقف بها بباب المعمل ويحيي ماتيو خافض الرأس لا تجرأ عيناه أن تتطلعا إلى وجهه . ويتذكر ماتيو كأنما الحدث كان من عهد قريب .

ـ كنت أملي عليه الأمر بالإضراب فلا يتحدث لي عن نقابة ، واليوم ..

ـ .. اليوم يريد العمال المغاربة أن يكوّنوا نقابة لهم تدافع عن مصالحهم .

كذلك قطع الحياني حبل تفكير ماتيو ، فارتد ببصره إلى الحياني وعلي ، وارتد بفكره إلى الواقع . لم تستطع عيناه أن تقتحما عيني الحياني فتلفت إلى أندري ليقرأ على وجهه الاستغراب

وفي عينيه مزيد من ازدراء..ونطق أندري في شيء من الحدة:

– النقابة موجودة ، وأنتم في غير حاجة إليها ..

فقال علي بصوت محتد :

– آلاف العمال من المغاربة يشقون يومهم كما يشقى زملاؤهم الاروبيون ، فكيف لا يكونون في حاجة إلى نقابة تدافع عن مصالحهم ؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي ماتيو لم يخف على الحياني وعليّ ما تحمله من سخرية واستهزاء . وحرك أندري شفتيه استصغاراً لكلام علي وواصلا السير ، لولا أن حاصرهما الحياني بكلمة صارمة :

– نحن نعرف أيضاً كيف نستخدم الاضراب للوصول إلى أهدافنا ..

لم تقتحم كلمة الاضراب اذني ماتيو وأندري . حاولا أن يحتقرا الكلمة ، ولكن أندري توقف عن السير ساهماً كأنما فُتِح أمام ناظريه سجل حافل بالأحداث . ما زال يذكر كيف كان إضراب العمال « المواطنين » مبعثاً لقلق الادارة . ولكنه تذكر فجأة انه أيضاً كان سبيل انتصار العمال في مطالبهم . وطويت صفحة من السجل لتفتح صفحة أخرى ، وفيها قرأ :

– ولم لا يحقق هؤلاء أيضاً مطالبهم عن طريق الاضراب؟

وانطلق عقله يناقش :

– ومن هم حتى يحققوا مطالبهم ؟ نقابة ..؟ من يستطيع أن يعترف لهم بالنقابة..؟ مصير المتمردين منهم السجن والطرد.

وانتصب أمام ناظريه الحياني وكأنما طوى السجل ليفتح عينيه على مثال من المصير الذي ينتظر المتمردين ..

وعاد السجل فانفتح :

– ولكنهم الآن كثير .. آلاف .. يستطيعون أن يشلوا الحياة في المعامل .

وانتصب أمام ناظريه مرة أخرى علي والحياني، وانفتحت عيناه على وسمها لتشهدا في وجهيهما الصلابة والتصميم والعزم.. واختفى اسم علي والحياني ليظهرا كعاملين مناضلين من هؤلاء الآلاف من العمال « المواطنين » وهتف ضميره :

– بم يختلفان عنهم ..؟

وكان الجواب صريحاً :

– لا يختلفان في شيء ..

وطفر سؤال آخر :

– لو كان آلاف العمال « الأهلين » مثلهما ..؟

وسهمت عينا أندري واختفى الواقع ليشهد منظراً كما لو كان على شاشة خياله : آلاف العمال من ذوي الوجوه البيض والسمر لوحتها الشمس وانحفها الشقاء وأمضها العزم تسير في

مسيرة عمالية توحد بينها بذلاتها الزرقاء تعلن مطـــالبها في تصميم كما لو كانت في فرنسا ..

واختفى المنظر مرة أخرى على صوت ماتيو يجيب الحياني:

– الاضراب ..؟ وأين سلطة الادارة ..؟

وأضاف في سخرية :

– لعلك تعرف مصير من يجرؤ منكم على إضراب ..

ثارت ثائرة علي فانطلق :

– ومن أنتم ..؟

فانتهره الحياني وهو يضع كفه على فمـــه ليكتم ثورته ، وأجاب موجهاً حديثه لأندري بصوت هادىء :

– نحن أبناء طبقة واحدة يجمعنا الشقـاء والعمل . وقد ناضلتم فوصلتم تحميكم الطبقية ممثلة هناك وراء البحار ..

وانفتحت عينا أندري على كلام جديد لم ينتظر أن يسمعه من الحياني .. لم تنكره أذناه ولم ينكره ضميره ، وطـــالت أذناه كأنما تطلبان المزيد ، فواصل الحياني :

– .. ونحن نناضل وسنصل .. ولكننا نريد تضامنكم .

وأضاف علي، وقد هدأت أعصابه بصوت لا يقل هدوءاً :

– .. كما تضامنا معكم لتحقيق مطالبكم ..

فكر أندري قليلاً واستله من تفكيره ماتيو وهو يقول :

– لا تطيلا الحديث .. نقابتنا للعمال الفنيين وأنتم ..

وبدا عليه أنه يبحث عن الكَلمة حتى اهتدى اليها فأضاف:

– .. لستم عمالاً وإنما مساعدون .. والنقابة لن تقبلكم ولن تسمح بتأسيس نقابة أخرى .

كان أندري يحرك رأسه إيجاباً وكأنه يؤمن على كلام ماتيو ، ولكن صراحة زميله هدمت بعض إحساسه فقال محاولاً أن يخفف بعض ما تثيره هذه الصراحة :

ـ نحن فرع من نقابات الوطن الأم و« الأهالي » ..

توقف، فقد صعب عليه أن يوضح فكرته، فالتقطها ماتيو:

ـ .. ليسوا مواطنين ، فكيف يلتحقون بنقابة أصلها هناك ..؟

أشار بيده إلى بعيد وهو يقول : « هناك » .

كانت الصدمة قوية في نفس علي والحياني ، وتوقفا قليلاً ليقرآ في وجه العاملين اليأس المطلق . قال الحياني وهو يودع زميليه القديمين :

ـ إلى اللقاء .

وقال علي :

ـ إلى لقاء قريب .

* * *

كان الجنرال مضطرباً وهو يستقبل نواب جمعية أصحاب العمل مع نواب النقابة . وانتظروه طويلاً ليفتتح الحديث في

الموضوع الذي استدعاهم إليه . ولكنه كان يجلس إلى مكتبه ـ والكولونيل ميشيل بجانبه ـ يبحث أوراقاً بين يديه في اضطراب . لم يكن يقرأها أو يبحث عن شيء فيها . وإنما كان يشغل يديه وهو يفكر قبل أن يبدأ حديثاً لا يدري بعد كيف يوجهه . كان يستعين على التفكير بالتدخين ، ولكنه ـ وقد اعتاد أن يشعل دخينة من دخينة إلا إذا خبت نارها بين شفتيه ـ لم يعد يجد فيها ما يساعده على تفكير ، وربما شغلته عن التفكير وقد كان لسانه يعبث بعقبها كما لو كان يتلذذ من مرارة . وفجأة وضع القلم من يده في عنف وبصق عقب الدخينة من بين شفتيه بلسانه وأزاح نظارتيه عن عينيه . وارتمى على مسند كرسيه ليتحرك به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطلعت إليه عيون الحاضرين في نفاد صبر وهو يقول :

ـ لعلكم تدرون لماذا جمعتكم ..؟

وسكت قليلاً فبدت علامات الاستغراب على وجوه البعض ، وعلى وجوه آخرين كانت علامات استفهام . كان وجه الكولونيل ميشيل جامداً لا ينبض بمعنى ، ولكن تفكيراً جاداً استغرقه : .

ـ هذا السيد الجنرال ما زال يهذي في السياسة حتى أتقن أسلوب السياسيين .. كان حرياً أن يحتفظ بطابعه العسكري فيدلي بما يريد أن يدلي به في قصد ووضوح .. لو ، لكان هذا الاجتماع قد انتهى .

واستأنف الجنرال بعد أن أيقن أنهم لا يدرون :

ـ كان من الممكن أن أترك الأمر للكولونيل ميشيل ليتحدث إليكم . ولكني أهتم شخصياً بالموضوع فأحببت أن أتحدث إليكم بنفسي .

ازدادوا تطلعاً إلى الجنرال، وكان ممثلو النقابة أكثر فضولاً فقلما حضروا اجتماعاً إلا كان الأمر بالغ الأهمية .

تأرجح في كرسيه المتحرك حتى أنّ تحت جسمه الضخم فسُمع له أزيز ، وأضاف :

ـ أعلمتم أن جماعة من العمال المساعدين « الأهلين » قدموا للادارة طلباً لتأسيس نقابة ؟

سكت الجنرال وقد ألقى السؤال ليترك للحاضرين فرصة التفكير . أمـــا الكولونيل فقد كان يتتبع بعينيه اللامعتين وجوه المجتمعين ليدرس أثر الخبر فيهـــا كان في يده ورقة يرسم عليها علامات مبهمة . لفتت نظره المفاجأة الممزوجـة بالرعب على وجه روز وكأنها تحدث :

ـ هؤلاء أيضاً سيؤسسون لنا نقابة .. مصـالحنا جميعاً ستلتهمها النقابات .

وتتبع عيون مسيري نقابة « المواطنين » يدرسهـا ، فلم تلفت نظره المفاجأة الصارخة في عيون أندري ومانيو ـ وكانا في مقدمة زعماء النقابة ـ وإنما وجدها تنبض بالحقد وتزخر بالاحتقار .

ضربة مدوية من الجنرال خبط فيهـــا المائدة بكفيه المريضتين أعادت العيون الساهمة في تفكير إلى واقع الجلسة ، وحلق طويلاً في ممثلي النقابة حتى صب كل حديثه في نظرته المتفحصة ، وصرخ :

– أنتم المسؤولون ..

سكت قليلاً ثم رفع سبابته في وجههم حتى ظنها كل منهم مصوبة إلى وجهه ثم أضاف :

– .. لأنكم روجتم هنا بضاعة أجنبية غريبـة عن هذا الوسط .. علمتموهم أشياء لم تكن تخطر لهم على بال ..

أضاف بصوته يحشرح :

– نحن نقابتكم .. وهؤلاء (وأشار إلى أرباب المعامل) نقابتكم ، ندافع عن حقوقكم .

وحلق ماتيو باستغراب في وجه ريمون وسامزي وروز وهنري كأنـه يستنكر أن يكونوا هم المدافعين عن حقوق العمال ومصالحهم .

وأضاف الجنرال :

– لو تركتم فكرة النقابة هناك وتركتم أساليب النقابة من إضراب ومطالبة ..

قالها وهو يحرك يديه حركات سريعة في استخفاف :

– .. لكنت أنا (وأشار إلى مكان الأنجم والشارات العسكرية) المدافع عن حقوقكم ومصـالحكم أمـام الدولة

وأمام هؤلاء .. (وأشار .. بسبابته إلى أرباب المعامل) ولكنكم ..

وسكت الجنرال فلم يجد الكلمة التي يصف بها عملهم ، وانساقت عينا الكولونيل متفحصة وجوه أرباب المعامل فوجدها تنطق بالشماتة مبتهجة كأنها تتطلب من الجنرال المزيد..

وعاد الجنرال يشير إلى أرباب المعامل :

– أنتم الذين فتحتم أبواب المعامل في وجه هؤلاء . هم يعرفون « الدراز » و « دار الدبغ » والصباغين والنحاسين ، فلم تفتحون أعينهم على المعامل .. ؟

ورفع هنري أصبعه يريد أن يتحدث فأشار إليه الجنرال بكفه كأنما يصد كلامه وقال :

– أنا أعرف ما ستقول وليس بي حاجة لأن أسمع ..

وتلفت الكولونيل بعينيه المتجولتين إلى وجوه ممثلي النقابة فوجدها تنطق بالشماتة وتتطلع إلى الجنرال بعيون ضارعة كأنما تطلب المزيد . وكان الكولونيل يعابث قلمه على الورقة ليرسم ملاحظاته حينما صاح فيه الجنرال في انفعال وهو يوقد دخينة جديدة بوقيدة ترتعش بها أصبعاه :

– ميشيل .. أخبرهم بما وصلك في آخر التقارير ..

وانتبه الكولونيل كأنما كان في غفلة فارتجفت قبعته المذهبة وهو ينظر إلى الجنرال كأنما يسمع بعينيه . وتطلعت عيون

الحاضرين إليه في فضول وشوق . فتح ملفاً وأخذ يبحث عن أوراق مختلفة . تضايق الجنرال من بطئه وهتف به :

– عم تبحث ؟ أنت تعرف القضية من الألف إلى الزاي ، فمالك والأوراق ..؟

تضايق الكولونيل من معاملة الجنرال فهو يود أن يقدم القضية للمجتمعين بالأسلوب الذي يجعلهم يشعرون بأنهم أمام كولونيل ، وعلى كثرة إفراط الجنرال في تقديم نفسه كحاكم لا يرد له قول يستهين بمركز مساعديه .. تخلص الكولونيل من مشاعر الغيظ فطوى الصفحات أمامه ، وقال وهو يتجه إلى المجتمعين :

– كل التقارير تفيد ان المساعدين الأهلين نظموا أنفسهم بمساعدة الرطنيين ، وانهم أصبحوا أعضاء في ..

قاطعه الجنرال وهو يشير بيديه في عجلة ويهمس له :

– اترك هذا الموضوع..لا يهم..ليس داخلاً في اختصاصهم.

فأضاف الكولونيل مغتاظاً :

– المهم انهم يطالبون بتأسيس النقابة ويهددون بالاضراب إذا لم يستجب طلبهم .

ومع كلمة الاضراب نفد صبر أرباب المعامل فسرت بينهم همهمة استنكار ، وأصوات من هنا وهناك تكاد تصيح :

– أوه .. هذا كثير .. هذا كثير .

وكان ممثلو النقابة ينظرون إليهم في شماتة ولكنهم كانو يفكرون :

ـ هؤلاء سيتبنون خطتنا .. نقابة ..؟ ستطالب بنفس الحقوق التي حققناها ..؟ إضراب ؟ سيكون نفس الوسيلة التي استخدمناها للضغط على هؤلاء .

تداعى إلى ذهن أندري وماتيو الحياني وعلي وهما يطالبان بأن يكون ممثلو « نقابة المواطنين » في صفهم وهمّ ماتيو أن يخبر الجنرال بالمسعى الذي بذله الحياني وعلي معها ، ولكن صيحة من الجنرال أعادتهم جميعاً إلى واقعهم :

ـ والآن ما رأيكم ..؟

قالها الجنرال وهو يبدي استعداده لكي يستمع ، ولكنه يبدو متحدياً كما لو كان يعرف مقدماً أنهم لا رأي لهم .

رفع هنري اصبعه ونطق قبل أن يأذن له الجنرال :

ـ يا جنرالي يجب أن نوقف التيار منذ الآن . فنحن أمام مشكلة اقتصادية أكثر منها اجتماعيــة مع النقابات الموجودة .

قالها وعيناه تتجهان إلى الجنرال . لم تتحول عنه رغم أنه كان يعرف أن عيون ممثلي النقابة وابتساماتهم الساخرة كانت تحاصره ، واستلذ الجنرال حديثه فحرك رأسه إيجابــاً كأنه يطلب المزيد فأضاف :

ـ .. المعـــامل هنا لا تكاد ترفع رأسها حتى تطالبها النقابات بحقوق . ونحن نقدم تضحية لأم الوطن لأننا هاجرنا

في سبيل تدعيم الوجود الفرنسي في هـــذه البلاد حتى نتركها للأجيال القادمة مجهزة كما تتركونها أنتم منظمة وآمنة.

أعجب الجنرال بالمنطق وكاد يصفق لكلمتي: منظمة، آمنة، ولكنه تراجع وابتسامته تبعث الشجاعـة في نفس هنري . وسكت وهو يحس أنه قال كل شيء . وكان زملاؤه يحركون رؤوسهم إيجاباً كأنما يعلنون موافقتهم على كل شيء . فقـال الجنرال مدفوعاً بخيبة الأمل :

– المهم الرأي .. رأيكم في معالجة المشكل ..؟

كان ممثلو النقابات ينظر بعضهم إلى بعض ويهمس أحدهم في أذن الآخر ، وهنري يتحدث . وأشـار ماتيو إلى أندري كأنما يكل إليه أمر الحديث ، فرفع اصبعه المضطربة يطلب الكلمة وهو يغلي كالمرجل . وشعر الجنرال بالأثر الذي أحدثه كلام هنري في نفوس ممثلي النقابة فأشار بيده : أن اسكت ، وقال :

– سنسمع رأيكم بعد أن نستوفي رأي الجانب الآخر .

وسكت أندري على مضض وعينا الجنرال تتبعها عينـــا الكولونيل متجهة إلى صف أرباب المعامل . وارتفعت اصبع بيرنار تطلب الكلمة :

– سيـدي الجنرال : الرأي – وأظن زملائي متفقون معي – هو أن يصدر قرار بتحريم النقابات ..

وتحت النظرات الملتهبة من ممثلي النقابات ، أضاف :

ـ .. على الأقل بين الأهلين . ولكن .. ولكن ..

مع كلمة : « لكن » كان يرفع اصبعه وهي تهتز في تحذير..

ـ .. ولكن على النقابيين المواطنين أن يجمدوا نشاطهم قليلاً حتى لا يشجعوا الأهلين على تجاوز حدهم ..

بدت علامات الارتياح على أرباب المعامل كأنما يوافقون بإجماع على رأي بيرنار. وكان صف ممثلي النقابات يغلي كالمرجل. وظهرت على وجه الجنرال خيبة أمل . وفتح ميشيل كتاباً أخذ يشير إلى صفحة منه وهو يضعها تحت نظر الجنرال . وأشار إليه الجنرال أن تحدث ، فقال ميشيل :

ـ لا نحتاج إلى قرار أو قانون فعندنا منها ما يكفي .

وأشار إلى الكتاب بين يديه ثم أضاف :

ـ .. ولكن المهم أن نواجه هـذا التطور بالسياسة التي تجعل له حداً .

نظر الجنرال إلى ممثلي النقابات فقرأ على وجوههم الحماس للحديث ، وأشار إلى أندري :

ـ تكلم أنت ، ولكن اختصر .

قالها الجنرال ضاحكاً فقال أندري وهو يبتسم :

– لن أطيل فلست خطيباً كمسيو هنري . ورأينا أن نقف في وجه هـــذا التيار . ولكن قوة الادارة أو أرباب المعامل ستجعل من التنقيب موضوع احتكاك ..

كشر الجنرال وزوى بين حاجبيه واحمر وجهـــه غضباً وقاطعه قائلاً :

– .. احتكاك ..؟ احتكاك مع من ؟ أنت غير واضح ، غير متفهم للقضية .

اضطرب أندري وخشي أن يزيد في إثارة الجنرال فسكت. ولكن لامي رفع اصبعه وتحدث دون استئذان :

– مسيو أندري يريد أن يقول : هناك أسلوب غير مباشر لاذابة الفورة التي تظهر بين صفوف الأهلين .

وتطلع الجنرال باهتمام وقد هدأ غضبه فجأة إلى ما يقوله لامي :

– .. والأسلوب الذي نقترحه هو السماح للمساعدين المغاربة أن يكونوا أعضاء في نقابتنا .

وعاد الجنرال فزوى بين حاجبيه وظل الكولونيل هادئاً وهو يسند ذقنه وخده إلى كفه يستمع في وعي. وأكمل ماتيو:

– بهذه الطريقة يمكن إذابة الحماس بشكل يرضيهم وفي الوقت نفسه يمكن تجميدهم . فالنقابة بين أيدينا .

همس الكولونيل في أذن الجنرال . وأخذ الجنرال يعبث بقلم بين يديه وهو يضع نظارتيه على عينيه ثم يزيلها مفكراً . ثم قال وهو يضع يديه على المائــــدة الخضراء مستعيناً على النهوض من كرسيه :

– أيها السادة : استمعنا إلى آرائكم ، شكراً .

- ٢٧ -

– قلتم لنا : اقبلوا ، اندمجوا في نقاباتهم ، اشتركوا معهم في أرض المعركة . وها نحن نشهد النتيجة .

وضحك عبد العزيز بملء فيه وهو يستمع إلى كلمات علي ويشهد حركاته العصبية . سكت في الوقت الذي كان علي والحياني ينتظران منه أن يتكلم . وجواباً على سؤال منطلق في حماس من عيونهما اللاهبة قال عبد العزيز :

– إلى أن تنتهيا .. أن تفرغا ما في جعبتيكما ..

– انتهينا يا سيدي. هل عندنا ما نقوله بعد الذي سمعت؟

قال عبد العزيز في هدوء أعصاب وابتسامته المعتادة لا تفارقه :

– انتهيتما .. قلتما كل ما تريدان .. إسمعا إذن .

انفتحت أذنا الحياني وعلي فقد كانا يشعران بالحاجة إلى سماع شيء يعيد لهما الثقة في تصرفاتهما ويعطيهما حجة يواجهان بها تذمر جماهير العمال الذين أخذ صبرهم ينفذ من الوضع .

– الآن أيقنت أننا نجحنا ..

وسكت قليلاً وعيناه مغروستان في عيون الحياني وعلي . أبلسا فلم يستطيعا الحديث . وضحك كأنه يعلن عن نجاحه في إعجازهما عن الفهم . ثم أضاف :

– هل نطمع في الانتصار الآن على الهيئات الثلاث التي تقف في وجهنا ؟

لم يظفر بجواب ، فقد كان السؤال محرجاً ، وواجه علياً لأنه يعرف حماسه :

– أجب ، ما بك ؟

ولم يزد علي على أن أتى بحركة من شفتيه وذقنه كأنه يعلن الحيرة . وأضاف عبد العزيز مجيباً على سؤاله :

– اندماجكم في نقاباتهم لم يكن يهدف إلى أن تكتسحوهم. فللاكتساح وقت سيأتي حينه ، ولن يكون العمال وحدهم .. يوم نصبح الأغلبية بين العمال الفنيين، ويصبح الفلاحون الأغلبية في الضيعات المنظمة ، ويصبح الطلبة الأغلبية في المدارس والكليات ، ويصبح المواطنون الأغلبية بين التجار الكبار ، يومئذ سنكتسح القوات الثلاث التي تقف في وجوهنا ..

وتداعى إلى ذهن الحياني هنري وأندري والجنرال وهمّ أن يشرح لعلي ولكن عبد العزيز استمر :

– أتعرفان وقت الاكتساح ؟

توقف قليلاً يستطلع الجواب من عيونهما الظامئة . ساد الغرفة الصغيرة صمت كما لو كان كل من الثلاثة يستمع إلى ضميره ليجيب . وهتف عبد العزيز يقطع حبل الصمت :

– .. انه يوم الاستقلال .

هدأت أعصاب علي ، وتطلع إلى وجه الحياني يبحث عن أثر كلام عبد العزيز فاكتشف مسحة من الصلابة والعزم والحدة تكسو محياه كأنه في معركة عناد . وعاد الصمت يخيم على جو من الهدوء النفسي . غرق الشابين في التفكير كأنما قد اكتشفا لأول مرة هذا الذي حدثهما به عبد العزيز . ولم يلبث أن رفع رأسه في تحد سافر :

– رسالتنا منذ اليوم أن نقرب أجل الاستقلال ..

وأضاف علي :

– عبث أن ندافع عن حقوق طبقة العمال وعن مصالحها ، وعبث أن نطالب برفع الأجور ، أو بالضمان ، أو بالكف عن الاضطهاد ، أو بوقف الطرد الجماعي .. تلك طريق طويلة مسدودة . أما الطريق القريبة المفتوحة فهي الاستقلال .

وأطرق عبد العزيز كأن دوره قد جاء ليستمع ، وعبثاً انتظرا أن ينطق. فقد كان يحس بأن قرارهما يجب أن يتخذاه منطلقاً من ضميرهما . ونطق أخيراً الحياني :

– أنا أحس بأني ضللت الطريق . مكاني في الحزب لا في النقابة . الاستقلال يحقق النقابة ، ولكن النقابة لا تحقق الاستقلال .. وتحمس علي فأضاف :

– منذ الآن يجب أن ننصرف عن الطريق المسدودة إلى الطريق المفتوحة : إلى تكوين جماهير الاستقلاليين ..

شعر عبد العزيز بأنها ما يزالان في حاجة لأن يتحدث ، فرفع إصبعه وما تزال عيناه منغرزتان في الأرض كما لو كان يبحث في زليجها الملون عن فكرة ، ونطق في تردد وهو يبحث عن الكلمات :

– لا مجال للفصل بين الحزب والنقابة. نحن جميعاً نقابيون ونحن جميعاً استقلاليون لأننا نعمل على أرضية واحدة ولهدف واحد .

قال علي في حدة :

– ولكن .. ولكن ..

واضطرب حديثه فهو يبحث عن الفكرة التي بدأت تلمع في ذهنه دون أن تنير ، وكاد يتراجع فيسكت لولا أن اهتدى فأخذ يفرقع بوسطاه وابهامه كأنه يقول : وجدتها ، ونطق :

– ولكن لأن أعمل على تكوين مناضل استقلالي يحقق الاستقلال والنقابة خير من أن أنفق جهداً من جهدي في تكوين نقابي يبحث عن النقابة فلا يجد .

كان الحياني يفكر كأنه في غير المجلس ، فقال معارضاً باحثاً عن كلماته في بطء :

– هذا متوقف على مفهوم النقابية ومفهوم الاستقلالية .

ولمعت عينا عبد العزيز وابتسم في وجه الحياني يشجعه على السير في نفس طريق التفكير . وأضاف الحياني وهو ينظر في وجه عبد العزيز :

– إذا كنا سنكون نقابيين يبحثون عن المصالح الذاتية..

فقاطعه علي متسائلاً :

– مثلا ..؟

– المصالح الذاتية مثل الزيادة في الأجور وساعات العمل

والترقية والضمان ، فستكون نقابة فاشلة . ولكن إذا كنا نعمل على تكوين نقابيين يناضلون تحت اسم النقابة لتحقيق الاستقلال الذي يحقق كل هذه المصالح فيجب أن نندفع في الميدان النقابي .

وفكر علي قليلاً كشخص لم يقتنع ، ثم قال :

– أنا أعتقد أن التفكير النقابي – كما تعلمناه عن ماتيو وأندري – أنانية يجب أن نبعد عنها .

فقال الحياني :

– هم أيضاً غير أنانيين لأنهم عن طريق النقابة يحققون الوجود الاستعماري في هذه البلاد. ولو كانت النقابة بين أيدينا لحققنا عن طريقها الاستقلال ..

وسكت قليلاً ثم أضاف :

– .. الاقتصادي على الأقل .

وقال عبد العزيز وقد كان مسروراً بتتبع حديثهما :

– أنا أفضل أن نسير على القدمين معاً . العمال يجب أن يتكونوا كاستقلاليين مناضلين . والنقابة ميدان استقلالي لنضالهم .

قال الحياني :

– في هذه الطريق سننطلق .

قال عبد العزيز وهو يودعهما :

– لا تهملا مصالح العمال.التوتر الحاصل الآن يجب تصعيده حتى يجد العمال ميدان معركة . الاستقلال لا يتجسد في غير المعارك المحلية .. لا تكونا نظريين كثيراً .

ظلت الكلمات الأخيرة تتردد في فكر الحياني وفكر علي وهما يعبران الطريق المحفوفة بالأشجـــار والينابيع بين باب الفتوح والمدينة الجديدة . على دراجتيهما كانا يسيران ببطء يعترضهما حمار هنا وبغل هناك محملة بالخضر أو أكياس السكر والدقيق والحطب والقصب . أخذ علي يلحن بأغنيته المفضلة : « أحب عيشة الحرية » وكأنه يطرد ثقل الصمت عن إحساسه أو يستعين على الطريق وهو يصعد عقباتها وينزل منحدراتها ، ولعله أيضـاً كان يطرد عن أذنيه طنين الذباب والبعوض وهو يلحق روث البهائم فيلفح الوجه أحياناً ويحلو له أحيانـاً أن يقتحم العين أو الأنف أو الأذن .

اقتربا من نادي النقابة ، وكان جمع من العمال « الأهلين » يفد إلى الدار يتجمعون في قاعة الاجتماع ، ولكن بعضهم أخذ يعترض طريق علي والحياني :

– ألا تعرف ..؟ طردت من العمل لأن « الكاوري[1] » وشى بي للمعلم ..

---

(١) الكاوري : الأجنبي .

– خصمت مني اجرة يومين لأني أشرت بيدي محتجاً على ثقل صندوق .

– امتنع المعمل أن يعترف بحقنا في التعويض لأننا غير فنيين .

– لم أجد عملاً منذ طردت لأني اتهمت بأني وطني .

حاولا أن يستمعا لجميع العمال الذين يعرضون مشاكلهم ، ولكن المجتمعين في النقابة كانوا ينتظرون ، وضاق علي ذرعاً فبدأ يصيح متضجراً وهتف به الحياني :

– طامن من حدتك .. لم يزيدوا على أن يطالبوك بحقهم .

وأدرك علي فأخذ يناقش مع عامل مشكلته حتى انتهى بهم السير إلى دار النقابة .

كان المجتمعون ينتظرون في كثير من اللغط ، فاستعاد علي وهو يدخل الدار ذكرى «سوق السباط» حيث كانت الجماهير المحتشدة في السوق تتحدث جميعاً ، ولا يدري أحد إذا ما كان المتحادثون يسمعون أو يفهمون . كان السوق ملتقى صناع البلغ جميعهم : المعلمون والصناع والمتعلمون ، وملتقى تجار البلغ جميعهم : الذين يلبسون ويتاجرون أو يسوقون ، وملتقى الدائنين والمدينين الذين يبحثون عن معامليهم ليستخلصوا دينهم يتاجرون ويناقشون ويساومون بأصوات مرتفعة ، ولكن

أحدهم يبحث عن معلمه أو غريمه وسط الازدحام الشديد في السوق الضيقة فلا يجد فينطلق بصوته الصائت ينادي :

ـ آلمعلم بو زكري .. آمولاي الزكي الخراز ..-آسيدي عبد الرحمن الدلال ..

لم يكن أحد يتصور « سوق السباط » إلا مجمعاً للهتاف والنداء والمساومة واللغو . ولم يكن أحد يقف في مجمع تتلاطم أمواجه إلا ذكر سوق السباط ، فليس بدعاً أن يتداعى السوق إلى ذاكرة علي وقد أقبل على قاعة الاجتماع في النقابة، فقد صرف ردحاً من زمان يذهب كل مساء إلى السوق باحثاً عن دلال أو مستخلصاً دينار من تاجر أو حاملاً بضاعة إلى المعلم باعلو .

وانصرف فكره عن التفكير في السوق عندما اندمج وسط العمال . فقد فجر وجود الحياني وعلي ثورة الغضب بين العمال فأخذوا يتجمعون حولهما ، وأحدهم يهتف :

ـ ماذا استفدنا من النقابة ؟

ويهتف الثاني :

ـ مع هؤلاء الـ .. لا تنفع نقابة ، وإنما ينفع الجد ..

ـ ستون عاملاً يطردون ؟ والمسيطرون على النقابة يساعدون على الطرد ..

ـ لو كان المطرودون منهم ..؟

شعر الحياني وعلي بالحرج . وأحسا كما لو كانا هما المعتديين على حقوق العمال ومصالحهم ..

كان أندري وماتيو يلحظـان فورة الغضب دون أن يتدخلا . فقد صعب عليهما أن يندمجـا وسط العمال الغاضبين أو أن يتدخلا للتخفيف من حدة التوتر . كانا يعرفان وضعية العمال « الأهلين » ولكنها وضعية طبيعية . وما كان للنقابة أن تتدخل لتغيير وضعية طبيعية .

ـ هم غاضبون ..؟

سؤال ألح على فكر ماتيو وأندري ، ولكن ابتسامـة خفيفة ارتسمت على شفتي كل منهما كأنها كانت الجواب المقنع. وفكر ماتيو :

ـ هؤلاء الأهلون عودونا أن يغضبوا، وعودونا أن يعودوا للرضى دون أن يدروا هم أنفسهم لماذا غضبوا ولماذا رضوا .. عصبيون ميدانهم في الجبهة .. هكذا فهمهم المرشال ليوطي.. سيتفرقون وليس منهم من يعود إلى ذكر هـذا الذي يثيرهم الآن .

كانا وهما يلحظان فورة العمال يبحثان الوجوه الغاضبة بدقة ليتعرفا على المتزعمين لحركة الغضب ، فإن مما يهم سلطة الأمن أن تعرفه الأشخاص الذين يثيرون الغضب ويهددون سلامة المعامل وأمن العمل. كانا يعرفان الحياني وعلياً والجامعي والبرنوصي وحمدوش والتهامي فأسماؤهم منذ مثلوا « الأهلين »

في النقابة معروفة لدى شرطة الأمن ، ولكن مثيري الغضب بين العمال يجب أن يعرفوا لتكون الشرطة منهم على حذر . ولذلك كانا يبحثان الوجوه الغاضبة بحذق ودقة حتى يكون تقريرهما كاملاً .

همَّ ماتيو أن يدعو الحياني أملاً في إقناعه بفض التجمع الفوضوي ، ولكن أندري اعترض :

ـ أترك زعماءهم يتحملون مسؤولية الفوضى ..

وأضاف وهو يبتسم :

ـ أسأظل دائماً في حاجة إلى تذكيرك ..؟

ونظر إليه ماتيو بعينين باسمتين وهو يقول من بين شفتين ممسكتين بعقب دخينة :

ـ سجل نقطة ..؟

استطاع الحياني أخيراً أن يستولي على الجموع الغاضبة ، ولكنه أخذ ـ وهو يحدثهم عن الارتفاع فوق مستوى المصالح الذاتية ـ يفقد هدوء الكثيرين حتى صاح عامل :

ـ إلى أن يتحقق الاستقلال يكون هؤلاء « الكاورية » قد داسوا فوق ترابنا .

وصاح آخر :

ـ يجب أن يأكل أبنائي الخبز قبل أن أناضل لتحقيق الاستقلال .

وأخذ علي الكلمة فتجرد عن الأفكار المجردة وعن استخدام المنطق وأكد للعمال أن المعركة طويلة ، وأن صراعهم ضد القوى الثلاث سينتهي بالنصر .

وهتف عامل :

– لن نصارع بنقابة « الكاورية » .

وصفق الحاضرون طويلاً . ومن آخر صفقة انطلق صوت:

– يجب أن نؤسس نقابتنا .

كان الحياني وعلي يشعران بالحرج ، ولكنهما استطاعا إقناع الجموع المحتشدة بتوفير الطاقة ليوم العمل .

وخرجا من مركز النقابة وأحدهما يؤكد للآخر :

– الخلايا الاستقلالية ستجعل من هؤلاء نقابيين مناضلين .

- ٢٨ -

دخلت المدينة يومها ذاك في ضباب الموت ، ولم يكن برد الشتاء القارس الذي يحنطها في أيام ديسمبر بقساوته يميت فيها الحركة بقدر ما كان يبعث فيها النشاط واليقظة . وكان اليوم يوم تجربة الطاقة العاملة في المدينة التي تضج بالحركة طوال أيام السنة حتى أيام العيد .

وجاء عبد العزيز يحمل رسالة هذه المرة .

جلس علي والحيـــاني مطرقين يفكران ، والحياني يمسك

بالرسالة وقد طواها يديرها بين اصبعين من يمناه ويخبط على إبهام يسراه في حركة لا إرادية . وعرف عبد العزيز أنهما يفكران جدياً في طرق التنفيذ فغرز عينيه اللامعتين في عيونهما كأنما يحاول أن يلهمهما – كما كان يفعل دائماً – عزماً جديداً . ولكن علياً والحياني كانا منصرفين بعيونهما إلى بعيد ينظران في لا شيء .

لم يشأ عبد العزيز أن يستعيدهما إلى الواقع ، فقد عرف من خبرته معهما أنهما يفكران طويلاً قبل أن يهتديا . وصمت .

رفع الحياني عينيه أخيراً لتلتقيا بعيني علي ، وكان حديثهما ابتسامة طفرت من شفتيهما في لحظة واحدة . وتلفتا معاً نحو عبد العزيز فأدرك ، وابتسم هو الآخر كما لو كانت البسمات هي لغة التفاهم .

قال الحياني :

– أؤكد أننا سننتصر . ولكني أسأل سؤالاً واحداً ..

توقف قليلاً كأنما كان يتردد في إلقاء السؤال ، فبادر علي:

– لعله يريد أن يسأل : هل بعثت مثيل لهذه الرسالة إلى المسيرين في الأحياء ليضرب التجار والصناع والحرفيون ؟

واتسعت الابتسامة على شفتي عبد العزيز وهو يجيب :

- وسيضرب الخبازون والبقالون وكل من يساهم في بعث الحياة بهذه البلاد ..

ووقف عبد العزيز يودع الشابين وهو يهمس :

- ليس في الوقت متسع للحديث . أمامكم عمل شاق فلا تضيعوا الوقت .

شد علي والحيـاني على يد عبد العزيز في حرارة مودعين وهما يشعران بضخامة المسؤولية ، وصدا عن وجهه ثم تلفت الحياني سريعاً وهو يجهر :

- إذا لم ير أحدنا الآخر بعد اليوم فثقوا أننا على عهدالله.

اغرورقت عينا عبد العزيز بدموع الفرح ، وخشي أن يحسبها الشابان دموع ضعف فاستدار سريعاً ، وذهب .

* * *

كانت أبواق السيارات تردد في كل حي من المدينة تهديداً صارماً لكل عامل لم يلتحق بعمله ولكل تاجر لم يفتح دكانه ولكل موظف لم يلتحق بوظيفته ، وكانت الإذاعة في المنازل تكرر أمر المقيم وتعلن لكل خـادمة في منزل « مواطن » عن العقاب الذي ينتظرها إذا لم تسرع إلى عملها .

وعرفت أحياء المعامل والمصانع حركة غير عـادية كان الشباب فيها يمرقون بدراجاتهم يراقبون الأجانب الذين يحاولون

الالتحاق بالمعامل . وكان ماتيو يسرع بدراجتـه يتقد قلبه غيظاً من الفراغ الذي وجده في طريقه ، يخشى أن تكون الدعوة إلى الاضراب من الجد بحيث تكتسح المعامل . كان يفكر في هؤلاء الدعاة الذين تجاوزوا حد الجرأة فلم يعد يقف في وجههم خوف ولا إرهاب ، وذكر الجـامعي والبرنوصي وهما يقتحمان المعامل ويقطعان السبيل على العمال الأهلين ، ولم يمنعهما عن مواصلة الدعوة إلا الشرطي الذي أغراه بهما ماتيو، وهتف من أعماقه بصوت كادت أذناه أن تسمعاه :

– آه لو فعل مثلي الآخرون لـ . .

انقطع تفكيره وانحبس صوته ، فقد تلقفت رأسه حجرة صوبت نحوهـــا بمقلاع ، ووضع يسراه على جبهته ورجلاه تسرعان بمحرك الدراجة ، وفغر فاه دهشاً وهو يرى : تدفق احمر قانياً كأنما شجت رأسه في لحظة استجابة . توقفت قدماه عن الحركة ، ثم مالت يمناه بقود الدراجة في اتجـاه مجهول ، ولكنه غير اتجاه المعمل .

علم الكثير من العمال « المواطنين » أن ماتيو شجت جبهته لأنه كاد أن يتحدى الاضراب فلم يجرأ أحد منهم على التفكير في الاستجابة لنداء المقيم .

اقترب النهار من زواله، وعادت ربات البيوت «المواطنات»

إلى منازلهن يحملن سللهن فارغة وعلى وجوه بعضهن مسحة غيظ ، وعمق الألم في قلوب بعضهن حتى طفرت الدموع إلى عيونهن . وحدثت مدام بيرنار زوجها وهي تقذف بسلتها الفارغة إلى جدار :

– لم تعد الحياة تطيب في بلد يتحكم في قوته الرعاع .

وطفح الغيظ فأجهشت ، وأشفق مسيو بيرنار فأخذ يحيطها بذراعه يهدىء أعصابها ، وهي تخبط مسند المقعد بجماع قبضتيها وتهتف في وجهه بصوت مخنوق :

– أنت السبب .. كان يجب أن نهجر بلداً يمنعنا الرعاع فيه أن نأكل لقمة خبز ..

ولم ينتصف النهار حتى كانت سيارات « المواطنين » تجوب أرجاء المدينة باحثة عن مخبز ، عن جزار ، عن بقال ..

وعرفت بيوت كثير من « المواطنين » الصوم ، وطلب أولادهم لأول مرة كأس حليب فلم يجدوا ..

كانت المدينة محاصرة ، وكان جيش الاحتلال يقبع في كل ركن من كل حي . وصدرت كلمة الأمر :

– أطلقوا النار على كل جماعة .. على كل شخص يهتف .. على كل من تمتد يده بعمل يهدد الأمن ..

كانت هناك إدارات تضم جماعة من الحاكمين : في كل إدارة مركزية وفي كل إدارة إقليمية أو محلية جنرال يرأس الاجتماع كقائد لمعركة . وكان جنرال المدينة أكثر حماساً :

– يجب سحق هـــذه البذرة الخبيثة .. لقد انتصَرَتْ ويجب أن نعترف ..

ويتلفت في حمأة الغيظ إلى الكولونيل ميشيل وأوداجـه تكاد تنفجر :

– أنت السبب .. هـــذه فكرتك .. السماح لهؤلاء « الأنديجين[1] » بالانتماء إلى نقابات « المواطنين » علمهم التنظيم ، وسلحهم بالشجاعة ، ودفع بهم إلى الجرأة علينا .

وطأطأ الكولونيل ميشيل رأسه كمن يعترف بالذنب ، ولكنه كان يرغب في الدفاع عن نفسه وكاد يقول :

– هو تطور طبيعي .. العمل يتبعـه الصراع بين العمال وأرباب العمل ، بين رأسماليين : أحدهما العمل والثاني المال . ولا بد من سلاح دفاع ضـــد الأقوى منهما : هو النقابة .. وخير أن ننقبهم في صفوف « المواطنـــين » المسيطرين على الميدان من أن نتركهم ينقبون أنفسهم ولو في السر ..

---

(١) كلمة فرنسية كان الفرنسيون يطلقونها على المغاربة .

ولكن وضعية الجنرال النفسية لم تسمح له بأن يتحدث . وأشفق على الاجتماع أن يخرج بدون قرارات فنطق :

– المهم ، ما العمل الآن ..؟

وارتسم السؤال دائرة كبيرة .. حلقـة مفرغة في ذهن الجنرال .. وتوقف عن الحركة ووضع نظارتيه من جديد على عينيه كأنما ليفكر بها ..

وفي دار أخرى كان اجتماع يضم قيادة الحزب تلتقط أخبار الاضراب .

– أول عمل من نوعه في تاريخ الحركة .

كذلك هتف أحد المجتمعين مبتهجاً . وقـاطعه زميل له قائلاً :

– كم أشك في قيمة هذه الأخبار.. ما أعتقد أن الإضراب كان شاملاً .

– لا فائدة .. تشاؤم حتى في الأيام التاريخية .

وهتف عبد العزيز :

– لا تفاؤل ولا تشاؤم ، فنحن أمام واقع لا مع آمال .. وسيأتيك الخبر اليقين ..

ظل عمر ساهماً ساكتاً كأنما لم يكن حاضراً الاجتماع ، عيناه مغروستان في الأرض يفكر . واستله من تفكيره صوت زميل وهو يوجه إليه السؤال :

ـ وأنت ..؟ ألست معنا ..؟

وعاد فكره إلى واقع الاجتماع كما لو كان في سفر بعيد :

ـ يجب أن نفكر فيما بعد الاضراب .. أتحسبون أن عملاً كهذا سيمر دون أن ندفع الثمن .

وابتسم عبد العزيز ونطق :

ـ الثمن ..؟ تعهدنا به مسبقاً وسنؤديه على العمل التافه والكبير .. وخير أن ينتقموا منا لعمل جليل و ..

قاطعته طلعة الحياني وعلي وهما يدخلان . كان الحياني يسير متئداً يكتسي وجهه طابع الجد والصرامة كأنما يحمل على عاتقه عبء الأجيال . وكان علي يخطو خطواته السريعة وجهه مستبشر كأنما يحمل نبأ سعيداً . والتقت عيناه بعيني عبد العزيز فاتسعت دائرة ابتسامته وهو يشير بيمناه جامعاً سبابته وإبهامه في شكل حلقة :

ـ نجاح مائة في المائة .

وتلفتت عينا عبد العزيز إلى الحياني متسائلة . أمن الحياني في لهجته الصارمة على كلام علي :

ـ إضراب لم يعرفه شعب آخر منظم .

عم البشر وجه عبد العزيز وهو يقول :

ـ لبأت القمع إذن ، فقد وحدنا الشعب كله تحت فكرة المقاومة .

جلس علي وكأنه يكمل حديثه :

ـ إضرابنا يفرض وجود النقابة ما في ذلك من شك ..

نظر إليه الحياني في استغراب وكأنه يريد أن يقول :

ـ هل نحن في وقت التفكير في النقابة ..؟

واحتدت أعصاب عبد العزيز وأخذ يبحث عن الكلمات قذف بها علياً حتى اهتدى إليها وما يزال يتمتم :

ـ أنت دائماً تفكر وعيناك بين قدميك .. افتح عينيك إلى أمام .. الاضراب سيفرض الاستقلال ، وأنت ما تزال تفكر في النقابة ..؟

وخجل علي من تخلفه وغرق والحياني في تفكير أحس به عبد العزيز أكثر مما أحس به الآخرون فقال :

ـ إيه .. فيم تفكران ؟

قال الحياني وهو يستفيق :

ـ كنا نتحدث ونحن في طريقنا إليكم في المصير الذي ينتظر العمال .. ماذا سنعمل لمواجهة آثار الاضراب ..؟

ونطق محمد في شبه حدة :

ـ مصيرهم هو المصير الذي ينتظر الشعب المضرب قاطبة .. لا ينبغي أن تفكرا بعقلية طبقية ..

وتلقف عبد العزيز الكلمة :

ـ ستحل الادارة المشكلة ونحن في غنى عن التفكير فيها .

فهم الحياني فأطرق صامتاً يفكر ، ولكن علياً نطق بتسرع متسائلاً :

ـ ستحل المشكلة ..؟

ـ وضحك عبد العزيز بملء فيه وهو يقول :

ـ ستحل المشكلة .. أي نعم .. أتريد أن تعرف كيف ؟

نظرت إليه العيون مكبرة صراحته . وظل الحياني مطرقاً ، وتساءلت عينا علي ، فأضاف :

ـ .. ستعتقلكما ولجنة النقابة جميعها ، كما ستعتقلنا نحن . (وهو يشير بسبابته إلى كل زملائه) وستطرد مئات العمال من عملهم ، وسيعود الآلاف إلى عملهم تحت الضغط والاهانة ..

فقال الهادي مداعباً :

ـ لم نكن نعرف أنك متنبىء ..؟

فقال عبد الباقي :

ـ الأمل أن تكون مسيلمة ..

وأجاب عبد العزيز جاداً وهو يوجه الحديث إلى الحيـاني وعلي :

ـ يجب أن نتوقع ، فالمستقبل يجب أن يكون واضحاً في مرآة أفكارنا . كما نتصور الاستقلال القريب يجب أن نتصور الطريق المحفوف بالمتاعب .

-٢٩-

كانت ليلة من ليالي ديسمبر ، صفت فيها السماء واشتد البرد وماتت الحياة في المدينة بعد يوم من الاضراب النـاجح . لجأ « الأهالي » إلى منازلهم مبكرين ، ولكن الحياة دبت في حي متواضع من أحياء المدينة ، كان شباب العمال يتحلقون فيـه جماعـات يتحدثون عن الاضراب الذي لم يعرفوا له مثيلاً من قبل . لم يهتموا بالمدينة بقدر ما اهتموا بالمعامـل ، ولم يهتموا بالاضراب بقدر ما اهتموا بأثر الاضراب في رؤساء المعـامل

والمشرفين على العمال . كانوا يتحدثون عن الانتصـــار الذي حققوه على خصوم مباشرين أكثر مما كانوا يتحدثون عن الانتصار في الميدان الوطني . كانت الفرحـــه تغمر قلوبهم الشابة لأنهم سيعودون إلى معاملهم أسوداً لا حملاناً . وسيقدر رب المعمل أنهم قادرون على أن يوقفوا معمله، وسيقدر المشرف على العمل أنه لن يستطيع العمل إذا هم أضربوا .

كانت مناسبة جديدة ليتعرف بعضهم إلى بعض عن طريق مشكلة مشتركة يناقشونها ، وكان الجانب المشرق من المشكلة هو الذي يسيطر على جماعات الشبان المتحلقة هنا وهناك بجانب شجرة أو تحت مصباح نور أو بالقرب من سقاية ماء . كان بعضهم يقص كيف راقب المعمل من بعيد على متن دراجته يمنع أي عامل أن يحطم الاضراب . وكان أحدهم يقص كيف رأى « الكاورية » من أرباب المعامل يردون أبواب معاملهم في سياراتهم الفارهة ثم يعودون والغيظ يملأ قلوبهم ..

وكان أحدهم يحكي قصة مدينة الصمت ، المدينـــة التي لم تعرف الصمت في حياتها من قبل .

سيـارات سوداء تتجول في الحي المتواضع لا تكاد تلفت الأنظار ، رؤوس تطل من نوافذها في فضول كأنما لتكتشف شيئاً أو تسأل عن شيء ..

الحي يعود مرة أخرى إلى السكون لا تقطع هدوءه غير ضحكات تنطلق من حنجرات شابة تتوسط الجماعات المتحلقة حول الشجرة أو تحت مصباح النور . وتمرق السيارات مرة أخرى في صوتها المثير، وبأنوارها المبرقة ، وفي ألوانها السوداء كغربان تنذر الحي الساكن في تواضعه. تتلفت جماعات الشباب في اندهاش فتقف على أرصفة الطريق تشهد الحركة الغريبة على الحي التي تحدثها القافلة المتقطعة ..

وفي فضول مثير يخرج كثير من العمال من منازلهم وأكواخهم مدعوين بالأصوات الغريبة المثيرة – يقفون على أرصفة الطريق ليشهدوا ما اعتقدوه سباقاً ليلياً للسيارات . وتزدحم الأرصفة بالمتفرجين . ولا يكاد الشباب يفكرون في العودة إلى حلقاتهم حتى يسمعوا من بعيد هدير السيارات وقد طافت مرة أخرى حول الحي ثم عادت اليه ، يقفون مع الواقفين وضحكاتهم البريئة تملأ أرجاء الشارع . حياة غير عادية تنبت في الحي : شباب ، نساء ، أطفال ، رجال يخرجون إلى الحركة مدفوعين بالصمت الذي أطبق على المدينة يوماً كاملاً . ويتحلق جمهور غفير حول الشارع الذي لا تزوره السيارات إلا لماماً . وتقترب الأصوات المرعبة من الشارع . وتتطلع العيون في شوق . وتبدو السيارة الأولى موزعة

أنوارها الجانبية كما لو كانت تكتشف جانبي الطريق من ضباب مطبق ، وفي داخل السيارة تقبع قبعة تكاد تلامس رقبة معطف تطل من خلالها عيون زرق لا تكاد ترى.. من النافذة اليمينية الخلفية للسيارة السوداء تطل فوهة مدفع رشاش على زناده يد قوية ملفوفة في قفاز من جلد . ولا تكاد السيارة تقتحم مدخل الشارع حتى تنطلق النار تلاحق سرعة السيارة لتكنس الرصيف الأيمن للشارع .

أصوات مرعوبة تنطلق .. أنين منهم يرتفع ..

سيارة أخرى تقتحم الشارع لتلتهم المفاجأة فتحصد الجمهور المتطلع على الرصيف الأيسر ..

أصوات استغاثة ترتفع هنا وهناك ..

اختفت السيارتان .. عمت الضجة كل أنحاء الحي والأحياء المجاورة .. آباء يبحثون عن أبنائهم وزوجاتهم ، نساء يندبن باكيات أزواجهن وأبناءهن ، أطفال يصيحون منادين .

– آبْ .. آخويا .. آمحمد ولد الطاهرة .. آسي مولاي التهامي ..

وتجتلب الضجة الآذان في الأحياء المجاورة التي غلفها الصمت في يومها ذاك ، ويخرج المغامرون والفضوليون من

« المواطنين » متسائلين عما أصاب حي « السوفاج »[1] في الليلة الهادئة الباردة ويكتشفون المذبحة المروعة فيشمتون انتقاماً ، وتبدو على وجوههم علامات البهجة ، وتدخل الحي جماعة من أصحاب القبعات البيضاوية والمعاطف السوداء تقتعد على أنوف بعضهم نظارات سوداء في عز الليل، وتغلف أيديهم قفازات حمراء ، وتقبع تحت ستراتهم كتلة ضخمة في علاّقة جلدية شديدة البأس .

شباب من أهل الحي يقبلون كانوا تائهين في مخلفات يوم الإضراب .

المذبحة تطير صوابهم .

الأصوات المرعبة توتر أعصابهم .

– أمي ، أبي ، أخي ، جدي ، لا شك أن أحداً منهم يتخبط في دمه ..

كذلك تحدث الكثير منهم إلى نفسه .

وتمتد يد مغلفة في قفاز أحمر لتنتضي من الصدر الكتلة السوداء .. مسدس قوي يجهز على جريح كان يشتم .

---

(١) كلمة فرنسية تعني المتوحشين كان بعض الاستعماريين يطلقونها على المتواضعين من المواطنين .

ويندفع شابان ليغرسا سكيناً في قفى الشرطي القـــاتل المغلف في معطفه الأسود ، وينطلق الناجون من شباب الحي يبحثون عن سكاكين ، كانوا كالطير الجريح يرقصون دون أن يفكروا فيما يفعلون .. سكاكين تقع في أيديهم لا يدرون من أين .. رفعوها في وجوه شامتة لا يدرون كيف .. كان هناك أيضاً ضحايا من « المواطنين » ، وكانت هناك شرطـة سرية تسجل وجوهاً بعدسة سرية ..

وخلا الحي إلا من « الأهلين » : امرأة تندب زوجها .. ثكلى تبحث عن وحيدهـــا بين الأشلاء .. شاب يبحث عن زميل له كان يحدثه إلى حين .. شباب العمال يتنادون ليجمعوا أشلاء قتلاهم .. أصوات مفجوعة تنطلق من المنازل والأكواخ وبيوت الصفيح ..

الليل يستر الجريمـة .. الأضواء تنطفىء في الحي ليطبق الظلام على الأهلي فلا يدري أحنط ابنه أم حنط ابن جاره .. الأصوات ترتفع من كل كوخ :

– الله أكبر .

– الويل للقتلة .

وتختفي أشلاء « المواطنين » لا يدري أحد كيف .

وينطلق شباب على دراجاتهم يتلمسون طريقهم في الظلام فتصطدم الدراجات بالطوق يحيط بالحي : رجـــال أشداء مسلحون بخوذاتهم ورشاشاتهم يشرعونها في وجه الذين يحلو لهم أن يقتحموا الحصار . سيارات مصفحة ، ناقلات جنود ، سيارات المواصلات اللاسلكية . ويشير ضوء الدراجـــة إلى راكبها فيلتقطه رشاش أو تأسره يد جندي .

* * *

ويسدل الظلام ستاره على المدينة الغــارقة في المأساة ، لا يضيء منها إلا مكتب الجنرال .

لم يكن ميشيل وحده هذه المرة يناقش الجنرال أو يتلقى منه التعليمات . كانت هيأة الأركان جميعهـا تحيط بـه وهي تشعر بالمسؤولية الضخمة التي تلقيها على كاهلهـــا المعركة التي ابتدأت بالاضراب وانتهت بالمجزرة . ولم يكن الجنرال يتحمل المأساة :

– ثمانية من « المواطنين » قتلوا ..؟ يا للسفاكين القتلة !

كذلك هتف الجنرال لأعوانه وهو يتطلع إلى وجوههم كأنما يستنجدهم المعونة على تحمل الهزيمة .

قال ميشيل ليخفف من مأساة الجنرال :

– أربعمائـــة أهلي ـ يا جنرالي ـ قتلت .. المعركة كانت رابحة ..

ألغى الجنرال كلام ميشيل واستأنف :

– كيف نفسر المأساة للمسؤولين هناك ؟ كيف نفسرهـا للشعب ..؟

ونطق بونيفاس وكان مسؤولاً عن الأمن :

– المهم كيف نقضي على البذرة الباقية ؟ كيف ننتقم من المدبرين ؟

قال سوليي متسائلا وهو يغرز عينيه في عيني بونيفاس :

– الذين دبروا الإضراب ..؟

فأجاب بونيفاس على الفور بجرأة :

– والذين دبروا المجزرة .

وعاد ينظر إلى وجه الجنرال ويضيف :

– الذين دبروا الإضراب هم الذين دبروا المجزرة الليلية .. جماعة من المجرمين لو أخذتم برأيي – جنرالي – لانتهينا منهم منذ زمن .

تسلح سوليي بشجاعته وهو يجيب :

– يا جنرالي : نحن الآن في غرفة مقفلة ، وأنت مطالب بأن تعطي تفسيراً دقيقاً للحكومة ، والذين دبروا المجزرة يتحملون مسؤولية كبرى ..

عيناه انفرزتا في عيني بونيفاس ثم أضاف :

– حماية « للمواطنين » كان يجب ألا نقدم على عمل متهور .

ارتفع صوت بونيفاس واحتدت أعصابه وهو يسأل :

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أريد أن أقول : الأمن استغل بحماقة ..

انتفخت أوداج الجنرال وهو يحسم مشادة كادت تهدد الاجتماع :

– يكفي ما قلناه عن الماضي .. بماذا سنواجه الوضع ابتداء من صباح هذه الليلة ؟

وأجاب بونيفاس وهو ينتصر على سوليي بعينين ساحقتين:

– سنعتقل المسؤولين عن الجريمة وكل أنصارهم ..

وسكت قليلا ليعرف رد الفعل ، فلما اطمأن إلى أن الفرحة علت وجه الجنرال أضاف :

ـ كل الترتيبات اتخذت ليعتقلوا عند الفجر .. لن ينتهي يوم غد حتى يكونوا جميعاً في قبضتنا .

قال الجنرال وهو يحملق في الحاضرين :

ـ محكمة عسكرية ستنصب لمحاكمة القتلة .

فأضاف بونيفاس :

ـ وكل المسؤولين عن الفتنة .

- ٣٠ -

كانت المنافي والمحتشدات تعج بالمعتقلين . وكان سجن المدينة يضم المئات منهم : زنزانات وعنابر السجن تحمل لوحات : « محكمة عسكرية » « إنفرادي » .. كهوف مراكز الشرطة تضج بالأنين : شباب يئن من عذاب الكهرباء ، أجسام ممزقة شوهها السوط والجلد والتعليق وعذاب الجوع والعطش . محاكم تنصب في كل مكان : السجن سنتين لكل العاملين في صفوف الحزب وفي صفوف النقابة . ولكن قرار الأحكام

الذي صدر من مكتب الجنرال أرسل بقائمة خاصة إلى المحكمة العسكرية كان فيها قادة الحزب وقادة النقابة و« القتلة » الذين أطاحوا بثمانية من « المواطنين » في الليلة الرهيبة .

حول القاضي العجوز جلس ضباط يمثلون مختلف قوات جيش الاحتلال ، شبان تخرجوا من المدرسة العسكرية في براءة الأطفال وطموح الشباب ، لم يكونوا ـ وهم يرصدون قدَرَهم ـ يفكرون بأنهم سيجلسون في منصة قضاء. ولكنهم تعلموا منذ دخلوا المدينة أن حماية سلطة الدولة تكون على مكتب الادارة كما تكون في قيادة الكتيبة ، وقد تكون على منصة القاضي .

مثل أمامهم شبان في براءة الأطفال وطموح الشباب متهمون بقتل « المواطنين »، وتطلع ليوتنان جان في وجوههم فاكتشف أنها وجوه شباب لا يقتلون ، من نوع الوجوه التي رآها كثيراً في أطراف المدينة الجديدة تجتر الفراغ والبطالة ، ولكنها تبتسم دائماً وقد تحيي في أدب كما تعلمت في الريف أن تحيي كلما مر بها « مسيو » من « المسيووين » الذين يملأون الريف والمدينة على السواء . ودقق جان بين وجوه المتهمين والمترجم ينقل إليهم أسئلة القاضي فاكتشف وجهاً يعرفه وحدث نفسه :

ـ أليس هو موحا وسعيد الذي كان مساعداً لي في قيادة كتيبة زمور ؟

كاد يضحك من تخيلاته فعبد اللطيف أصغر من موحا . ثم هو فيما أثبت التحقيق لم يشتغل غير عامل في مصنع أحذية .

انصرف فكر جان عن المحكمة فقـد كان غريباً عن اجراءات القضاء التي يمارسها رئيس الجلسة وقد جللت رأسه خصلات بيض منحته سمة القاضي . وأخذ يستعرض الوجوه البريئة التي شوهها التعذيب ولكنه لم ينل من براءتهـا ، ولم يطمس فيها معالم « الأهلي » الشجاع الطيب كما عرفه منـذ دخل المدينة ، وكما عرفـه وهو يتجول في الآفاق وتلتقط حاسته نماذج من إنسان هذا البلد، من نظريات المرشال ليوطي كما درّسها لهم الضباط في مدرسة سان سير .

وتوقف جان عند الحسن وايدار (كينج كونج) والقاضي يستنطقه :

– اعترفت عند الشرطة بأنك قتلت « مواطناً » وأكدت أنه كان يرتدي معطفاً أسود ويضع على رأسه قبعة بيضارية..

– اعترفت والكهرباء يصعقني في ..

وتوقف (كينج كونج) قليلاً ، خجلاً أن يصرح ، وهو يشير بيده في اتجاه عضوه التناسلي...

واحمر وجه جان واغرورقت عينـاه الخضراوان بدموع ساخنة أحالت خضرتها الفاتحـة حمرة قانية . وعلا ضباب

خفيف نظارتيــه البيضاوين . نزعهما يمسحهما بورق شفاف فانفضحت دموع عينيه . اختلطت الصور أمام ناظريه فلم يعد يميز بين وكيل النيابة والمتهمين .. واحتدت أعصابه فكاد يصيح في رئيس الجلسة :

– انه بريء يا سيدي ..

ولكن رئيس المحكمة استله من اضطرابه وهو يسأل (كينج كونج) وابتسامة ماكرة تطبع وجهه :

– بالكهرباء أو بالشكولاط لقد اعترفت . وما قولك فيم اعترفت به ؟

وفكر كينج كونج قليلاً وارتسمت على وجهــه سمات الحزم ورفع رأسه وهو يقول مؤكداً على كل كلمة ينطق بها :

– لم اعترف بالشكولاط .. ولكني اعترفت بالكهرباء يا سيدي القاضي ..

انتصبت أذنا جان وهو يستمع إلى (كينج كونج)وتطلع في فضول كأنما ارتدى لساعته بذلة القاضي ، وأخذت عيناه تنفتحان وكينج كونج يضيف :

– .. ولست أؤكد هذا تملصاً مما اعترفت بــه ، ولكن لأنه الحقيقة التي أقسمت أن أقولها ..

كاد القاضي ينطق بسؤال آخر لولا أن كينج كونج رفع يده وهو يضيف :

ـ .. لا أتنصل من اعترافي .. فقد غرزت سكيناً في قفا رجل طويل كان يرتدي معطفاً ويضع على رأسه قبعة .. ولكني لم أفعل ذلك لأني أردت أن أقتل ، فلم أفكر في حياتي قط أن اصطاد طيراً مخافة أن أقتله ، ولكني ضربته وقد رأيته يشرع مسدسه ويجهز على أبي ..

اختنق صوته ولكنه انتفض كمن يطرد دموعاً طفرت ، بالرغم عنه إلى عينيه ، وأضاف :

ـ ..أبي كان يغالب الموت بعدما صرعته ـفيمن صرعت ـ السيارات السوداء التي نشرت الموت في الحي .

التفت جان إلى القاضي كأن عينيه تسألان :

ـ أليس هو بريئاً ..؟

وكان القاضي ينظر إلى أمام في اتجاه كينج كونج وهو يقول :

ـ يكفي هذا .. أجلس .

ويطلب اسماً آخر :

ـ عبد اللطيف بن الحسن .

عادت ثلة الشباب إلى السجن وهي تحمل في عنقها حكم الإعدام، وعرفت غرفة السجن رقم ١٣ مجموعة من الرجال والشباب : الحنصالي ، الحسن وإيدار ، عبد اللطيف بن الحسن ..

* * *

كان إعدام مجموعة من شباب العمال اعتقلوا في الحي بعد مجزرة لم تخف بواعثها موضوع سؤال تلقاه جنرال المدينة من « أم الوطن » ، ووقف الجنرال في جلسة أركان حربه يعلن بصوت متوار في القلق والاضطراب والحيرة .

ـ سؤال كهذا يدفع بنا إلى أن نؤجل إعدام الآخرين ..

وتطلع اليه الأركان في شبه حيرة فقد كان متحمساً وهو يعطي الأوامر للمحكمة أن تصدر الحكم ، وتتابع التحقيق في اتجاه الحكم بالإعدام مع الآخرين . ونهر الكولونيل ميشيل وهو يحاول أن يطلب منه الترفق في التنفيذ متهماً إياه بالتردد والجبن أمام زملائه . وما يزال الكولونيل ميشيل يجتر لوعة الاتهام وهو ينظر بعينين حاقدتين إلى الجنرال الذي تخطى السلوك العسكري وهو يجلس على مكتب الادارة . ولم يكد يسمع كلمات الجنرال حتى بادره :

ـ أظن ـ جنرالي ـ أنك أعرف بمسؤولياتك هنا من موظفين يجلسون على مكاتبهم في باريس يتأثرون بحملات صحفية مغرضة ..

لم يخفَ على الجنرال اللؤم الذي تحمله كلمات الكولونيل ميشيل ، ولكنه تجاهل غمزاته وصاح في الجمع :

ـ رغم مسؤولياتي المباشرة فأنا مضطر أن أعمل بتناسق مع باريس .

والتفت إلى الكولونيل مضيفاً :

ـ .. أنسيت أن الجندي يطيع السياسي ..؟

وكانت حقيقة قالها في لهجة نكتة أثارت ضحك المجلس وفيه ضباط كانوا يتندرون دائماً بهذه الحقيقـــة ، وخففت الأزمة .

استمرت قضية قيادة الحزب وقيادة النقابة أمام قـاضي التحقيق في المحكمة العسكرية وهو ينتظر التعليمات . وكانت صيحة الجنرال :

ـ قطعنا الذنب والآن جاء دور الرأس ..

إيذاناً للمحكمة أن تنطلق ، ولكن « النصر » الذي حققه الجنرال جعله يقف أمام تعليمات باريس .

* * *

ما قضوه في السجن كفاية .

ذلك هو الحكم الذي صدر بعد ثلاثين شهراً قضـاها في السجن عبد العزيز وكل المسيرين الوطنيين ، وقضاها في السجن علي والحياني وكل المسيرين النقابيين .

* * *

من باب السجن إلى خلايا الاستقلاليين والنقابيين ..
وابتدر عبد العزيز علياً وهو يحييه :
ـ كيف أنت والنقابة ..؟
ـ كلهم أصبحوا استقلاليين يفكرون في الاستقلال ، ولم يعد أحد من العمال يفكر في النقابة .
ـ كنت أعرف ذلك .. ولكنهم سيعودون استقلاليين نقابيين .
ـ إنه سير التاريخ .
انضم اليهما الحياني والتقط الكلمات من بعيد فأضاف :
ـ إنه الفهم الصحيح للمشكلة .
والتفت إلى عبد العزيز مضيفاً :
ـ والفضل لك ..

* * *

في الأفق القريب فتح علي والحياني عيونهما على أبعادها .. كان واضحاً جلياً .. بدأت السحب تنقشع .. استضاءت الطريق حتى أصبح من اليسير سلوكها .. علي والحياني يتوقفان. على ضوء الأفق يتطلعان إلى وجه عبد العزيز ، وفي هدوء العاصفة يسمعان صوته :
ـ آن الأوان .. اضربا الحديد وهو سخن .

* * *

وصدر البيان باسم سائر العمال المواطنين المغاربة :

كونا نقابتنا الوطنية المستقلة ، لا مكان لأية نقابة أجنبية في بلادنا . .

* * *

ففر الجنرال فاه وهو يقرأ الخبر في الصحف .. ونظر إلى الكولونيل ميشيل نظرة استفهام فلم ينجـــده ميشيل بغير إشارة حائرة .

ودهش هنري وأندري وماتيو وهم يقرأون الخبر في الصحف، وطوى هنري الصحيفة وهو يقول بصوت مسموع :

– آن لنا أن نرحل .

اقـرأوا للمـؤلـف قـريـبـا

روايــة

صــبــاح...
ويـزحـف الليــل

***

اقـرأوا للمـؤلـف

دفـنــا المــاضـي

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء